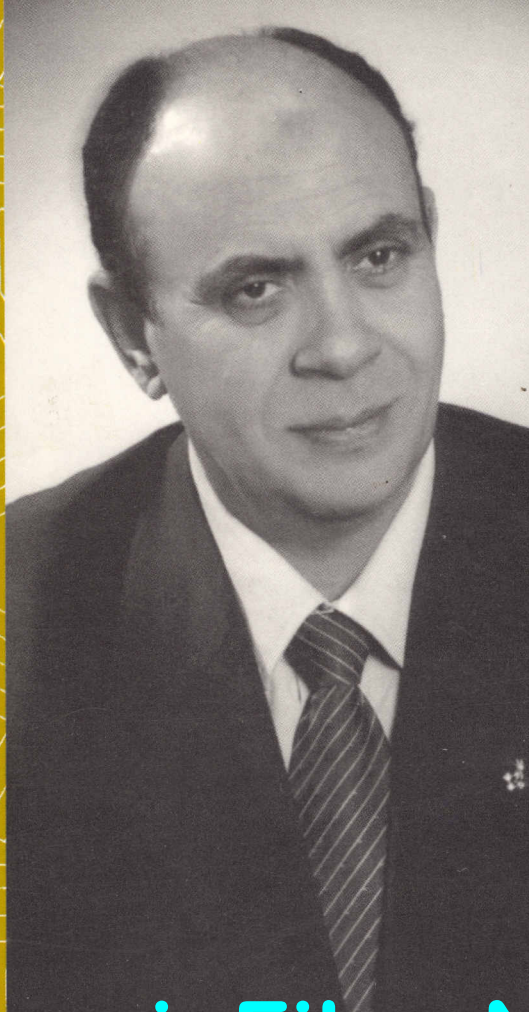


تم تحميل هذا الكتاب  
من موقع الملفات الإسلامية  
<http://islamicfiles.net>

islamicFiles.Net



islamicFiles.Net

**الوسطية**

**في الدين والإبداع**

**أ.د. مبروك عطية**

**الدار المصرية اللبنانية**





# المحتويات

الصفحة	الموضوع
9	مقدمة .....
33	الفصل الأول : الشعر في موكب الدعوة .....
33	النابغة الجعدي .....
37	حسان بن ثابت .....
42	عبدالله بن رواحة .....
44	عبدالله بن الزبير السهمي .....
47	وملئت الدنيا أشعارًا لمقتل عثمان .....
52	عمرو بن سالم الخزاعي .....
53	الشعر وتفسير القرآن الكريم .....
57	الصوفية والشعر .....
60	قصة الخطيئة مع عمر بن الخطاب .....
66	الشعر في صحيح البخاري .....
69	استحضار المعاني .....
69	في غزوة الخندق .....
87	الفصل الثاني : الأدب الإنساني أدب إسلامي .....
99	أثر القرآن الكريم في الشعر .....
104	أبو العلاء المعري بين الإيمان والضلال .....
114	فرق بين التأويلين كبير .....
129	روبرت لي فروست .....
143	الفصل الثالث : التبادل بين علماء الدين والمبدعين .....
143	حاجة علماء الدين إلى الإبداع .....
160	حاجة المبدعين إلى الدين .....
172	نصيب الأطفال من الإبداع .....
175	نصيب المبدع نفسه من إبداعه .....

الصفحة	الموضوع
181	الفصل الرابع : حاجة الأمة إلى وسطية الدين والإبداع
181	من معوقات الإبداع
197	حاجة الأمة إلى الوسطية
202	ما عسى أن يتلقاه المتلقي
207	الفصل الخامس : النشر ديناً وإبداعاً
207	النشر قبل الإسلام
210	النشر سعة
243	خاتمة

\* \* \*

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾  
يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾

(طه : 25 - 28)

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ



## مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان ، والصلاة والسلام على خير من  
نطق بلسان، سيدنا ومولانا محمد النبي الإنسان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم  
بإحسان إلى يوم الفوز والخسران .

وبعد ...

فإنني أبدأ بها سطره العالمان الجليلان وهما من رواد التحقيق وأرباب العلم  
والأدب ، أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون في مقدمة المفضليات : «الشعر  
ديوان العرب ، وترجمان أفكارهم وعنوان مفاخرهم ، ورافع ألوية عظمتهم ، ثم  
هو المرأة الصادقة لحياتهم ، فكأين من عادة لهم لولا الشعر أمست طي الكتمان ،  
وحال لولاه أضحت نهب النسيان ، وهو الذي حفظ على العرب تاريخ مجدهم  
الأدبي ، الذي تاهوا - ولا يزالون يتيهون - به بين الشعوب والأمم ، ويرفعون  
الرأس به عاليا ، وإنه لتتجلى قدرتهم على البيان وسحره في هذا التراث الذي ساقه  
الرواة إلينا في صدق وأمانة ، وإنه ليعجبك حقاً أن تروض نفسك بفهم أسرار هذا  
البيان ، فإذا أنت تستزيد وتستزيد ولا يفارقك العجب منه ، والإكبار له ، وأن تغرم  
به غراماً »<sup>(1)</sup>.

وعلى سبيل المشاكلة للمفضليات ، فتلك الكلمات مفضلياتي وما اسمي  
المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، وإنما أنا معروف اسمي على وجه هذا الكتاب .

فهذه الكلمات الموجزة تحتها من المعاني ما لا تتحمله المجلدات ، فقد صورت  
الشعر وما أخلت ، وقدرته وهي عارفة بقدره ، وأنا حين أنقلها هنا أذكر منذ حوالي

(1) المفضليات ، ص 5 دار المعارف ط السابعة ، سنة 1977 .

ثلاثين حجة أني تقدمت إلى الدراسات العليا طالباً في الرغبة الأولى قسم الأدب والنقد ، فلما أعلنت الجامعة كشوف المقبولين لم أجد اسمي ضمن الزملاء المسطرين به ، فزعمت أني غير مقبول ، ودخلت على الموظف المختص فإذا به يرحب بي ، ويهتني على قبولي ويرجولي الخير فقلت : ألسنت من كتب الكشف ؟

قال : بلى .

قلت : فعلام التهئة وأنا لست في المقبولين .

وتنبه - رحمه الله - للبس ، فأجابني : إن اسمك في أول كشف المقبولين بقسم اللغويات ، قلت : لكن رغبتني كما كتبت في الاستمارة الأدب والنقد ، ابتسم وقال أعلم ، وعليك الآن بمناقشة الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرازق البسيوني فهو الذي رشحك للغويات وقابلته - رحمه الله - وشرحت له الأمر ، فقال :

أردت أن أخدم بك اللغويات ؛ لأنك لها أهل حيث إن تقدير «ممتاز» في الصرف والنحو أولى به قسمنا ، ولن يخسرك الأدب ، فاكذب ما شئت من شعر ومن نثر ، وكن أديب اللغويين ، فقلت على بركة الله ، وقد صرت بفضل الله أستاذاً ورئيساً لقسم اللغويات في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر فرع البنات بسوهاج .

ولم تنقطع صلتني بالأدب حيث كتبت الشعر ، ونشرت بعضه في مجلة الأزهر ، وعكاظ السعودية وغيرهما ، وفي سنة 1990 أعلنت وزارة التربية والتعليم عن مسابقة في التأليف للكتب المدرسية فخضت غمارها ، واشتركت مع صفوة من أهل العلم على رأسهم الأستاذ عبد الجليل حماد - رحمه الله - وحصل كتابنا «الأدب العربي» على الجائزة الأولى التي سلمنا إياها في أمسية وضيئة الأستاذ الدكتور أحمد فتحي سرور حين كان وزيراً للتربية والتعليم ودرسته جموع الطلاب بالصف الأول الثانوي ما يزيد على عشر سنوات .

وكان جُل عملي في هذا الكتاب الفائز أن اخترت نصوصاً من الشعر في عصره الجاهلي والأموي مشرقة حية ناطقة بالمعاني الإنسانية ، يشعر من يطلع عليها أنها من الشعر الحديث في رفته وسهولته وقرب جناه ، وأعني بذلك الشعر البعيد عن الرمز المغلق والطلاسم المظلمة أي كنحو قول شوقي :

سُقِيَا لِعَهْدٍ كَأَنَّافِ الرُّبَا رِفَةً      أَنَّى ذَهَبْنَا وَأَعْطَافُ الصَّبَا لِينَا  
إِذَا الزَّمَانُ بِنَا غِيْنَاءُ زَاهِيَةً      تَرِفُ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رِيَا حِينَا  
الْوَصْلُ صَافِيَةٌ وَالْعَيْشُ نَاقِيَةٌ      وَالسَّعْدُ حَاشِيَةٌ وَالْدَّهْرُ مَا شِينَا  
وَالشَّمْسُ تَحْتَالُ فِي الْعُقَيَانِ تَحْسَبُهَا      بِلَقَيْسٍ تَرْفُلُ فِي وَشْيِ الْيَمَانِينَا  
وَالنَّيْلُ يُقْبَلُ كَالدُّنْيَا إِذَا احْتَفَلَتْ      لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمَصَافِينَا  
وَالسَّعْدُ لَوْ دَامَ وَالنُّعْمَى لَوْ اطَّرَدَتْ      وَالسَّيْلُ لَوْ عَفَّ وَالْمِقْدَارُ لَوْ دِينَا  
أَعْدَاهُ مِنْ يُمْنِهِ التَّابُوتُ وَارْتَسَمَتْ      عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَنْوَارُ مِنْ سِينَا

ثم مضى الزمان ، وجاءت فكرة هذا الكتاب ملحة على لسان الأستاذ محمد رشاد الذي قال فيه المنصفون وبقولهم أقول : إنه ليس صاحب مطبعة أو دار تخرج الكتب للبيع ، وإنما هو صاحب فكرة وحامل لواء رسالة ، وعلى يديه خرجت كتبي الثلاثة : «الإسلام كما عرفه الصحابة» ، «الأولويات في الفكر الإسلامي» ، و«فتاوى الشيطان» .

كنت إذا جلست إليه لمست له رغبة في نشر كتاب يكون حبالاً من حبال المودة بين رجال الدين أو علمائه على الأصح ، وبين المبدعين من الشعراء والمثقفين ؛ فإن ما بينهم : وطن ، ولغة ، ودين ، والدين أول رابط جمع بين العربي والأعجمي ، ووضع ميزاناً للتفاضل .. هيهات أن يضعه بشر ، وإنما هو ميزان الشرع المتمثل في التقوى .



ورأيت أن الكتابة في هذا الموضوع من المندوبات المستحبة إن لم تكن من عزم الأمور؛ لأن الكلام بموضوعية يخضع له كل ذي عقل سليم.

وقد رأيت بعض أهل العلم في زماننا بينه وبين مثقفي العصر، والمبدعين حجاب، ورأيت من بعض هؤلاء السادة نحوه، رأيت الجماعة الأولى تطلق لفظة «علماني» مع أن من معانيها النسبة إلى العلم، وكم في النسب من شذوذ على المثقفين، ورأيت الجماعة الثانية تطلق عبارة «الجمود» على بعض رجال العلم بالدين، وأنهم ليسوا أهلاً للخوض في نتائجهم الإبداعي، وما يحمله ذلك النتاج من معالم فنية لا يدركونها.

والحق أن هذا بعض إفراز الزمان الملهب في كل شيء فنحن نعاني الأزمات في كل شيء، ومن أشد ما نعانيه أننا نملك أسباب الحياة ولا نريد لنا حياة، نملك أسباب القوة وكأننا اخترنا الضعف، نعرف أسباب النصر ونغرق في الهزيمة، وطالتنا سرعة العصر، فأصبحنا بقسوة نطلق عبارات الصدود ولدينا مساحة للتلاقي وفرص للمودة.

إن بعض الأصوات تنادي بحرية التعبير، وتصرخ في وجوه من يريدون تكميم الأفواه بقولهم قل كذا ولا تقل كذا.

ومن هؤلاء منصفون يقولون: دعني أقل ما شئت وناقشني فيما أقول، فيبني وبينك الحوار، والموضوعية، ومن هؤلاء الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي.

وأنا أقول للمثقفين المستنيرين: إن علماء الدين ليسوا جامدين كما تتصورون، وقد كان وما زال علماء الأزهر وشيوخه لهم شعر صاف، وأدب راق، وحس مبني على علم بأصول اللغة ودروبها.

لكن المسألة كما قلت مرجعها إلى هذا الاحتقان الذي فرضته الظروف العامة التي هي أشبه بالسيف على رقابنا جميعاً.

والإسلام الذي نتسب إليه جميعاً يعد شعر حسان بن ثابت على الكفار أشد من وقع النبل عليهم، وقد مضى الشعر في ركب الحضارة الإسلامية وتاريخ البشرية يحدو بها إلى المعالي، ولا أكرر ما نقلته عن الشيخين شاعر وهارون.

ثم إن كان لدينا من ضوابط للإبداع يراها بعض الناس حجراً عليهم، وحجر عثرة في طريق إبداعهم كالالتزام بالوزن والقافية الذي اعتبره الشعراء المجددون قيئاً يمنع من انطلاق الشاعر وغزوه آفاق المعاني، وكان ما كان من قتال بين مدرسة المحافظين ومدرسة المجددين، فإن بإمكاننا أن نناقش هذه المسألة بهدوء، فأقول مثلاً إنها ضوابط ملزمة من تلقاء الشاعر نفسه، لا من أحد يفرضها عليه وهو واقف عند لسانه؛ لأنه شاعر ذو دين قبل أن يكون مبدعاً غواصاً في بحر اللغة التي امتزجت بدمائه، وأبت إلا أن تخرج منه مضرجة تدق باب الحرية، تلك الحرية التي هي أسمى ما سعت إليه البشرية، التخلص من قيود القهر والظلم والعدوان.

إن هذا الشاعر منضبط بدينه، فهو لا يدعو إلى فاحشة، ولا إلى شرك، ولا إلى لغو الكلام. وقد روى البخاري قول النبي - ﷺ - في عبد الله بن رواحة: إن أحاكم لا يقول الرفث.

فما الذي جعل ابن رواحة لا يقول الرفث في شعره؟ إنه الدين الذي عبر عن بعض معانيه شعراً كما عبر عنها غيره نثراً.

فإذا بدا من الشاعر ما ظاهره المخالفة لأصول الدين وآدابه فأى شيء يمنع مناقشته وسؤاله عن مراده فقد يكون له تأويل يحترم، ومقصود يلتزم، وبهذا ينجو من التُّهم، ويبرأ من الشرك والظلم.

ولا بأس أن يكون هناك في الخطاب الديني طرف من موقف الإسلام من الكلمة شعراً كانت أو نثراً، فإن الوقاية خير من العلاج، فإذا نشأت الأجيال على



منهج الدين في توجيه اللسان إلى خير الكلام ، وفيهم المبدعون رأينا منهم ما لا يستهجن ، ولا يستقبح وكذلك درس اللغة في المدارس والجامعات .. وليس في هذا اتهام للكبار بأنهم لم يتربوا على منهج وإنما هي الإضاءة الواجبة لمستقبل الأيام .

وأنا أرى الدكتور جابر عصفور حاملاً أوجاعاً سببها ما تعانيه الثقافة والتعليم من أزمات ، والمفارقة بين ما ضي له وصفه بالهوس ، ومستقبل لا يخلو من مخاطرة .

لكنني أقف عند قوله : « والتدين الذي يقحم الدين في كل شيء متجاهلاً موروثنا الإسلامي الذي يأمرنا بأن نعمل ونجتهد ما نستطيع كأننا نعيش أبداً ، وبتقى الله كأننا نموت غداً ، فضلاً عن كوننا أدرى بشئون ديانا ، وهو إقحام يترتب عليه أو يصاحبه كثير من مظاهر التعصب التي تنتقل من المجالات الدينية إلى غيرها من المجالات فتؤدي إلى تعميق وتوسيع أشكال التمييز في المجتمع عقائدياً وطائفيّاً وعرفياً ونوعاً أو جنساً»<sup>(1)</sup> .

لأبين بعض الأمور ، وأهمها أن الدكتور جابر يخشى على الحياة بخاصة الثقافة ، مما يصحب إقحام الدين من تعصب وتوسيع أشكال التمييز في المجتمع .

ومن ذلك فهمه الذي هو فهم جميع علماء الإسلام بأن الدين يدعو إلى العمل لصالح الدنيا والآخرة معاً .

وأود أن أقول : إن فكرة إقحام الدين في كل شيء - وهي صعبة - ما كانت إلا ثمرة من ثمرات الخطاب الديني الذي يراه بعض المثقفين تحجراً وجموداً وحللاً وحرماً وناراً دون جنة ، وعذاباً بلا نعيم . وإلا فالدين لا يُقحم ، ولا يستطيع أحد أن يقحمه في بعض شيء أو كل شيء ، فهو نور لا بد منه وضياء لا تستقيم الحياة بدونه .

فهلّا اتفقنا على أن غياب روح الدين كان سبباً في مثل هذه الرؤية ؛ لأن الدين دعوة إلى الحياة ، والنبي - ﷺ - خاتم المرسلين أرسله الله رحمة للعالمين ، وأنا أدعو

(1) نحو ثقافة مغايرة ص 9 ط الدار المصرية اللبنانية سنة 2007 .

كل إنسان أن يقرأ صدر سورة طه ، حيث يقول الله ربنا : ﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِنَشَقِّكَ فَالله - تعالى - لم ينزل على رسوله - ﷺ - القرآن - وعلينا - من أجل شقائنا ، وفيهم من ذلك ضرورة أنه أنزله لإسعادنا ، وقد كتبت في ذلك كتاباً سميته (الإسلام دعوة للسعادة) .

لكن بعض الناس يتخذ من الحزن وسيلة للتعبير عن صدقه مع الله ، وهو مخطئ ، وبعض الناس يعاني انقصاً ، وازدواجية مرعبة ، فهو في حياته كسائر الناس يلهو ويلعب ويضحك ويضحك ، ويسرف في إطلاق النكات الساخرة والعارية من المعاني السامية والهابطة معاً ، فإذا لبس ثياب الدعوة بدا متحفظاً ، على لسانه « لا حول ولا قوة إلا بالله » و « أستغفر الله العلي العظيم » و « يا لطيف الألفاظ نجنا مما نخاف » . ويعيب على الناس كلاماً هو فيه إمام ونحن نعلم أن النبي - ﷺ - كان سره كعلانيته ، وما أمر الناس بشيء إلا كان أول من فعله وما نهاهم عن شيء إلا كان أول من اجتنبه ، وغضب حين قال له أحد الناس : لسنا مثلك يا رسول الله ، فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وقال إني أعلمكم بالله وأنا أخشاكم له وأتقاكم ، وهذا رواه البخاري .

وحين يقول الدين : أنتم أعلم بشئون دنياكم لم يكن ليقول ذلك ويرحل تاركاً الناس لدنياهم ، وإنما هو معهم يثيهم على اجتهدهم في الارتقاء بتلك الدنيا ، فمن يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه إنسان أو حيوان أو طير إلا كان له به صدقة .

والنبي - ﷺ - حين قال : من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، إنما أحاط طلاب الطب والهندسة والزراعة والعلوم والرياضيات والجيولوجيا والتقنيات الحديثة بظلال من البشري بالفوز برضوان الله ، ولا يُدعى أن آية كذا في سورة كذا تقرر علمياً تلك النظرية ، فالقرآن الكريم كتاب هدى وشفاء لما في الصدور وليس كتاباً موضوعه الطب أو الهندسة أو علم الأجنة لكن



كل علم من العلوم يجد فيه إضاءة وإشارة محفوفة بالتقوى ، مسوقة بالحث على النبوغ والإبداع .

فقول من يقول : نحن أعلم بشئون ديننا على أن ذلك انفصال عن الدين وتجنب له كلام في حاجة إلى مراجعة .

إن الدين يقول : كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أقطع ، فماذا على الطبيب والمهندس والمعتكف في معمله لو بدأ ببسم الله ، وانطلق إلى قواعد علمه وأصوله ثم إن الدين كله قد تجمع في أول حديث رواه البخاري عن عمر - رضي الله عنه - وهو قول النبي - ﷺ - إنها الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

ومعنى النية : انشغال القلب بالعمل والتفكير فيه ؛ فالمصلي تصح نيته إذا علم ما الوقت الذي يصل فيه ؛ فلا تصح صلاة بلا نية كما لا تصح صلاة بلا طهور وكذلك المبدع الذي ينشئ عملاً جميلاً يشكل الوجدان ، ويؤثر في مسيرة الإنسان ، أخرج عمله هكذا كيفما اتفق؟! وكما خرج منه ؟ فهو ساعة يبدع يكون - كما يقول - في ساعة ولادة وهذه الولادة هل يكون التمعن فيها مسفرًا عن غزال أم مسفرًا عن قرد؟! .

والولادة لا تتحقق دون حمل ، والحمل إما أن يكون من نكاح صحيح ، وإما أن يكون من سفاح حرام . ويكون حمل المبدعين من نكاح صحيح إذا صدقت النية عندهم في إبداع عمل يرقى بالشعور والوجدان ، ويسهم في بناء الإنسان خلقًا وتنويرًا ، والله در الدكتور شوقي ضيف الذي حذر في كتابه فصول في الشعر ونقده من بعض القواعد الأدبية التي وصفها بالمضللة ، ويعني التحذير من أن يظن أن

تجديد شعراء الأندلس إنما كان بسبب الطبيعة الخلابة التي عاشوا في أحضانها فتأثروا بها وأثرت فيهم ، ومن ثم خرجوا على المؤلف من موسيقى الشعر ، وكان دليكه على ذلك أمران : الأول : أن الشعراء أنفسهم صرحوا بأنهم تأثروا بغيرهم من الألى لم يكونوا بين أحضان تلك الطبيعة .

والثاني : أن لهذا التجديد في موسيقى الشعر جذورًا في الشعر القديم <sup>(1)</sup> .

وكذلك الحال هنا ، كل من كانت له نية إضافة من إضاءة كان ولده ابن حلال .

وكل من أسلم نفسه للريح تلقيه بأي بذور كان ولده ابن سفاح ، لكن الإسلام ليس حجر عثرة في طريق المبدعين ، وإنما هو دعوة إلى إبداع حقيقي ، تصاحبه روح القدس .

والدكتور جابر عصفور يتحدث في كتابه القيم (نحو ثقافة مغايرة) عن أزمة الكتاب ، ويقول بالنص : «إن الكتاب منتج ثقافي في نهاية الأمر ، وله أثره في تشكيل الوعي العام للأمة والإسهام في تقدمها ، ومن ثم فلا بد من النظر إليه بوصفه أداة أساسية من أدوات التثقيف العام التي لا بد من دعمها على أكثر من مستوى وعدم الاقتصار في فهمها أو ممارستها على حسابات الربح والخسارة بالمعنى النفعي الضيق» <sup>(2)</sup> وهذا عين الفكرة هنا ، فإن عبارة الدكتور جابر هي فحوى النية ، وهل النية إلا نظر بالقلب فيما تقبل عليه الجوارح .

إننا أمام مستويين في ضوء ما قاله الدكتور جابر مستوى يقوم على حسابات الربح والخسارة ، وتلك نية لا يشغل صاحبها بالأشياء من الصدق في المنتج

(1) فصول في الشعر ونقده ص 305 .

(2) نحو ثقافة مغايرة ص 127 .



الثقافي، ومستوى يقوم على أثر الكتاب في تشكيل الوعي العام للأمة، والإسهام في تقدمها، وقول الدكتور جابر «فلا بد من النظر إليه بوصفه أداة أساسية من أدوات التحقيق» معناه النية.

ولكي تتحقق هذه النية؛ أي هذا النظر لابد من منهج ولا بد من ضوابط، وبهذا عدنا إلى الغصة المتوهمة في الحلق، وهي الضوابط. وقد كنا ومازلنا نطلق في المجتمع الجامعي عبارة «تحقيق علمي» و«تحقيق تجاري» وكان طالب الدراسات العليا إذا تقدم إلينا بموضوع تحقيق، وكان موضوعه كتاباً مطبوعاً منتشرًا في الأسواق وعليه عبارة «تحقيق فلان» كنا نسمح له بتسجيله لنيل الدرجة العلمية، إذا علمنا أنه محقق تحقيقًا تجاريًا، أي ليس فيه تحقيق علمي خدمه وقدمه مضبوطًا موثقًا، فانظر كيف كان التحقيق التجاري كالعدم، وفرق كبير بين أن تقدم العمل مشوهًا خاليًا من الضبط والتحقيق والتوثيق، وأن تقدمه كعروس الحسن إذ جُليت مبيّنًا أصله وفصله، ومتنه وحاشيته، ضابطًا عبارته مبيّنًا ما فيه تصحيف أو تحريف، موثقًا نصوصه مبيّنًا قيمته، متبّعًا مصادره، واقفًا على مشاربه.

ويعود الدكتور جابر عصفور إلى بيان ثمرات النية من خلال تعقيبه على كتاب عبد اللطيف حمزة (تاريخ الحياة العقلية والأدبية في عصر بني أيوب وعصر المماليك) فيقول:

«ولا يستطيع القارئ اليقظ سوى الانتباه إلى ممارسة الرغبة الصادقة في اكتشاف جذور الهوية الوطنية وأصول شخصيتها المميزة، والإدراك العميق بأن البحث الجامعي في مجال الدرس الأدبي والفكري لا يمكن أن ينطلق من فراغ، وأنه لا بد أن يُوصل لمنهجه منظورًا يربط بثقافته الوطنية ويؤسس لجهده بوعي يبحث عن الخصوصية؛ ولذلك ختم عبد اللطيف حمزة كتابه بأنه لا يطمع ممن تتاح لهم قراءة فصول كتابه أكثر من أن ينظر إليها باعتبار أنها مثال من أمثلة البحوث الأدبية التي تعرضت لها «المدرسة الأولى» من مدارس البحث في الأدب المصري بجامعة

فؤاد الأول بالقاهرة (جامعة القاهرة اليوم) فهكذا بدأ تلاميذ هذه المدرسة بحوثهم في هذه الناحية، وهكذا كان تفكيرهم فيها منذ أن اقتنعوا بوجوب النظر في الأدب الإسلامي من هذه الزاوية وتلك طائفة من المشاكل التي عرضت لهم في أثناء الدرس، ونماذج من الطرق التي سلكوها في سبيل الحل»<sup>(1)</sup>.

ويقول الدكتور جابر: «أتصور أن إيمان الدكتور عبد المعطي بيومي بالديمقراطية هو ما جعله يحترس إزاء فكرة «المستبد العادل» التي نقلها الإمام محمد عبده عن أستاذه جمال الدين الأفغاني مستبعدًا إمكانات الدلالات السلبية التي قد تصاحب الفكرة، ولذلك فهو أقرب إلى عبد الرحمن الكواكبي في الهجوم على طبائع الاستبداد تحت أي صفة أو قبول حرفي لما ذهب إليه الأفغاني...»<sup>(2)</sup>.

فانظر كيف قال إن إيمان الدكتور عبد المعطي بالديمقراطية هو ما جعله يحترس إزاء فكرة المستبد العادل.

ويقول الدكتور جابر: «أقول إن إيمان فلان بمبادئ دينه جعله يحترس من ذكر كذا وكذا، في اللفظ، أو في المعنى، أو في الملبس منهما، أي لا بد أن تكون هناك نية عرفها الدكتور جابر حين تحدث في مبحثه (نحو خطاب ثقافي جديد) عن الغزو الأمريكي للعراق، وأنه عودة إلى الاستعمار الذي يفرض نفسه بقوة السلاح»<sup>(3)</sup>.

ومن هنا أقول: إذا كنا قد عانينا زمانًا من الاستعمار وويلاته وما زلنا إلى الآن نعاني، وإن اختلفت الأسماء فماذا فعلنا معشر الأدباء والعلماء إزاءه إن أعلام الإسلام وعلى رأسهم محمد - ﷺ - كانوا في مقدمة الصفوف عند لقاء العدو

(1) نحو ثقافة مغايرة ص 188.

(2) المرجع السابق نفسه 197-198.

(3) المرجع السابق نفسه ص 205.



وأعلام الشعر كانوا كذلك ؛ فهذا أبو محجن الثقفي يسأل فرساً وسلاحاً ، وهو ينشد :

كَفَى حَزْنًا أَنْ تَلْتَقِيَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا وَأَتْرَكَ مَشْدُودًا عَلِيَّ وَثَاقِيَا  
ويقاتل قتالاً شديداً جلب الله به النصر للمسلمين .

فهل نحن قوة كما كان أسلافنا قوة أم تركنا ساحة القوى وبتنا يكيل بعضنا لبعض ويتهم بعضنا بعضاً ؟! وأود أن أسوق هنا ما ذكره القرآن الكريم في شأن أولي الأعدار الذين ما عليهم من سبيل حيث بين لنا ربنا - تعالى - أن ذلك مشروط بنصحهم لله ورسوله قال - تعالى - في سورة التوبة الآية (91) : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

وبإجماع أهل العلم أن النصح لله ورسوله يكون بتشجيع الجنود وعدم إحباطهم ، وإذا كنا قد شغلنا بوظائفنا التي هي ضرب من الجهاد ، فليس أقل من أن نحفظ القوة ، ونشجع كل مجاهد ينشد الحقيقة كي يستنير ومرابط على الثغور على الغرم والصمود ولا يتأتى ذلك إلا بفض النزاع المزعوم والتخلص من التَّعَصُّبِ الَّذِي هُوَ عَمَةٌ وَضَلَالٌ .

وأعود مرة أخرى إلى «نحو ثقافة مغايرة» ؛ حيث يقول الدكتور جابر عصفور : «ولغة التكفين والتخوين آفة شائعة في الخطابات السائدة لن ينجينا من كوارثها تجاهلها أو التهوين من مخاطرها ولا تتحقق مواجهتها الجذرية إلا بتعريتها والعمل على إشاعة لغة مغايرة لخطابات جديدة تستبدل بكل سلبيات الخطابات القائمة إيجابيات واعدة بقيم التعدد الإيجابي المقترنة بالتنوع الخلاق»<sup>(1)</sup> .

(1) نحو ثقافة مغايرة ص 223.

وأنا أضيف حاشية على متن الدكتور جابر عصفور هنا خلاصتها أن التعرية أمر سهل ، ولكن سبيلنا إلى إشاعة لغة مغايرة لا بد أن تُعَبِّدَ دراسات واعية ؛ إذ لا يكفي أن نشيع لغة مغايرة إلا بدليل يدعمها ؛ كي تحل محل الأخرى القائمة ، والتي اتخذت من التكفير والتخوين لغة تسود ، وتنطلق بها بعض الكتابات وبرامج الفضائيات ، فهناك برامج متخصصة أو تكاد تكون متخصصة في الحكم بالكفر ، على كل من يخالف سنة من السنن ، وفي البخاري باب سباه (كفرٌ دون كفر) ، وهؤلاء لا يعرفون كفرًا دون كفر ، إنما هو الخروج عن الملة بلا كلام ولا نقاش .

وقد أكد الدكتور عصفور ذلك بقوله : «ومن المؤكد أن تأكيد هذه القيم يضيف إلى حضارة الأمة ويدفعها إلى التقدم في كل مجال ، ويقترن ذلك بشروط مرتبطة بالسياقات التي تتولد فيها الخطابات ، أو تتحرك نتيجة لها سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو دينيا أو فكريا ، فلا شك أن السياقات المفتوحة تؤدي إلى تولد خطابات أكثر تعدداً في صفات وخصائص التسامح والمرونة والتفاعل المستقبلية والقدرة المتجددة على التغير ، ومن ثم الإسهام في التقدم الدائم ، وفي الوقت نفسه فإن السياقات المغلقة الجامدة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ودينيا وفكريا تؤدي إلى توليد خطابات أقرب إلى صفاتها وخصائصها التسلطية القمعية لكن التعميم الناتج عن شيوع هذه الآلية لا ينفي الأوضاع الاستثنائية»<sup>(1)</sup> .

### بين الابتداع والاتباع :

ومن قضايا الصدام بين علماء الدين والمثقفين قضية الابتداع والاتباع ، وقد أشار الدكتور جابر عصفور إلى ذلك ، حين قال : «من المؤكد أن ممثلي التيارات العقلانية - وكان منهم حسن العطار وتلاميذه - وجدوا في التفوق الفرنسي

(1) نحو ثقافة مغايرة ص 223.

ما يؤكد ما تعلموه عن أسلافهم من فلاسفة العرب ومتكلميهم خصوصًا ما يتصل بأهمية أعمال العقل ، واستبدال الابتداع بالاتباع<sup>(1)</sup> .

وقضية استبدال الابتداع بالاتباع قضية سرى فيها الوهم مسافة بعيدة ، وكانت محل نزاع بين علماء الدين وبعض المثقفين ، الذين يرون أن أعمال العقل يتناقض والاتباع .

وهنا سؤال أطرحه : ما المقصود بالاتباع ؟

والجواب : إنه اتباع محمد - ﷺ - وهل في اتباع النبي المعصوم ما يؤدي إلى المفارقة بين تعاليم الدين وثقافة العصر ، أو تقدم الآخر عسكريًا ؟ إن اتباع النبي - ﷺ - ضمان لكل تقدم بل هو السبيل إلى كل تقدم حقيقي ؛ لأن النبي - ﷺ - يدعوكم إلى أعمال العقل ، ناهيك بقوله تعالى في سورة آل عمران الآية (6) : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

وحين سأل - ﷺ - رجلاً عن الآلهة التي يعبد ، قال :

عشرة يا محمد ؛ تسعة في الأرض ، وواحدًا في السماء .

فقال له - ﷺ - : من الذي يجيبك إذا ناديته ؟

قال : الذي في السماء .

وسأله : من الذي يُنزل عليك الغيث عند الجذب ؟ ومن يرزقك ؟

قال : الذي في السماء .

فقال له : إذا لا داعي إلى التسعة .

أليس ذلك من أعمال العقل .

(1) نحو ثقافة مغايرة ص 291 .

والقرآن الكريم حافل بالدعوة إلى إعمال العقل .

بل إنه اتخذ من المحسوس المشاهد من آيات القدرة الإلهية التي تراها العيون وتسمعها الآذان ، وتشعر بها الجلود منهجًا للوصول إلى حقيقة الإله الواحد المعبود وحين وجد النبي - ﷺ - امرأة تبكي سألها : ما الذي يبكيك ، أجائعة أنت ؟ أعريانة أنت ؟

لم يقل لها : هل بك مس شيطاني ؟

إنما سألها عما يبكي حقيقة ملموسة ، وقد أخرج ابن أبي جرة في بهجة النفوس قوله - ﷺ - : إذا كانت النفس معها قوتها اطمأنت ، وحين مات ابنه إبراهيم ، وكسفت الشمس ، وزعم الناس أنها كسفت لموت ابن رسول الله - ﷺ - جمعهم وخطب فيهم ، وبَيَّن لهم وللدنيا جميعًا أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لمولده ، ونبههم إلى الواجب عليهم إذا رأوا ذلك ، أن يُهرعوا إلى الصلاة وأن يتصدقوا .

وقد عرف النبي - ﷺ - عدد القوم يوم بدر عن طريق ذبائحهم التي يذبحونها كل يوم لما أخبره غلاما أبي سفيان أنهم يذبحون يومًا تسعة ويومًا عشرة ، فقال إن القوم ما بين تسعمائة وألف ، وتلك عملية حسابية محمولة على العقل الذي هو مستودع الحساب والإحصاء والخبرة .

ومن مقتضيات العقل الشورى ، والعقل الذي يستشير هو العقل السليم ، الذي يرى أن غيره إضافة إليه ، كما أنه إضافة إلى غيره .

وقد استشار النبي - ﷺ - أصحابه بأمر من الله - ﷻ - الذي قال له في نحو سورة آل عمران الآية (159) : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ووصف المؤمنين في



سورة الشورى الآية (38) بقوله - ﷺ -: «وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». وقد أخذ النبي - ﷺ - برأي الحباب بن المنذر في الموقف الذي رآه أصلح للقتال.

وفي هذا الموقف بالذات يصح لنا الوقوف ملياً لنرى أن الناس نظروا إلى الوحي على أنه فوق مستوى العقل إن نزل؛ لأن الحباب قال للنبي - ﷺ -: «أمنزل أنزلك الله أم هي الحرب؟»

فلما قال له النبي - ﷺ - بل هي الحرب قال نقف في هذا المكان، ونغور الآبار، ونشرب من هذا القليب الذي أعرفه، فهو أعذب ماء، وهم لا يشربون وقد كان، ووقف الناس في الموقف الذي رآه المحنك ذو الرأي والخبرة.

لكنه كان على استعداد للتسليم لو قال له النبي - ﷺ - إنه الوحي؛ لأنه متى ثبت أنه وحي فالخير فيه، والنجاح حليفه، وهذا أيضاً عقل للوحي؛ لأنه من لدن العليم - سبحانه وتعالى - ألا ترى إلى قوله - ﷺ -: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» البقرة: 216.

وأخذ النبي - ﷺ - برأي أبي بكر - رضي الله عنه - في أسرى بدر.

فقبل الفداء، وكان من رأي عمر أن يقتلوا، وأخذ - ﷺ - بفكرة سلمان وحفر الخندق لما هجم الأحزاب على المدينة المنورة.

وفي مقال للأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي المنشور بالأهرام بتاريخ الأربعاء الموافق 11 / 2 / 2009 يذكر فيه - متعه الله بالصحة والسلامة - أنه أراد يوماً في مطلع شبابه وبدو نجمه في عالم الشعر أن يسهم في الشعر التاريخي، وكتب قصيدة

مذبحة القلعة التي صور فيها ما كان من خباية على الممالك الذين دعوا إلى حفل. فكان القتل.

وتقدم لنشرها فتنازعها رجلان هما محمود أمين العالم وعلي الراعي، يديرها الأول منشورة، ويديرها الثاني بعيدة عن مستوى النشر؛ لأنها تتعارض مع مبادئ الواقعية الاشتراكية، وكان على مَنْ يرغب في نشر إبداعه وفقاً لما يراه الراعي أن يمدح محمد علي لأنه الطليعة؛ لا أن يتعاطف مع الممالك وإن كانوا ضحية، بينما رأى العالم أنها تنشر وقال الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي بنصه في مقاله القيم الذي سماه (حد فاصل بين عهدين): «لماذا إذاً تحمس العالم لقصيدة تتعاطف مع الممالك وتدين ما فعله بهم محمد علي؟»

ربما راجع العالم نفسه فخفض من غلوائه، وأخذ يوازن بين ما يجب للفن في القصيدة وما يجب للسياسة، والعالم شاعر قبل أن يكون ناقدًا، وإنسان قبل أن يكون يسارياً، وقد رأيناه يعدل موقفه القاسي من نجيب محفوظ، فمن المحتمل أن يكون عدل موقفه من الشعر أيضاً.

ومع أن الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي عبر عن الهدف من مقاله في خاتمة سطورهِ حيث قال: «لكنني لم أقصد بهذه الذكريات أن أتحدث عن قصيدي، وإنما عدت إليها لأتحدث عن محمود العالم، وعن كتابه الذي نستطيع أن نختلف معه ونراجع أحكامه، لكننا لا نستطيع إلا الاعتراف بأنه كان حدًا فاصلاً بين عهدين في الثقافة المصرية».

إلا أنني أنهل من معاني هذا المقال قطرات هي الأنهار في إيضاح الفكرة التي نسعى جميعاً إليها؛ فقد قال الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي إن الأستاذ العالم - رحمه الله - إنسان قبل أن يكون يسارياً، كما قال عنه أيضاً إنه شاعر قبل أن يكون ناقدًا.



ومن هنا أقول : إن الشاعر المبدع مسلم قبل أن يكون شاعرًا مبدعًا ، والشعراء المخضرمون أمثال لبيد وحسان كانوا شعراء قبل أن يكونوا مسلمين ، وقد تغير شعرهم ، لا أقول من مطلق إلى مقيد - وهو في ميزان العلم صحيح - وإنما أقول من شعر شاعر بلا قلب إلى شعر شاعر ذي قلب فالدين قلب ، والقرآن نزل على قلب النبي ، ولا يتذكر به إلا من كان له قلب ، قال الله - تعالى - في سورة ق الآية (37) : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ .

وأذكر في هذا السياق ما كان من خوات بن جبير - رضي الله عنه - حيث كان في جاهليته يحب مجالسة النساء والتحدث إليهن ، وقد ادعى ذات يوم أن له بغيرًا شاردًا ويريد منهن أن يفتلن له حبلاً يتوصل به إليه ولم يكن ذلك منه إلا نسج خيال ؛ لكي يصل إلى مراده فلما أسلم وحسن إسلامه ، داعبه النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله :

ما فعل بعيرك الشارد يا خوات ؟

فقال :

قيده الإسلام يا رسول الله ، وأعوذ بالله من الحور بعد الكور .

فقول خوات - رضي الله عنها - قيده الإسلام يا رسول الله دليل على أنه لا بد من قيد ، وكلمة «قيد» أصبحت من الكلمات القاسية ولا أقول المبعوضة أو المبعضة لدى كثير من الناس خصوصًا الشعراء ؛ يقول ناجي :

أَهْ مِنْ قَيْدِكَ أَدْمَى مَعْصُومِي      لَمْ أَبْقِيهِ وَمَا أَبْقَى عَلَيَّ  
مَا اخْتِطَاطِي بِعُهْودٍ لَمْ تَصْنَعْهَا      وَإِلَامَ الْأَسْرِ وَالْدُّنْيَا لَدَيَّ

لكن قول ناجي : لم أبقه وما أبقى علي ! يجعل كل من ينظر إلى القيد القادم من الإسلام على أنه يقابل الحرية والانطلاق ، يعيد النظر في مقولته ؛ فلو أبقى على ناجي محبوبه لكان قيده إياه منتهى الحرية .

والإسلام ما وضع القيود وضيع ، وإنما وضع القيود ليحفظ ويصون ، وهذا بلا شك مما يقرُّ به الجميع ، لكن عليا المعاني تغيب عند الغضب ، كما تغيب عند التعصب ، وتغيب عند الإثارة ، وتغيب كذلك عند البغض .

وإلا لما قال الله - تعالى - في سورة المائدة الآية (8) : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ أَعْدِلُوا۟﴾ فالمخاطب بلا شك مسلم يؤمن بالعدل ، يرضاه لنفسه ، ويرضاه لغيره ، لكن لما كان هذا الغير فيه الحبيب ، وغيره ، وكان غيره درجات منها البغض ، وكان البغض حائلًا بين الإنسان وبين عليا المعاني قال الله : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ أَعْدِلُوا۟﴾ .

وهذا كلام نفيس ، لا أزكي به نفسي ، وإنما أصب منه في نفسي أنهار الحياة ، وأدعو جميع الناس إليها .

وأما عن حسان فقد قال الشعر في الخمر في الجاهلية وأقسم بالله على ذلك لفنية من قومه رآهم يشربون ، وذلك حين عنفهم فقالوا له : ما شجعنا عليها غير قولك وأنشدوه شعره فيها ، فقال : هذا قول قلته في الجاهلية ، ولكنني لم أشربها منذ أسلمت .

وأما عن لبيد ، فقليل إنه لم يقل إلا بيتًا واحدًا في إسلامه هو :

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي      حَتَّىٰ لَيْسْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبًا لَا

وقد روي عنه أنه سئل عن سبب عزوفه عن قول الشعر ، وقد ملأ الدنيا شعرًا قبل إسلامه فقال : كيف أقول الشعر وقد علمني الله البقرة وآل عمران ؟! وقد قلت : إن الرجل استطعم القرآن الكريم فلم يتذوق غيره ، أو أنه قد حل في قلبه حب القرآن الكريم إلى درجة لا تسمح بخروج شيء منه أدنى مما حل فيه .

والدنيا مع ذلك كله جميلة ، فلم ينصب الناس مؤتمراً يطالبون فيه لبيدًا بالعودة إلى الشعر الذي هو فيه عمود كما يفعل الناس اليوم إذا قرر لاعب محترف أو مغن ذو صوت جميل ، الاعتزال .

ومن كلام الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي أقول : إن الشاعر قبل أن يكون شاعرًا ، مسلم ، فما معنى مسلم ؟

أليس معناه أنه أسلم نفسه لله ، وإلى الله - ﷻ - وما عسى أن تظن في امرئ أسلم نفسه لله وإلى الله إلا أن يقول ما يرضيه - عز وجل - وينأى بنفسه وبشعره وبماله وعرضه من غضب الله - ﷻ - ؟!

لقد سعدت بديوان (الأكاليل) الذي أهده إليّ تلميذي سالم بن رزيق بن عوض ، وهو يقول في قصيدة منه سماها (الملك فهد حبيب الناس والإنسانية) .

يَا حَامِلِينَ رُفَاةَ الْفَهْدِ مَرْحَمَةً      فَالْنَعَشُ يَحْمِلُ أَوْطَانًا وَأَهْلِيهِ  
وَيَحْمِلُ الْبَرَّ وَالْأَجْوَاءَ قَاطِبَةً      وَيَسْفَحُ الْبَحْرَ فِي الدُّنْيَا وَشَاطِئِهِ  
وَيُنْعِمُ الْأَرْضَ أَشْوَاقًا مُجْنَحَةً      تَكَادُ تَظْهَرُ فَيَمَنْ رَاحَ يَبْكِيهِ  
ضَاقَتْ بِهِ الْأَرْضُ تَشْكُو مِنْ مَتَاعِهَا      لَمَّا تَنَادَتْ جِبَالٌ مِنْ نَوَاحِيهِ  
وَعَطَّرَتْ كُلَّ حُسْنٍ فِي مَبَادِيهِ      كُلُّ الْبُطُولَاتِ تَحْتَ النَعَشِ تُزْجِيهِ

ومع هذه الأبيات التي تصور عاطفة شاعر عاش على أرض الملك الذي ملأها خيرًا وعمرها ، وكان وتبعه أخوه - حفظه الله - الملك عبد الله بن عبد العزيز خادمًا للحرمين الشريفين ، وهي بلا شك تضم في تضاعيفها تصويرًا للأهوال التي ظهرت بموته ، وتصور بلسان الحال شعور الأوطان وأهلها بفقد الملك العزيز ، ولكنني سطرت هذه الأبيات لأربط بينها وبين ما ختم به الشاعر قصيدته ، فانظر إلى قوله :

إِنَّا لَنُؤْمِنُ بِالْأَقْدَارِ نَمْنَحُهَا      رِقَابَنَا طَاعَةً لِلَّهِ نَبْغِيهِ  
وَنَرْتَضِي كُلَّ مَا شَاءَتْ مَشِيئَتُهُ      نُرْجِعُ الْقَوْلَ إِيمَانًا وَتُثْنِيهِ

أَرْوَاحُنَا فِي رِحَابِ اللَّهِ مُبْجِرَةٌ      يَقْضِي لَهَا كُلَّ خَيْرٍ فِي مَعَالِيهِ  
وَيَمْنَحُ الْفَضْلَ مِنْهَا مَا يُجَاوِزُهَا      يُعَبِّدُ الْعَبْدَ فِي الْآخِرَى وَيُشْرِيهِ  
فَإِنْ وَهَبْنَا حَيَاةَ النَّاسِ نَشْكُرُهُ      وَإِنْ رُفِعْنَا إِلَى الْفِرْدَوْسِ نَرْضِيهِ

فالشاعر يصور عاطفته ، ويعبر عن مشاعره ، ويكون لسان من لا يستطيع التعبير بالشعر فضلًا عن غيره ، لكنه في النهاية يذكر ويذكر الناس بالإيمان بقدر الله - ﷻ - وبالرضا به فنحن نرتضي كل ما شاءت مشيئة الله - ﷻ - وأرواحنا في رحاب الله مبحرة ، وهو - سبحانه وتعالى - يقضي لها كل خير في عليائه .

ومن أسبوع الذكريات الذي تذكر فيه الشاعر المثقف أحمد عبد المعطي حجازي إلى أسبوع الدعوة إلى الحق ؛ حيث نشر في الأهرام بتاريخ الأربعاء الموافق 18 / 2 / 2009 مقاله بعنوان «الشعر حق» أجديني أقتبس من مقالة ذلك اليوم دعوة الأستاذ حجازي إلى الشعر باعتباره حقًا لكل الناس ، هكذا قال :

وأقول : إذا كان الشعر من حق كل الناس فمن حقهم على الشاعر أن يخاطبهم بلغة يفهمونها وبمبادئ دين يعتقدونه ، وبتصوير حالة إنسانية يعيشونها حقًا وفعلاً .

وإذا كان الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي يرى - كما جاء في هذا المقال - أن الشاعر لا يقدم للناس كلامًا فنيًا جميلًا ، وليست العبرة في الشكل ولا في مقومات الشعر المعروفة لدى النقاد وأساتذة الأدب ، وإنما يقدم للناس عصارة ما فيه من منطق الشعر الذي هو خلاصة فكر ومشاعر ، وأسرار لا تتأتى إلا بالشعر وهذا عندي من كنوز ما قدمه الأستاذ حجازي نتيجة خبرة طويلة فإنني أقول إن جرح اللسان عميق وينبغي أن تكون عصارة الشاعر طهرًا لا جرحًا .



## يوم أشد على النبي - ﷺ - من أحد :

ففي كتاب بدء الخلق ، وفي باب ذكر الملائكة يروي البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت للنبي - ﷺ - : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟

قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجيني إلى ما أردت ؛ فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال ، فسلم عليّ ثم قال : يا محمد ، فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي - ﷺ - : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .

وقد وقفت مع هذا الحديث عند عناصر أربعة :

الأول : أن الصدود عن الدعوة إلى الله أشد على رسول الله - ﷺ - من الجراح .

الثاني : أن ملك الجبال هو الذي سلم على رسول الله - ﷺ - ورأيت أن ذلك إشارة إلى أنه مستعد للتدمير ، لكن السلام لرسول الله - ﷺ - فلن يصيبه إن سأل إطباق الجبلين على الناس حبة من حصى .

والثالث : أن النبي - ﷺ - قال « أرجو » ولم يقل « أتمنى » فالرجاء ممكن والتمني مستحيل أو فيه عسر .

والرابع : أن الأمل باق ما بقيت الحياة ، وأنه حفظ السلامة للوعاء من أجل أبناء يعبدون الله وحده ، ومن خلال فصول خمسة بعد هذه المقدمة :

1- الشعر في موكب الدعوة .

2- الأدب الإنساني أدب إسلامي .

3- التبادل بين علماء الدين والمبدعين .

4- حاجة الأمة إلى وسطية الدين والإبداع .

5- النشر ديناً وإبداعاً .

أرجو أن أكون قد قدمت شيئاً نافعاً ينتفع به العالم بالدين ، والمبدع على سواء .

وعلى الله قصد السبيل وهو وحده هادينا طريق الرشاد .

\* \* \*

أ.د. مبروك عطية

## الفَصِيلُ الْأَوَّلُ

### الشعر في موكب الدعوة

منذ فجر الإسلام وللشعر دوره وأثره في نشر تعاليم الدين والدعوة إليه ، والنفخ عنه ، هناك شعراء حول رسول الله - ﷺ - منهم مَنْ عرفنا ومنهم من لم نعرف ، فقد جرى اللسان العربي بالشعر ، وتذوقه المتلقي وعهد ضروبه وموسيقاه ، وليس كما يرى أدونيس حيلة كانت من المسلمين لنشر دعوتهم من خلال طريقة مألوفة لدى العرب وَقْتئذٍ ، وهناك شعراء أغرقوا الدنيا شعراً وجمالاً في مناسبات شتى وهناك علماء تأثروا بالشعر ، ومزجوا كلامهم بآيات إبداعه ، فجاء أسلوبهم مزيجاً حلواً من هذا الامتزاج ، ومنهم من توقف عند بعض النصوص ، وتصرف فيها تصرف الناقد البصير كالشيخ محمد الغزالي الذي كان إماماً في الدعوة إلى الله على هدى وعلم وبصيرة .

ولا غنى للإنسان المخاطب بلسان الدين عن هذا الموروث الإبداعي الخطير الذي سمي شعراً.

#### النايفة الجعدي

علم من أعلام الصحابة وجبل من جبال الشعر ، عمّر ، فعاش سنين بلغت الستين في الجاهلية ونحوها أو يزيد في الإسلام ، وصحح له يونس بن حبيب وحماد الراوية ومحمد بن سلام وعلي بن سليمان الأخفش قوله في الجاهلية :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ      مَنْ لَمْ يَقْلُهَا فَتَنَفْسُهُ ظَلَمًا



قال ابن عبد البر : وفيها ضروب من دلائل التوحيد ، والإقرار بالبعث والجزاء، والجنة والنار .

وفد على النبي - ﷺ - مسلماً ، وأنشده ودعا له رسول الله - ﷺ - ومما قاله بين يدي رسول الله - ﷺ - :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَّا نَعُودُ خَيْلَنَا  
وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَّا نَعُودُ خَيْلَنَا  
وَنُنْكِرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَلْوَانَ خَيْلَنَا  
وَنُنْكِرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَلْوَانَ خَيْلَنَا  
وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ تَرَدَّهَا  
وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ تَرَدَّهَا  
بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا  
بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا

فقال النبي - ﷺ - :

إلى أين يا أبا ليلى ؟

قال النابغة : إلى الجنة .

قال : نعم ، إن شاء الله .

ولي هنا وقفان :

الأولى : أنه حين قال :

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا  
وَأَنَا لَتَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

لم يكفره النبي - ﷺ - ولم يقل في وجهه : أعود بالله !

وإنما سأله : إلى أين يا أبا ليلى ؟

ولا أُمِرُّ على قوله - ﷺ - «يا أبا ليلى» دون أن أشير إلى أن النداء بالكنية (أبا ليلى) يحمل الرفق والطيب ، وهذا يعرفه العلماء . ومن توجيهات الفقه الإسلامي للقاضي ألا ينادي أحد الخصمين باسمه والآخر بكنيته ، فيما أن ينادي كلا منهما باسمه ، وإما أن يناديه بكنيته على سواء لما في ذلك من التفريق ؛ فالاسم له منزلة معينة ، والكنية كذلك تربو على الاسم ، فإن قلت لأحد الخصمين يا فلان وقلت لخصمه يا أبا فلان ، شعر من نودي باسمه بالنقص ، وانظر في هذا التسهيل<sup>(1)</sup> .

والثانية :

أن النبي - ﷺ - قال له :

«نعم» .

وهذا يجعلنا نقول : إن النابغة الجعدي من المبشرين بالجنة ؛ وذلك لأن النبي - ﷺ - قال له : «نعم» فإن قال قائل من الذين يتصيدون : لا ، وألف لا فإن سألناه عن سبب ذلك قال : لأن النبي - ﷺ - لم يقل «نعم» فقط ، وإنما قرنها بـ «إن شاء الله» !

ولمثل هذا أقول : وأي شيء يحول بين نعم ومقتضاها الذي هو دخول الجنة ؟

وقد قال الله - تعالى - ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ الفتح : (27) .

فهل منعت «إن شاء الله» رسول الله - ﷺ - والمسلمين دخول المسجد الحرام .

(1) التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد الغرناطي 295/4 .

ولقد جاء أحد اليهود يوم خيبر كما روى الواقدي في مغازيه ودل النبي - ﷺ - على أسلحة اليهود مكانها ، وهيئتها وصفوفها ، وقال له : وأنت آخذها ، فقال له النبي - ﷺ - إن شاء الله .

إن كلام رسول الله - ﷺ - دائماً مقرون بـ «إن شاء الله» ؛ وذلك لأن خلقه القرآن والقرآن ، يقول في سورة الكهف الآيتين (22 ، 23) :

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ﴾ فالمشيئة ليست عائقاً دون تحقيق الوعود إلا في زماننا زمان ثقافة أهل الفوضى والتلاعب بالمعاني ، لا أهل التحقيق واحترام المعاني .

وفي القصيدة نفسها التي أنشدتها النابغة بين يدي رسول الله - ﷺ - قوله :  
وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ      بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا  
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ      حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَضْدَرَا  
فقال له رسول الله - ﷺ - : (لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَالِكَ)

فعاش ، لم تسقط له سنة ، وكان من أحسن الناس ثغرا ، يقول ابن عبد البر :  
وكان إذا سقطت له سن ، نبتت أخرى<sup>(1)</sup> وهذه كرامة ، لكنها غير مذكورة في باب الكرامات عند من يدري الكرامة لأي أحد إلا للشعراء .

ولولا أن في الشعر اتساعاً لكان لأبي موسى الأشعري موقف مع النابغة حين أنشد :  
رَأَيْتُ الْبَكْرَ بَكَرَ بَنِي ثَمُودٍ      وَأَنْتَ أَرَاكَ بَكَرَ الْأَشْعَرِينَا

(1) الاستيعاب 79 / 4 .

فَإِنْ تَكُ لِابْنِ عَنَانٍ أَمِينًا      فَلَمْ يَبْعَثْ بِكَ الْبَرَّ الْأَمِينَا  
أَلَا صَلَّى إِلَهُكُمْ وَعَلَيْكُمْ      وَلَا صَلَّى عَلَى الْأُمَرَاءِ فِينَا

وذلك أن بني عامر رعوا ماشيتهم في الزروع ، فبعث أبو موسى في طلبهم ، فتصارخوا : يا آل عامر ، فخرج النابغة الجعدي ، ومعه عصبة له ، فأتى به أبو موسى ، فقال له ما أخرجك ؟

قال : سمعت داعية قومي ؛ فضربه أسواطاً ، فأنشد النابغة هذه الأبيات .

وابن الزبير يئن للنابغة أنه يعطيه لرؤيته رسول الله - ﷺ - ولحقه في الفياء ، وذلك عندما أنشده :

حَكَيْتَ لَنَا الصَّدِيقَ لِمَا وَلَيْتَنَا      وَعُثْمَانَ وَالْفَارُوقَ فَارْتَأَحَ مُعْدَمُ  
وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَقِّ فَاسْتَوُوا      فَعَادَ صَبَاحًا حَالِكُ اللَّيْلِ مُظْلِمُ  
أَتَاكَ أَبُولَيْلَى تَجُوبُ بِهِ الدُّجَى      دُجَى اللَّيْلِ جَوَّابُ الْفَلَاةِ عَرْمَرَمُ  
لِتَجْبُرَ مِنْهُ جَانِبًا دَعْدَعْتَ بِهِ      صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالزَّمَانُ الْمُصْمَصِمُ

وليس معنى ذلك أن ابن الزبير يمقت الشعر ويلفظه ، وإنما أراد أن يبين له وجه الحق في مكانه ، قال فيه شعراً أو لم يقل ؛ ولذلك قال له : إن الشعر أهون وسائلك عندنا .

#### حسان بن ثابت

قال فيه النبي - ﷺ - كما روى البخاري ومسلم «اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ لِمَنَاضِلَتِهِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ» وروى ابن عبد البر في الاستيعاب أنه - ﷺ - قال : «إِنَّ قَوْلَهُ فِيهِمْ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقَعِ النَّبْلِ» ؛ وذلك لأن القوم يعلمون أن جرح اللسان



أشد من جرح النبال ؛ لأنه يوغر القلب ويبقى الدهر ، أما جرح الدماء فيخدش الأعضاء ، ويبرأ مع الزمان .

وفي الحوار الذي دار بين النبي - ﷺ - وبينه ما يدل على أن الشعر عبقرية ؛ لأن الناس قد رغبوا في شاعر يهجو من يهجو رسول الله - ﷺ - وطلبوا أن يقوم بها علي ، فقال النبي - ﷺ - إن عليا ليس عنده ما يراد ، فقال حسان أنا لها ، فقال له النبي - ﷺ - كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي ؟

فقال حسان قولته الشهيرة :

- والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، فقال له - ﷺ - :

أتأبأ بكر ، فإنه أعلم بأنساب القوم منك .

فكان يمضي إلى أبي بكر ، ليقف على أنسابهم ، فكان يقول له : كف عن فلانة وفلانة ، واذكر فلانة وفلانة ، فكان - ﷺ - يهجوهم ، فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا : إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة ، فمن شعر حسان في أبي سفيان :

وَإِنَّ سِنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ      بُنُو بَنَاتٍ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ الْعَبْدُ  
وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءَ زَهْرَةٍ مِنْهُمْ      كِرَامٌ وَلَمْ يَقْرَبْ عَجَائِزَكَ الْمَجْدُ  
وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ وَلَا كَابْنِ أُمِّهِ      وَلَكِنْ لَيْسَ لَكَ تَقَامٌ لَهُ زَنْدُ  
وَإِنَّ أَمْرًا كَانَتْ سُمِيَّةُ أُمِّهِ      وَسَمْرَاءُ مَغْمُورٌ إِذَا بَلَغَ الْجَهْدُ  
وَأَنْتَ هَجِينٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ      كَمَا نَيْطٌ خَلْفَ الرَّائِبِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ

ومن قوله أيضًا في أبي سفيان :

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ      وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ  
هَجَوْتُ مُطَهَّرًا بَرًّا حَنِيفًا      أَمِينَ اللَّهِ شَيْمَةً الْوَفَاءُ  
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍ      فَشَرُّكُمْ لِحَرِّكُمْ الْفِدَاءُ  
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَتِي وَعِزِّي      لِعَرَضٍ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

وحسان يرتجل ، والارتجال في ذاته عبقرية أخرى ؛ لأنه ابتداء غير مسبوق بإعداد ، وذلك حين قدم وفد بني تميم الذين جاءوا بخطيبهم وشاعرهم ، فخطب خطيبهم مفتخرًا ، فلما سكت ، أمر رسول الله - ﷺ - ثابت بن قيس شماس فخطب فأحسن ، وقام شاعرهم الزبرقان بن بدر ، فقال :

نَحْنُ الْمُلُوكُ فَلَا حَيٍّ يُقَارِبُنَا      فِينَا الْعَلَاءُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ  
وَنَحْنُ نُطْعِمُهُمْ فِي الْقَحْطِ مَا أَكَلُوا      مِنْ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤْنَسِ الْقَرْعُ  
وَنَنْحَرُ الْكُومَ عِبْطًا فِي أَرْوَمَتِنَا      لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أُنْزِلُوا شَبْعُوا  
تِلْكَ الْمَكَارِمُ حُزْنَاهَا مُقَارَعَةٌ      إِذَا الْكِرَامُ عَلَى أَمْثَالِهَا اقْتَرَعُوا

وهي من بحر البسيط (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن) فرد حسان من البسيط أيضًا :

إِنَّ الدَّوَائِبَ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتِهِمْ      قَدْ بَيَّنَّا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَبَّعُ  
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سِرِيرَتُهُ      تَقْوَى إِلَهٍ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا  
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ      أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَائِهِمْ نَفَعُوا

سَجِيَّةٌ تِلْكَ فِيهِمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ    إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاغْلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعُ  
لَوْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ    فَكُلُّ سَبْقٍ لِأَذْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ  
إلى قوله :

أَكْرِمَ بِقَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ شِيعَتَهُمْ    إِذَا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ  
فقال التميميون عند ذلك :

وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا ، وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا ، وما انتصفنا ولا قاربنا .

ولك أن تنظر بين البحر والقافية المشتركين بين حسان والزبرقان ، وبين ما حمله بحر حسان من معان ، وما حمله البحر الذي اصطفاه الزبرقان من افتخار بهائدة الطعام .

ومن طرائف ما ذكره ابن عبد البر أن حسان - رضي الله عنه - هجم على فتية من قومه يشربون الخمر ، وعيرهم بذلك ، فقالوا : يا أبا الوليد ما أخذنا هذه إلا منك ، وإنا لنهم بتركها ، ثم يثبطنا عن ذلك قولك :

وَنَشْرَبُهَا فَتَتَرَكُنَا مُلُوكًا    وَأُسَدًا مَا يُنْهِنُنَا اللَّقَاءُ

فقال حسان : هذا شيء قلته في الجاهلية ، والله ما شربتها منذ أسلمت .

قال مصعب الزبيري : هذه القصيدة قال حسان صدرها في الجاهلية وآخرها في الإسلام <sup>(1)</sup> .

وإنما ذكرت هذا الموقف لأبين أن الجهل بتاريخ النظم يوقع في اللبس .

(1) الاستيعاب 412/1 .

وإن قال ذلك حسان في الإسلام ، فليس دليلاً على أنه شارب خمر ؛ لأن الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في سورة الشعراء الآية (226) : ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وقد احتج بها من قال :

وَبِتُّ أَفْتَحُ أَغْلَاقَ الْحِثَانِ  
فقليل له : برأتك الآية .

وقد ألقى بعض الناس به تهمة الخوض في الإفك ، فبرأته عائشة وقالت : لكنه الذي يقول :

حَصَانُ رَزَانُ مَا تَرِنُ بِرَبِيَّةٍ    وَتُصْبِحُ غَرثِي مِنْ حُومِ الْغَوَافِلِ  
فَلِإِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنِّي قُلْتُه    فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَا مِلِي

وقد منحه النبي - صلى الله عليه وسلم - سيرين أخت مارية القبطية لِدَبِّهِ باللسان عن النبي - صلى الله عليه وسلم - <sup>(1)</sup> .

والنبي - صلى الله عليه وسلم - يسأل حسان بن ثابت :

هل قلت شعراً في أبي بكر ؟

فأنشد حسان بعد أن قال : نعم .

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجَوًا مِنْ أَخِي ثِقَةٍ    فَادْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا  
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَتْقَاهَا وَأَعَدَّهَا    بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا  
وَالثَّانِي التَّالِي الْمَحْمُودُ مَشْهُدُهُ    وَأَوَّلُ النَّاسِ بِمَنْ صَدَّقَ الرُّسُلَا

(1) الاستيعاب 405/1 .



وَالثَّانِي أَتَيْنِ فِي الْغَارِ الْمَنِيْفِ وَقَدْ طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَدَ الْجَبَلَا  
وَكَانَ حَبَّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا خَيْرُ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلَا

رواها خمسة أبيات ابن عبد البر ، وقال : فسرَّ النبي - ﷺ - بذلك ، وقال :  
أحسنْتَ يا حسان<sup>(1)</sup> .

### عبد الله بن رواحة :

وعبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو الخزرجي الأنصاري  
شهيد مؤتة القائل يوم استشهاده :

أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ لَتَنْزِلَنَّهُ طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرِهَنَّه  
فَطَالَمَا قَدْ كُنْتُ مُطْمَئِنِّئَهُ جَعْفَرُ مَا أَطِيبَ الْجَنَّةِ

آخر الثلاثة ؛ زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب قال مرتجزاً :

يَا نَفْسُ إِنْ لَمْ تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ  
وَمَا تَمَيَّيْتُ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ

روى هشام بن عروة عن أبيه قال : سمعت أبي يقول ما سمعت أحداً أجراً  
ولا أسرع شعراً من عبد الله بن رواحة سمعت رسول الله - ﷺ - يقول له يوماً :  
قل شعراً تقتضيه الساعة ، وأنا أنظر إليك فانبعث مكانه يقول :

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفُهُ وَاللَّهُ يُعْلِمُ أَنَّ مَا خَانَنِي الْبَصَرُ  
أَنْتَ النَّبِيُّ وَمَنْ يُحْرَمَ شَفَاعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ لَقَدْ أَرَى بِهِ الْقَدْرُ

(1) الاستيعاب 94 / 3 .

فَتَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَثَبَّتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا  
فقال له - ﷺ - :

وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة

قال هشام بن عروة : فثبتته الله - ﷻ - أحسن الثبات ، فقتل شهيداً ، وفتحت  
له الجنة فدخلها .

ومن طرائفه التي ذكرها ابن عبد البر من وجوه صحاح أنه مشى ليلة إلى أمة  
له، فناها وفطنت له امرأته فلامته فجحدها فقالت له : إن كنت صادقاً فاقراً القرآن ،  
فالجنب لا يقرأ القرآن فقال من الوافر :

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَ  
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ حَقٌّ وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَ  
وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُسَوِّمِينَ

فقال امرأته :

صدق الله ، وكذبت عيني ، وكانت لا تحفظ القرآن<sup>(1)</sup> .

ولو أنا عرضنا هذه القصة على كثير من الذين لا يعرفون إلا ظاهر القول  
لكفروا بها ابن رواحة في حين ثبت عنه - ﷺ - في الحديث الصحيح : إن أبا لكم  
لا يقول الرفث ، وهو في عبد الله بن رواحة .

(1) الاستيعاب 36 / 3 .

سوف يقول هؤلاء : لقد راعى أن شعره قرآن ، فقد قالت له امرأته : اقرأ القرآن ، فأنشدها شعراً على أنه قرآن ، فهل يتسع فكر هؤلاء إلى أن نقول لهم : قصدت هي القرآن المنزل من السماء ، وقصد هو المصدر ؛ إذ مصدر قرأ قرأنا وقراءة أو المقروء ، وشعره مقروء ، وليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ؟

إنه عبد الله بن رواحة الذي سمع المسلمين يدعون له ولرفاقه بالعودة سالمين فأنشأ يقول من البسيط :

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا

#### عبد الله بن الزبيري السهمي :

هو عبد الله بن الزبيري بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي وأمه عاتكة بنت عبد الله بن عمرو بن وهب بن حذافة بن جمح .

قيل إنه كان أشعر قريش قاطبة ، وكان أشد الناس عداوة للنبي - ﷺ - وعلى أصحابه بلسانه ونفسه وكان يهاجي حسان وكعبا .

ثم أسلم ، وحسن إسلامه ، قدم على النبي - ﷺ - واعتذر إليه ، وقبل - ﷺ - عذره ، ومن شعره بعد إسلامه :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ  
إِذَا جَارِيَ الشَّيْطَانُ فِي سُنَنِ الْغَيِّ أَنَا فِي ذَاكَ خَاسِرٌ مُتَبُورُ  
يَشْهَدُ السَّمْعُ وَالْفُؤَادُ بِمَا قُلْتُ وَنَفْسُ الشَّهِيدِ وَهِيَ الْحَبِيرُ  
إِنَّ مَا جِئْتَنِي بِهِ حَقٌّ صَدَقَ سَاطِعُ نُورِهِ مُضِيءٌ مُنِيرُ  
جِئْتَنِي بِالْيَقِينِ وَالصَّدَقِ وَالْبِرِّ وَفِي الصَّدَقِ وَالْيَقِينِ السُّرُورُ

أَذْهَبَ اللَّهُ ضَلَّةَ الْجَهْلِ عَنَّا وَاتَّانَا الرَّخَاءُ وَالْمِيسُورُ  
ومن شعره :

سَرَّتِ الْمُتُومُ بِمَنْزِلِ السَّهْمِ إِذْ كُنَّ بَيْنَ الْجِلْدِ وَالْعَظْمِ  
نَدِمًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ زَلَلٍ إِذْ كُنْتُ فِي فِتْنٍ مِنَ الْإِثْمِ  
حَيْرَانٌ يَعْمَهُ فِي ضَلَالَتِهِ مُسْتَوْدًا لِشَرَائِعِ الظُّلْمِ  
عَمَهُ يُزَيِّنُهُ بَنُو جَمَحٍ وَتَوَازَرَتْ فِيهِ بَنُو سَهْمِ  
فَالْيَوْمَ آمَنَ بَعْدَ قَسْوَتِهِ عَظُمِي وَآمَنَ بَعْدَهُ لَحْمِي  
لِ مُحَمَّدٍ وَلِ مَا يَجِيءُ بِهِ مِنْ سُنَّةِ الْبُرْهَانِ وَالْحُكْمِ

وقد نسخ بمدحه رسول الله - ﷺ - ما مضى من شعره في كفره ، ومن ذلك قوله :

مَنَعَ الرُّقَادَ بِلَابِلٍ وَهُمُومٌ وَاللَّيْلُ مُعْتَلِجُ الرُّوَاقِ بِهَيْمٍ  
بِمَا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَا مَنِي فِيهِ فَبِتُّ كَأَنِّي مُحْمُومٌ  
يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلْتُ عَلَى أَوْصَالِهَا عَيْرَانَةٌ سُوحَ الْيَدَيْنِ غَشُومٌ  
إِنِّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّتِي أَسَدَيْتُ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيْمُ  
أَيَّامَ تَأْمُرُنِي بِأَعْوَى خُطَّةٍ سَهْمٌ وَتَأْمُرُنِي بِهَا مَخْزُومٌ  
وَأُمِدُّ أَسْبَابَ الْهُدَى وَيَقُودُنِي أَمْرُ الْغُوَاةِ وَأَمْرُهُمْ مَشُورُومٌ  
فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَلْبِي وَمُحْطَى هَذِهِ مُحْرُومٌ



مَضَتِ الْعَدَاوَةُ وَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا وَأَتَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلُومُ  
فَاغْفِرْ فِدَى لَكَ وَالِدَيَّ كِلَاهُمَا وَارْحَمْ فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومٌ  
وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الْمَلِكِ عَلَامَةٌ نُورٌ أَغْرُ وَخَاتَمٌ مَخْتُومٌ  
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانُهُ شَرَفًا وَبُرْهَانُ الْإِلَهِ عَظِيمٌ

وأذكر أنني قرأت هذه الأبيات على أحد الأعلام من رجال أعدهم منارة في العلم ، وقلت له مداعبًا : أتدري لمن هذه الأبيات ؟

فقال : والله ما أدري .

فقلت : هي لعبد الله بن الزبعرى السهمي .

فقال : أو أسلم ؟

قلت : نعم .

قال : والله ما قرأتها ، ولا أعرف أنه أسلم .

وتناقشنا حول هذه الفكرة ، وكان مما قلته له :

إنّ لدينا غشاوة على الذين عادوا رسول الله - ﷺ - قبل إسلامهم ، فأنت لا تجهل من شعر حسان شيئًا ، ولا من شعر ابن رواحة وإنما تجهل قائل هذه الأبيات ، وكم كنت أود أن يطلع عليها طلاب المدارس والجامعات ، وأن تكون من بين النصوص المقررة عليهم لما فيها من معان عظيمة ورقة وعذوبة وسهولة في الألفاظ ، وتناغم في الموسيقى المستمدة من بحر الكامل ، ومن تناغم المفردات التي ساقها مركبة ، وهي كشف عن عاطفة صادقة ، وصدق ثابت ، وإذا كان الإسلام يحب ما قبله . فلماذا نأبى نحن هذا المعنى ، فأنا لا أكاد أقرأ جملة - ﷺ - مع بعض

الصحابة الذين أسلموا كأبي سفيان ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص - ﷺ - أجمعين .

وكذلك لا أقرأ في كثير من كتب الأدب مثال هذا الشعر الذي قاله عبد الله بن الزبعرى .

إن بعض الناس يتهم من أسلموا بأنهم لم يسلموا حقيقة ، وذلك لهوى في نفسه ، ما كان أيسر أن يتقبل لثبوت الأدلة الصحيحة الدالة على أن الله - تعالى - لم يأمر رسوله - ﷺ - بأن يفتش عما في قلوب الناس . روى ذلك البخاري .

وأنا على يقين أنه ما زال في الناس من يقول : ومن البخاري ؟ وما البخاري ؟

أي ما زال في الناس أهل لجاجة ، فهؤلاء كيف نقنعهم ، إلا أننا نقول لهم برفق : لقد قبل النبي - ﷺ - عذر من اعتذر ، وإسلام من أسلم ، وأنتم دون رسول الله - ﷺ - فلماذا تصدون من قبله رسول الله - ﷺ - ؟

### وملئت الدنيا أشعارًا لمقتل عثمان :

وحين قتل الخليفة الثالث ذو النورين عثمان بن عفان - ﷺ - ملئت الدنيا أشعارًا ، فقال حسان :

إِنْ تُنْسِ دَارُ بَنِي عَقَّانَ مُوَحِّشَةً      بَابُ صَدِيعٍ وَبَابُ مُحَرِّقُ خَرِبُ  
فَقَدْ يُصَادِفُ بَاغِي الْخَيْرِ حَاجَتُهُ      فِيهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا الْجُودُ وَالْحَسَبُ  
وقال كعب بن مالك :

يَا لِلرِّجَالِ لِأَمْرِ هَاجٍ لِي حَزْنًا      لَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى الدِّمَنِ  
إِنِّي رَأَيْتُ قَتِيلَ الدَّارِ مُضْطَهَدًا      عُثْمَانُ يُهْدَى إِلَى الْأَجْدَاثِ فِي كَفَنِ

يَا قَاتِلَ اللَّهِ قَوْمًا كَانَ أَمْرُهُمْ  
مَا قَاتَلُوهُ عَلَى ذَنْبٍ أَلَمَّ بِهِ إِلَّا الَّذِي نَطَقُوا زُورًا وَلَمْ يَكُنْ

حتى النساء ، قلن في مصرع ذي النورين الشعر قالت زينب بنت العوام :

وَعَطَّشْتُمْ عُثْمَانَ فِي جَوْفِ دَارِهِ شَرِبْتُمْ كَثْرَ الْهِيمِ شَرَبَ حَمِيمِ  
فَكَيْفَ بَنَا أُمَ كَيْفَ بِالنَّوْمِ بَعْدَمَا أُصِيبَ ابْنُ أَرْوَى وَابْنُ أُمِّ حَكِيمِ

وقالت ليلي الأخيلية :

قَتَلَ ابْنُ عَفَّانَ الْإِمَامَ مُمْ وَضَاعَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ  
وَتَشَتَّتْ سُبُلُ الرَّشَا دِلِ صَادِرِينَ وَوَارِدِينَ  
فَانْهَضَ مُعَاوِيَ نَهْضَةً تَشْفِي بِهَا الدَّاءَ الدَّفِينَا  
أَنْتَ الَّذِي مِنْ بَعْدِهِ نَدْعُو أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

ولي أن أقف عند قولها «ضاع أمر المسلمين» وعند قولها :

وَتَشَتَّتْ سُبُلُ الرَّشَادِ لِصَادِرِينَ وَوَارِدِينَ

فإن هذا من فرط إحساسها ، لا من باب الحقيقة فإن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لمولده ، والله - ﷻ - متم نوره ، وقد قال - سبحانه - في سورة آل عمران الآية (144) : «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْفَعُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبَتْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

وفي رثاء علي بن أبي طالب يقول بكر بن حماد :

قُلْ لِابْنِ مُلْجَمٍ وَالْأَقْدَارُ غَالِبَةٌ هَدَمْتَ وَيْلَكَ لِلْإِسْلَامِ أَرْكَانَا  
قَتَلْتَ أَفْضَلَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمٍ وَأَوَّلَ النَّاسِ إِسْلَامًا وَإِيمَانَا  
وَأَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ ثُمَّ بِمَا سَنَّ الرَّسُولُ لَنَا شَرْعًا وَتَيَانَا  
صَهَرَ النَّبِيَّ وَمَوْلَاهُ وَنَاصِرُهُ أَضَحَتْ مَنَاقِبُهُ نُورًا وَبُرْهَانَا  
وَكَانَ مِنْهُ عَلَى رَغَمِ الْحُسُودِ لَهُ مَا كَانَ هَارُونَ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَا  
وَكَانَ فِي الْحَرْبِ سَيْفًا صَارِمًا ذَكَرَا لَيْثًا إِذَا لَقِيَ الْأَقْرَانُ أَقْرَانَا  
ذَكَرْتُ قَاتِلَهُ وَالِدَمْعُ مُنْهَدِرٌ فَقُلْتُ : سُبْحَانَ رَبِّ النَّاسِ سُبْحَانَا  
إِنِّي لِأَحْسَبُهُ مَا كَانَ مِنْ بَشَرٍ يَخْشَى الْمَعَادَ وَلَكِنْ كَانَ شَيْطَانًا  
أَشْقَى مُرَادًا إِذَا عُدَّتْ قَبَائِلُهَا وَأَخْسَرَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانَا  
كَعَاقِرِ النَّاقَةِ الْأُولَى الَّتِي جَلَبَتْ عَلَى ثَمُودَ بِأَرْضِ الْحِجْرِ خُسْرَانَا  
قَدْ كَانَ يُخْبِرُهُمْ أَنْ سَوْفَ يُخْضِبُهَا قَبْلَ الْمُنِيَةِ أَزْمَانًا فَازْمَانَا  
فَلَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ مَا تَحَمَّلَهُ وَلَا سَقَى قَبْرَ عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَا  
لِقَوْلِهِ فِي شَقِيٍّ كَانَ مُجْتَرِمًا وَنَالَ مَا نَالَهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانَا  
يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيُبْلَغَ مَنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا  
بَلْ ضَرْبَةً مِنْ عَوِيٍّ أَوْرَدَتْهُ لَطْفِي فَسَوْفَ يَلْقَى بِهَا الرَّحْمَنُ غَضَبَانَا  
كَأَنَّهُ لَمْ يُرَدِّ قَصْدًا بَضْرَبَتْهُ إِلَّا لِيَصْلَى عَذَابَ الْخُلْدِ نِيرَانَا<sup>(1)</sup>

(1) الاستيعاب 3 / 222 .



وقال أبو الأسود الدؤلي :

أَلَا يَا عَيْنُ وَيَحْكُ أَسْعِدِنَا  
تُبَكِّي أُمُّ كُلُّثُومٍ عَلَيْهِ  
أَلَا قُلْ لِلْخَوَارِجِ حَيْثُ كَانَتْ  
أَتَى شَهْرُ الصَّيَامِ فَجَعْتُمُونَا  
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا  
وَمَنْ لَبَسَ النَّعَالَ وَمَنْ حَذَاهَا  
فَكُلُّ مَنَاقِبِ الْخَيْرَاتِ فِيهِ  
لَقَدْ عَلِمْتَ قُرَيْشُ حَيْثُ كَانَتْ  
إِذَا اسْتَقْبَلْتُ وَجْهَ أَبِي حُسَيْنٍ  
وَكُنَّا قَبْلَ مَقْتَلِهِ بِخَيْرٍ  
يُقِيمُ الْحَقُّ لَا يَزْتَابُ فِيهِ  
وَلَيْسَ بِكَاتِمٍ عَلِيمًا لَدَيْهِ  
كَأَنَّ النَّاسَ إِذْ فَقَدُوا عَلِيًّا  
أَلَا تَبْكِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ  
بِعَبْرَتِهَا وَقَدْ رَأَتْ الْيَقِينَ  
فَلَا قَرَّتْ عُيُونُ الشَّامِتِينَ  
بِخَيْرِ النَّاسِ طُرًّا أَجْمَعِينَ  
وَذَلَّلَهَا وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا  
وَمَنْ قَرَأَ الْمَثَانِي وَالْمِثْنَا  
وَحِبُّ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
بِأَنَّكَ خَيْرُهَا حَسَبًا وَدِينًا  
رَأَيْتُ الْبَذَرَ فَوْقَ النَّاطِرِينَ  
نَدَى مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ فِيْنَا  
وَيَعْدِلُ فِي الْعِدَا وَالْأَقْرَبِينَ  
وَلَمْ يُخْلَقْ مِنَ الْمُتَجَبَّرِينَ  
نَعَامٌ حَارَ فِي بَلَدِ سِنِينَا<sup>(1)</sup>

(1) الاستيعاب 3 / 224 .

وقال إسماعيل بن محمد الحميري :

سَائِلُ قُرَيْشًا بِهِ إِنْ كُنْتَ ذَا عَمَةٍ  
مَنْ كَانَ أَقْدَمَ إِسْلَامًا وَأَكْثَرَهَا  
مَنْ وَحَدَ اللَّهُ إِذْ كَانَتْ مُكَذِّبَةً  
مَنْ كَانَ يُقَدِّمُ فِي الْهَيْجَاءِ إِنْ نَكَلُوا  
مَنْ كَانَ أَعْدَلَهَا حُكْمًا وَأَبْسَطَهَا  
إِنْ يَصْدُقُوكَ فَلَنْ يَعْدُو أَبَا حَسَنِ  
إِنْ أَنْتَ لَمْ تَلَقَ أَقْوَامًا ذَوِي صَلَفٍ  
وَذَا عِنَادٍ لِحَقِّ اللَّهِ جَحَّادًا<sup>(1)</sup>

وقد رثت امرأة عثمان بن مظعون زوجها عثمان - رضي الله عنه - فقالت :

يَا عَيْنُ جُودِي بَدَمْعٍ غَيْرِ مَمْنُونٍ  
عَلَى رَزِيَّةِ عَثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ  
عَلَى أَمْرِي كَانَ فِي رِضْوَانِ خَالِقِهِ  
طُوبَى لَهُ مِنْ فَقِيدِ الشَّخْصِ مَدْفُونٍ  
طَابَ الْبَقِيعُ لَهُ سُكْنَى وَغَرْقَدُهُ  
وَأَشْرَقَتْ أَرْضُهُ مِنْ بَعْدِ تَفْتِينٍ  
وَأَوْرَثَ الْقَلْبَ حُزْنًا لَا انْقِطَاعَ لَهُ  
حَتَّى الْمَمَاتِ وَمَا تَرَقَى لَهُ شُؤُنِي

وأتى عدي بن حاتم الشاعر سالم بن دارة الغطفاني .

فقال لعدي : قد مدحتك يا أبا طريف .

(1) الاستيعاب 3 / 225 .

فقال له عديّ : أمسك عليك يا أخي حتى أخبرك بما لي فتمدحني على حسبه ،  
لي ألف ضائنة ، وألف درهم وثلاثة أعبد ، وفرسي هذه حبيس في سبيل الله - ﷻ -  
فقل فقل ، سالم بن دارة :

تَحْنُ قَلُوصِي فِي مُعَدٍّ وَإِنَّمَا      تُلَاقِي الرَّبِيعَ فِي دِيَارِ بَنِي ثَعْلٍ  
وَأَبْغِي اللَّيَالِي مِنْ عَدِيٍّ بِنِ حَاتِمٍ      حُسَامًا كَلُونِ الْمَلْحِ سُلَّ مِنْ الْخَلَلِ  
أَبُوكَ جَوَادٌ مَا يُشَقُّ غُبَارُهُ      وَأَنْتَ جَوَادٌ لَيْسَ تَغْدُرُ بِالْعِلَلِ  
فَإِنْ تَتَّقُوا شَرًّا فَمِثْلُكُمْوَأَتَقَى      وَإِنْ تَفْعَلُوا خَيْرًا فَمِثْلُكُمْوَفَعَلَ

وفيه يقول عمر ، وقد قال له ما أظنك تعرفني .

يقول : كيف لا أعرفك ، وأول صدقة بيضت وجه رسول الله - ﷺ - صدقة  
طي ، أعرفك آمنت إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفيت إذ غدروا .

#### عمرو بن سالم الخزاعي :

هو عمرو بن سالم بن كلثوم الخزاعي ، يروي المكيون حديثه حيث خرج  
مستنصرًا من مكة إلى المدينة حتى أدرك رسول الله - ﷺ - فقال :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا      حَلَفَ أَبِيهِ وَأَيْنَا الْأَثَلَدَا  
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفَتَكَ الْمَوْعِدَا      وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكَدَا  
وَزَعَمُوا أَنَّ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا      وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا  
قَدْ جَعَلُوا لِي بِكَرَاءٍ رَصَدَا      فَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا  
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا      أَبْيَضُ مِثْلُ الْبَذْرِ يَنْمُو صَدَدَا

إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا      فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا  
قَدْ قَتَلُونَا بِالصَّعِيدِ هَجَدَا      نَتْلُو الْقُرْآنَ رُكْعًا وَسُجَّدَا  
وَوَالِدَا كُنَّا وَكُنْتَ الْوَلَدَا      ثُمَّتْ أَسْلَمْنَا وَلَمْ تَنْزِعْ يَدَا  
فَانْصُرْ رَسُولَ اللَّهِ نَصْرًا أَبَدَا

قال ابن عبد البر : فقال رسول الله - ﷺ - لا نصري الله إن لم أنصر بني  
كعب<sup>(1)</sup>.

#### الشعر وتفسير القرآن الكريم :

أدى الشعر دوره الكبير في تفسير القرآن الكريم ؛ ففي قول الله - ﷻ - من  
سورة الأنبياء الآية (42) : « قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ  
عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ » .

يستدل المفسرون على أن «من» بمعنى «غير» بقول الشاعر :

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَسِ الْمَرْقَقَا      وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبُقُولِ الْفُسْتَقَا  
أي لم تذوق بدل البقول الفستق<sup>(2)</sup>.

وفي قوله - تعالى - من سورة الأنبياء الآية (87) : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ  
عَلَيْهِ » .

(1) الاستيعاب 3 / 260 .

(2) ابن كثير 3 / 179 .



يستدلون على أن نقدر بمعنى «نقدر» أي التقدير بقول الشاعر :

فَلَا عَائِدُ ذَاكَ الزَّمَانُ الَّذِي مَضَى تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرُ يَكُنْ ذَلِكَ الْأَمْرُ<sup>(1)</sup>

وفي قوله - تعالى - من سورة الحج الآية (25) : «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» .

أي من يرد فيه إلحادًا ، والدليل على ذلك قول الأعشى :

صَمَنْتَ بِرِزْقِ عِيَالِنَا أَرْمَاحُنَا بَيْنَ الْمَرَاجِلِ وَالصَّرِيحِ الْأَجْرَدِ

وهناك احتمال تضمين يرد «بهم» أي من يهم بإلحاد .

وذهب بعض العلماء إلى أن «غير» في فاتحة الكتاب بمعنى «إلا» أي استثنائية ، فيكون الاستثناء منقطعًا لاستثنائهم من المنعم عليهم ، وليسوا منهم ، قال ابن كثير : وما أوردناه أولى لقول الشاعر :

كَأَنَّكَ مِنْ جِمالِ بَنِي أَقِيَشٍ يُقَعِّعُ عِنْدَ رَجُلَيْهِ بِشَنٍّ

أي كأنك جمل من جمل بني أقيش ، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة ، وهكذا غير المغضوب عليهم ، أي غير صراط المغضوب عليهم ، اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف ، وقد دل عليه سياق الكلام ، وهو قوله تعالى : «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال تعالى : «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» ومنهم من زعم أن «لا» في قوله تعالى : «وَلَا الضَّالِّينَ» زائدة ، وأن تقدير الكلام عنده غير المغضوب عليهم والضالين واستشهد ببيت معجاج :

في بئر لا حور السَّعْيِ وَمَا شَعَرَ

أي في بئر حور ، والصحيح ما قدمناه<sup>(1)</sup> .

ويأتي الشعر في كتب التفسير مع الاستطراد كما قال ابن كثير : وقد يأتي الريب بمعنى التهمة .

قال جميل :

بُئِينَةٌ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي فَقُلْتُ كِلَانَا يَا بُئِينَةٌ مُرِيبُ

قال ابن كثير : واستعمل أيضًا في الحاجة ، قال بعضهم :

قَضِينَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ وَخَيْرٌ نُمَّ أَجْمَعُنَا السُّيُوفُ<sup>(2)</sup>

فهذا منه - عليه رحمة الله - استطراد ، ولولاه لقال إن معنى الريب : الشك وانتهى الأمر .

فالشعر في سياق العلوم ، وأجلها تفسير القرآن جماعة لمعاني اللغة ، وهذا بلا شك إثراء كبير لثقافة المسلم الذي لم يرد له الجهابذة الأعلام أن يقف فقط عند المعنى المراد ، ثم يطوي الصفحة ، إنما أرادوا أن يضيئوه وينوروه بذكر المعاني الواردة فلا يختلط عليه الأمر بعد .

ومن باب الاستطراد كذلك ما ذكره - رحمه الله - من سؤال عمر بن الخطاب أبي بن كعب عن التقوى ، فقال له : أما سلكت طريقًا ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ؟ قال : شمريت واجتهدت . قال : فذلك التقوى .

قال ابن كثير : وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز ، فقال :

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقَى

(1) تفسير ابن كثير 1 / 29 .

(2) ابن كثير 1 / 39 .

وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى  
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنْ الْحَصَى

ثم قال : وأنشد أبو الدرداء يوماً :

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤْتَى مِنْهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا  
يَقُولُ الْمَرْءُ فَأَيْدِي وَمَالِي وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

ثم يربط بين قوله ما استفاد وقوله - ﷺ - فيما رواه ابن ماجه عن أبي أمامة

قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة  
صالحة ، إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب  
عنها نصحتُهُ في نفسها وماله »<sup>(1)</sup> .

### الصوفية والشعر

وما دام الأستاذ الدكتور/ عبد الفتاح الدماصي قد كتب في شعر التصوف ،  
وقدم نماذج منه فك ألغازها ، ووقف عند معانيها وكذلك كتب غيره فإني أكتفي  
فقط بالإشارة إلى الخلاصة وهي أن الناظر في ظاهر ألفاظ هذا الشعر يكفر الشاعر  
الذي هو في الحقيقة ذائب في حب الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - وما دام ابن  
الفارض له مَنْ عكفوا على شعره ، ورأوا أن له إرادة غير البادية من نحو قوله :

سَائِقُ الْأَظْغَانِ يَطْوِي الْبَيْدَ طَيِّ مُنْعِمًا عَرَجَ عَلَى كُتُبَانِ طَيِّ

وأن الشوق الذي أنصبه كما نصب المضارع لام كي ليس شوقاً إلى امرأة ، وإنما  
هو شوق إلى مدد الرحمن الرحيم فإنني لا أكرر القول هنا ، وإنما أقول : لا بد لقارئ  
هذا الشعر من شرح يصاحبه ، ومن ثم كنت وما زلت أدعو إلى الوضوح ، وإلى أن  
يطابق الظاهر الباطن ؛ لأن الكتاب العزيز الذي هو أسوة الشعراء والأدباء المسلمين  
في الفصاحة العليا على هذا المنوال ، وقد يسره الله للذكر .

وما كل مطلع على شعر شاعر على علم بتأويله ، والصوفية ليسوا كالمتنبي  
القائل :

أَنَامُ مِلءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَحْتَصِمُ

فإذا كان المتنبي لا يلقي بالاً لما يتلقف به النقاد قصيدته من ناحية الإبداع  
الفني ، هذا يراه يتمثل في كذا ، وهذا يراه يتمثل في كذا ، فما هكذا الحال عند شعراء  
التصوف أو غيرهم من الذين يقصدون بشعرهم تعليم الناس ، ودعوتهم إلى مثل  
عليها حث عليها الدين .



ويعجبني من شعر التصوف ما لا لبس فيه ، وما لا يحتاج إلى تأويل ، والقاعدة عند علماء التفسير واللغة أن ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج ..

ومن ذلك أن لأبي الحسن الشاذلي - رحمه الله - حزباً يسمى حزب النصر ، وأوله :

بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم بسطوة جبروت قهرك ، وبسرعة إغاثة نصرك ، وبغيرتك لانتهاك حرمانك ، وبحمايتك لمن احتفى بآياتك ، نسألك يا سميع يا مجيب يا سريع يا منتقم يا قهار يا شديد البطش ، يا من لا يعجزه قهر الجبابرة ، ولا يعظم عليه هلاك المتمردة من الملوك الأكاسرة ، نسألك اللهم أن تجعل كيد من كادنا في نحره ، ومكر من مكر بنا عائداً عليه ، وحفرة من حفر لنا واقعاً فيها ..

وقد ضمنه شعراً حيث قال :

إِنْ أَبْطَأَتْ غَارَةُ الْأَرْحَامِ وَابْتَعَدَتْ      فَأَقْرَبُ الشَّيْءِ مِنَّا نُصْرَةُ اللَّهِ  
يَا غَارَةَ اللَّهِ جِدِّي السَّيْرِ مُسْرِعَةً      فِي حَلِّ عُقْدَتِنَا يَا غَارَةَ اللَّهِ

فقال الشاعر في هذا الحزب :

لِحِزْبِ النَّصْرِ أَسْرَارٌ سَنِئَةٌ      وَلِلرَّحْمَنِ الْطَّافُ خَفِيَّةٌ  
وَإِنَّا بِالْإِجَابَةِ قَدْ وَعَدْنَا      وَتَرَكُ سُؤَالَ مَوْلَانَا خَطِيئَةً<sup>(1)</sup>

فهذا جميل ، وليس فيه ما يخالف الشرع لفظاً ومعنى .

وللشيخ محمد البكري :

يَا رَبَّ يَا عَالَمِ السَّرَائِرِ يَا      مَنْ هُوَ لَا غَيْرُهُ اللَّطِيفُ الْحَبِيرُ

(1) فتح الملك المجيد المؤلف لنفع العبيد ص 63 .

أَذْرِكُ عَبْدًا ذَلِيلًا حَقِيرًا      مُسْتَجِيرًا وَمَا سِوَاكَ مُجِيرُ  
رَبِّ إِنِّي كَمَا تَرَى فِي انْكِسَارِي      أَنْتَ جَبْرِي وَأَنْتَ نِعَمَ النَّصِيرُ

وللصوفية استغاثة مباركة قالوا : ما دعا بها أحد في حاجة إلا قضيت هي :

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ      أَنْتَ الْمَعْدُ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ  
يَا مَنْ يُرْجَى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا      يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمَشْتَكَى وَالْمُفْرَعُ  
يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ كُنْ      أُمْنُنْ فَإِنَّ الْحَيَرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ  
مَالِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ      فَبِالافتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَذْفَعُ  
مَالِي سِوَى قَرْعِي لِبابِكَ حِيلَةٌ      فَلَمَّا رَدَدْتَ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ  
وَمَنْ الَّذِي أَدْعُو وَأَهْتَفُ بِاسْمِهِ      إِنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقِيرِكَ يُمْنَعُ  
حَاشَا لْجُودِكَ أَنْ تُقْنِطَ عَاصِيًا      الْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالْمَوَاهِبُ أَوْسَعُ  
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ      خَيْرُ الْأَتَامِ وَمَنْ بِهِ يُتَشَفَّعُ<sup>(1)</sup>

وأنا أقول : هذا بالنسبة إليهم ، ولمن على شاكلتهم ممن صفت نفسه ، ونذر عمره في حب الله - تعالى - فليس قولهم إن أحداً ما دعا بها في حاجته إلا قضيت على إطلاقه ، وإنما المراد بهذا الأحد من سأل الله - ﷻ - بقلب حاضر ، وذهن صاف ، وخشوع وكان دعاؤه ملتبساً بعمل يقربه من الله - ﷻ - السميع القريب المجيب .

(1) فتح الملك المجيد ص 68 .

فليس في دين الله الإسلام نص يقوله البر والفاجر فيستجيب الله لهما من أجل هذا النص .

ودليلي على ذلك ما رواه البخاري من قول النبي - ﷺ - « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَر لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ » وقد جاء هذا الحديث إثر إجابة من الله - تعالى - لأنس بن النضر الذي كسرت أخته الرُبَيْع ثنية امرأة فأبى أهل المكسورة إلا القصاص ، ورفضوا الدية ، فلما هم النبي - ﷺ - بالقصاص لأنه شرع الله والقوم لا يرضون بغيره قال أنس بن النضر : والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما ، فإذا بالقوم يرضون بالدية ، فقال النبي - ﷺ - هذا الحديث .

وروي أن التي أقسمت هذا القسم أمها ؛ أي أم الرُبَيْع فلم يقل أنس بن النضر :

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ أَنْتَ الْمَعْدُ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ  
يَا مَنْ يُرْجَى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمَشْتَكَى وَالْمَفْرَعُ

إلى آخر ما ذكرته من استغاثة السادة المباركة وإنما قال أو قالت أمه : « وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسِرُ ثَنِيَّتَهَا » .. والله هو البر الرحيم أجاب الدعاء ، بل أجاب القسم فأودع الرحمة في قلوب رضىيت بما يحفظ على الرُبَيْع ثنيتهما .

#### قصة الحطيئة مع عمر بن الخطاب :

رفع إلى عمر - ﷺ - أن الحطيئة آذى الناس بهجائه فاستحضره وأنبهه وأوهمه أنه قاطع لسانه ، فقال له الحطيئة : لقد هجوت والله - أمني وأبي ونفسي وامرأتي ، وذكر له أنه قال في أمه :

وَلَقَدْ رَأَيْتُكَ فِي النَّسَاءِ فُسُوتَنِي وَأَبَا بَنِيكَ فَسَاءَنِي فِي الْمَجْلِسِ

وقال فيها :

تَنَحَّيْ فَاجْلِسِي مِنِّي بَعِيدًا أَرَاكَ اللَّهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَ  
أَعْزِبَالَا إِذَا اسْتُودِعَتْ سِرًّا وَكَانُوا نَا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ

وقال في امرأته :

أَطَوَّفَ مَا أَطَوَّفَ ثُمَّ أَوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتُهُ لَكَاعِ

وهجا نفسه فقال :

أَبْتُ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلَّمَا بِشَرٍّ فَمَا أَذْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ  
أَرَى لِي وَجْهًا قَبَّحَ اللَّهُ خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَقُبِّحَ حَامِلُهُ

وسجنه عمر - ﷺ - وكان الشعر الذي سجنه هو الذي شفع له حيث قال :

مَآذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَحٍ زُغِبِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ  
أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ  
أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَتْ إِلَيْهِ مَقَالِيدَ النُّهَى الْبَشَرُ  
مَا أَثَرُوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَا بَلْ لَأَنْفُسِهِمْ قَدْ كَانَتْ الْأَثَرُ

فأحضره عمر ، واستتابه وخلي سبيله .

وسمع عمر امرأة تنشد :

أَلَا طَالَ هَذَا اللَّيْلُ وَازَوَرَ جَانِبُهُ وَلَيْسَ إِلَى جَنْبِي خَلِيلٌ أَلَا عِبُهُ  
فَوَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ تُخْشَى عَوَاقِبُهُ حُرَّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ



مَخَافَةَ رَبِّي وَالْحَيَاءِ يَعْضُنِي وَأَكْرِمُ بَعْلِي أَنْ تُنَالَ مَرَاتِبُهُ

فسأل عمر - رضي الله عنه - عنها ، فقيل له إنها امرأة فلان وله في الغزاة ثمانية أشهر ، فأمر عمر ألا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر .

وقصته مع المرأة المتمنية معروفة ، حيث قالت :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى حَمْرِ فَأَشْرِبَهَا أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَضْرٍ بِنِ حَجَّاجٍ

وقيل إن امرأة دست إليه أبياتاً فيها :

قُلْ لِلْإِمَامِ الَّذِي تُخْشَى بَوَادِرُهُ مَالِي وَلِلْخَمْرِ أَوْ نَضْرٍ بِنِ حَجَّاجٍ

لَا تَجْعَلِ الظَّنَّ حَقًّا أَنْ تَبَيَّنَهُ إِنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ الْخَائِفِ الرَّاجِي

إِنَّ الْهَوَى زُمَ بِالْتَّقْوَى فَتَحْبِسُهُ حَتَّى يَفِرَّ بِالْجَامِ وَأَسْرَاجِ

فبكى عمر - وقال : الحمد لله الذي زم الهوى بالتقوى <sup>(1)</sup> .

وزم بالزاي أي أحاط ، وربط ، تعني أن التقوى ما زالت موجودة ، وكما قال الشاعر :

وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللَّحَاءُ

واللحاء : القشرة التي تزمزم العود وتغطيه فهو باق ما بقيت ، فإن زالت تلك القشرة عنه فلا سبيل لبقائه .

وفي نور الأبصار جاء أعرابي ، وقال لعمر :

يَا عُمَرَ الْخَيْرِ جُزِيَتْ الْجَنَّةُ أَكْسُ بَنِيَاتِي وَأُمَّهُنَّ

(1) نور الأبصار ص 63 .

أُقْسِمُ بِاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّهُ

فقال عمر : فإن لم أفعل ؟

قال :

تَكُونُ عَنْ حَالِي لَتُسْأَلَنَّهُ يَوْمَ تَكُونُ الْأَعْطِيَّاتُ مِنْهُ

وَالْوَاقِفُ الْمُسْتَوْلُ بَيْنَهُنَّ إِمَّا إِلَى نَارٍ وَإِمَّا جَنَّةٍ

فأثر ذلك في عمر ، حتى بكى ، وقال لغلامه :

« أعطه قميصي هذا لذلك اليوم ، فوالله لا أملك غيره » <sup>(1)</sup> والتمثل بالشعر من

باب السعة ، وهو دليل على حضوره في الذهن ، وقربه من الفكر سيما ما يحمل

المعاني الجميلة ، والحكم العظيمة ، وقد قال النبي - ﷺ - « صدق كلمة قالها شاعر

قول لبيد :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

وقد حج عمر - رضي الله عنه - فوقف في مكان ، وقال :

لا إله إلا الله العظيم ، المعطي ما شاء لمن شاء ، كنت أرمي إبل الخطاب بهذا

الوادي في مزرعة صوف ، وكان فظا يتعبنى إذا عملت ، ويضر بني إذا قصرت ، وقد

أصبحت وأمسيت ليس بيني وبين الله أحد ، ثم تمثل بهذه الأبيات :

لَا شَيْءٌ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بِشَاشَتُهُ يَبْقَى إِلَهِهُ وَيُودَى الْمَالُ وَالْوَلَدُ

لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ وَالْخُلْدُ قَدْ حَاوَلَتْ عَادُ فَمَا خَلَدُوا

(1) نور الأبصار ص 64 .

وَلَا سُلَيْمَانَ إِذْ تَجَرَّى الرِّيحُ لَهُ  
وَالْإِنْسُ وَالْجَنُّ فِيمَا بَيْنَهُمَا تَرْدُ  
أَيْنَ الْمُلُوكِ الَّتِي كَانَتْ لِعِزَّتِهَا  
مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا وَافِدٌ يَفْدُ  
حَوْضُ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بِلا كَذِبٍ  
لَأَبَدٍ مِنْ وَرْدِهِ يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

ونحن نعلم بالتواتر أن عمر - رضي الله عنه - كان وقافا عند كتاب الله - سبحانه - وقد يقول قائل :

لماذا تَمَثَّلَ بالشعر ، الذي معناه أن لا شيء يدوم ، وعنده قول الله - تعالى -  
في سورة الرحمن الآية (26) : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ .

والحق أن هذا سؤال بعيد ، وفيه شيء من الظلم ؛ لأن معناه أن عمر اصطفى الشعر على القرآن ، وهذا مستحيل لأن عمر لم يعمل بالشعر ، ولم يتقرب إلى الله - سبحانه - بتلاوته مصطفيه على كتاب الله ، وإنما هذا شيء من الفسحة ، والسعة ، وقد بدأ - رضي الله عنه - بخير ما قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - والنبيون من قبله ؛ بدأ بـ «لا إله إلا الله» وتذكر الموقف الذي كان وما كان عليه من هوان ، وما صار إليه أمره ، من باب التحدث بالنعمة لا من باب العتو والظلم والتكبر ثم تمثل بهذه الأبيات التي يعظ بها نفسه ، ويذكرها ، ويذكر إخوانه بأن الخلد ما كان لأحد من الملوك ومن بلغوا في الدنيا شأواً عظيماً وسيبقى في دين الله سعة .

وحين مات عاصم بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رثاه أخوه عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - حيث يقول :

فَلَيْتَ الْمَنَآيَا كُنَّ خَلْفَنَ عَاصِمًا  
فَعِشْنَا جَمِيعًا أَوْ ذَهَبْنَ بِنَا مَعًا<sup>(1)</sup>

(1) سير أعلام النبلاء 5 / 119 .

وربما علق بعض الناس على هذا البيت فقال :

أهذا هو ابن عمر ، الذي كان يحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حبا جما ، يتأسى به حتى فيما لا يجب فيه التأسي حتى قيل مجنون .

لم يسأل بلالاً : كم صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنما سأله : أين صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكي يصلي في الموضع الذي صلى فيه فكيف يقول هذا في أخيه ، كيف يتمنى أن تبقي المنية أخاه ! ألا يعلم ابن عمر - أن لكل أجل كتابا وأن الله - سبحانه - سَمَّى الآجال ، وأن أحدا لا يبقى لبقاء أحد ، ولا يموت لموته ، ما هذا ؟ والعقلاء يعرفون أن هذا شعور ، والرجل يقول «ليت» وهي للتمني ، وهو قبلنا يعرف أن التمني مستحيل أو فيه عسر ، وهنا مستحيل لكن التمني في مثل هذا السياق لا ينقض الإيمان وكتب عبيد الله بن عبد الله بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز :

بِسْمِ الَّذِي أَنْزَلْتَ مِنْ عِنْدِهِ السُّورُ  
الْحَمْدُ لِلَّهِ أَمَّا بَعْدُ يَا عُمَرُ  
إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا تَأْتِي وَمَا تَذُرُ  
فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ قَدْ يَنْفَعُ الْحَذَرَ  
وَاصْبِرْ عَلَى الْقَدَرِ الْمُحْتُومِ وَارْضَ بِهِ  
وَإِنْ أَتَاكَ بِمَا لَا تَشْتَهِي الْقَدَرَ  
فَمَا صَفَا لِأَمْرِي عَيْشٌ يُسَرُّ بِهِ  
إِلَّا سَيَتَّبِعُ يَوْمًا صَفْوَهُ كَدَرُ<sup>(1)</sup>

قال الزهري : كان عبيد الله بن عبد الله بحراً من بحور العلم والشعر محبباً إلى النفوس ، وإنما ذكرت مقولة عبيد الله لابن عبد العزيز الخامس الراشد ، وسميتها مقولة لأنها خطبة منظومة ، وذكرت قول الزهري فيه لأبين أن بحر العلم لم يشنه ولم ينقص من قدره أن قال الشعر وعليه فعلينا البحث عن سبب الإزراء في قول منسوب إلى الشافعي ، حيث قال :

وَلَوْ لَا الشَّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي  
لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدٍ

(1) سير أعلام النبلاء 5 / 386 .



ولعله يزري بهم لو تركوا العلم وتفرغوا له فإن الشعر المنسوب إلى الشافعي - رحمه الله - كثير ، وهو شطر اللسان العبقري ، فالكلام شعر ونثر .

فهو - عليه رحمة الله - ينتمي إلى العلماء لا إلى الشعراء ، وليس معنى ذلك أن الشعراء أهل خدمة ، والله در يزيد بن الحكم بن أبي العاص حيث قال :

شَرِبْتُ الصَّبَا وَالْجَهْلَ بِالْحِلْمِ وَالتَّقَى وَرَاجَعْتُ عَقْلِي وَالْحَلِيمُ يُرَاجِعُ  
أَبَى الشَّيْبِ وَالْإِسْلَامُ أَنْ أَتَّبَعَ الْهَوَى وَفِي الشَّيْبِ وَالْإِسْلَامِ لِلْمَرْءِ وَازِعٌ

ومما سطره المفسرون من قول الشافعي :

تَمَنَّى رِجَالُ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ  
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى تَهَيَّأ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدْ

### الشعر في صحيح البخاري

وأصح كتاب بعد كتاب الله بإجماع علماء الأمة هو الجامع الصحيح للإمام البخاري ، وقد ورد فيه الشعر على ثلاثة أضرب : ضرب التمثيل ، وضرب الشهادة بصدقه ، والثالث في التقوي به على العمل والمسير ؛ فمن ضرب التمثيل ما رواه البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : لما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كُلُّ أَمْرِي مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع غضيرته يقول :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خَرُّ وَجَلِيلٌ  
وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَحْنَةٍ وَهَلْ يَبْدُونُ لِي شَامَةً وَطَفِيلٌ

فأبو بكر يظن الموت قادمًا ، وأنه منه قريب ، أقرب إليه من شراك نعله .

وبلال لا يختلف موقفه ، ومن ثم ظن أن بينه وبين إذخر مكة ونباتاتها وجبالها أملاً قد يتحقق بالسلامة وقد يغيب بالموت ، والحنين إلى الأوطان من غرس الرحمن يغرسه في القلوب لتعمير الأرض .

ومن التمثيل ما رواه عن عائشة أن وليدة كانت سوداء لحى من العرب ، فأعتقوها ، فكانت معهم قالت : فخرجت صبية لهم عليها وشاح أحمر من سيور ، قالت : فوضعتة أو وقع منها ، فمرت به حُديأة وهو ملقى ، فحسبته لحماً ، فخطفته ، فالتمسوه فلم يجدوه ، قالت : فاتهموني به ، فطفقوا يفتشون حتى فتشوا قبلها ، قالت : والله إني لقائمة معهم إذ مرت الحديأة فألقته ، فوقع بينهم قالت : هذا الذي اهتمموني به زعمتم وأنا منه بريئة ، وهو ذا هو ، قالت : فجاءت إلى رسول الله - ﷺ - فأسلمت قالت عائشة : فكان لها خباء في المسجد ، قالت : فكانت تأتينني فتحدث عندي ، فلا تجلس عندي مجلساً إلا قالت :

وَيَوْمَ الْوُشَاحِ مِنْ أَعَاجِبِ رَبَّنَا أَلَا إِنَّهُ مِنْ بَلَدَةِ الْكُفْرِ أَنْجَانِي

قالت عائشة : فقلت لها : ما شأنك ، لا تتعدين معي مقعداً إلا قلت هذا ؟ قالت : فحدثتني بهذا الحديث ومنه ما رواه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه لما أقبل يريد الإسلام ومعه غلامه - ضل كل واحد منهما من صاحبه فأقبل بعد ذلك وأبو هريرة

جالس مع النبي - ﷺ - فقال النبي - ﷺ - يا أبا هريرة هذا غلامك قد أتاك ، فقال : أما إني أشهدك أنه حر ، قال : فهو حين يقول :

يَا لَيْلَةً مِنْ طَوْلِهَا وَعَنَايِهَا عَلَى أَنَّهَا مِنْ دَارَةِ الْكُفْرِ نَجَّتْ

### ونادى رجل عامر بن الأكوع

وفي خروج الناس مع النبي - ﷺ - إلى خيبر ، كان المسير ليلاً ، ونادى رجل عامراً ، وكان شاعراً ، فقال : يا عامر ، ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ فنزل يحدو بالقوم يقول :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَالَيْنَا  
فَاغْفِرْ فِدَاءَ لَكَ مَا اتَّقَيْنَا وَبَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَا قَيْنَا  
وَأَلْقَيْنَ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا  
وَبِالصَّبَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فقال رسول الله - ﷺ - : مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟ قالوا : عامر بن الأكوع .

قال : يرحمه الله .

قال رجل من القوم : وجبت يا نبي الله ، لولا أمتعتنا به . رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع ، وقد جاء فيه أن عامراً أصاب نفسه ، فمات ، فظن بعض الناس أنه قد حبط عمله ، فشكا ذلك سلمة للنبي - ﷺ - فقال - عليه الصلاة والسلام - كذب مَنْ قاله ، إن له لأجرين وجمع - ﷺ - بين إصبعيه .

### استحضار المعاني

ويستحضر عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - المعنى الوارد في الشعر والذي قيل منذ زمان طويل فيه - ﷺ - وذلك فيما رواه البخاري عنه : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي - ﷺ - يستسقي ، فما ينزل حتى يحيش كل ميزاب ، وهو قول أبي طالب :

لَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَالَ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ  
ويروي البخاري عن أبي هريرة وهو يذكر رسول الله - ﷺ - إن أخا لكم لا يقول الرفث ، يعني بذلك عبد الله بن رواحة :

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ  
أَرَأَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مُؤْمَنَاتٌ أَنْ مَا قَالَ وَاقِعُ  
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمَشْرِكِينَ الْمُضَاجِعُ

### في غزوة الخندق

وروى البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال : خرج رسول الله - ﷺ - إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاعْفِرِ اللَّهُمَّ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ  
فقالوا مجيبين له :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا



وجعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة وينعلون التراب على متونهم ويقولون :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا  
والنبي - ﷺ - يجيبهم ويقول :

اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ فَبَارِكْ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

وروى البخاري كذلك عن البراء - رضي الله عنه - قال : رأيت رسول الله - ﷺ - يوم الأحزاب ينقل التراب ، وقد وارى التراب بياض بطنه ، وهو يقول :

لَوْ لَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا  
فَأَنْزَلَ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا  
إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

أذكر ونحن في الصف الأول الإعدادي ، أن موضوع الإنشاء كان في كثير من حصصه بيتاً من الشعر ، فيكتب لنا العلامة : اكتب في موضوع من الموضوعات الآتية :

قال الشاعر :

1- بِالْعِلْمِ وَالْمَالِ يَبْنِي النَّاسُ مُلْكَهُمْو  
لَمْ يَبْنِ مُلْكٌ عَلَى جَهْلٍ وَإِفْلَالٍ

2- الْأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعَدَّتْهَا  
أَعَدَّتْ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ

3- دُو الْعِلْمِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ  
وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الضَّلَالَةِ يَنْعَمُ

4- وَلِلْحُرِيَةِ الْحُمْرَاءُ بَابٌ  
بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

5- قُمْ لِلْمُعَلِّمِ وَفِيهِ التَّبَجِيلَا  
كَادَ الْمُعَلِّمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَا

وذلك في درس الدعوة وخطب الجمعة كثير ، فالشعر لون من التعبير يقرع الأسعاع بنشاطه الموسيقي ولغته العذبة ، وتراكيبه المنشطة ، وسحره المعروف وهو يؤثر في النفوس ، وينقلها نقلة عظيمة ولكن على أكف الراحة ، وبساط من السعادة .

والقارئ لكتب الدعاة المستنيرين أمثال الإمام محمد الغزالي - يرحمه الله - يجد للشعر مساحة كبيرة ، وما أود أن يقف عنده القارئ هنا هو عبقرية الغزالي العزيز الغالي في الاستئناس بالشعر في كتبه ، وأقول عبقرية ؛ لأنه فصل بين المتن والحشو ، فجاء الشعر في كتاباته جزءاً من متنها ، لا فضلاً في حواشيها ، فالرجل لا يمثل لما يكتب بأبيات من الشعر ، وإنما مزججه في كلامه فكأنه هو أبو العذرة ، وهو الشاعر ، كما فعل الشيخ خالد الأزهرى الذي رضي بأن يكون جزءاً من ابن هشام في كتابه التصريح بمضمون التوضيح ، فمن قرأ التصريح لم يفرق بين كلام ابن هشام وكلام الأزهرى ؛ حيث إن كلام الثاني امتداد لكلام الأول .

ولذا أرى الغزالي شاعراً وإن لم يكن قد نظمه ومبدعاً في الاستئناس بالشعر ، وكم أحياء من مواته ، وتلك عبقرية أخرى ، ألا ترى إلى قوله في مقدمة كتابه (هموم داعية) .

«قد أحزن عندما أبذل جهدي ثم لا أرى الثمرة المرتقبة ، ومع ما يغامرني من ضيق فإن ضميري يكون مستديماً ، وحسابي لنفسي لا يصحبه ندم أو خزي ، وقد يجري على لساني قول القائل :

صَحَّ مِنِّي الْعَزْمُ وَالْدَّهْرُ أَبَى

وهنا أقول لطائفة من المنتسبين إلى الدعوة والدعاة والذين عانى منهم الغزالي نفسه أشد معاناة لأنهم وقفوا عند ظاهر من القول ولم يفقهوا روح المعاني ، وتعلقوا بالشكل وغفلوا عن معاني الدين التي ترتقي بالأمة الإسلامية وتنهض بها ، وتسبق بذلك الأمم : لعلكم تقفون عند قول الشاعر (والدهر أبى) .

وتقولون : أعوذ بالله ، الدهر أبى .. الدهر رضي فما الدهر ؟ وما الدنيا ؟ وما الأيام ، والأمر كله لله وهذا منطق عجيب ، أخرنا كثيرًا .

وأذكر في هذا السياق حكاية الغلام الذي سأله عمر - رضي الله عنه - عن طريق ، فقال ( الله أعلم ) فضربه عمر ، وقال له هذه المقولة :

- شقينا إن لم نعلم أن الله أعلم ، إذا سئل أحدكم عن شيء فليقل : أدري ، أو لا أدري يريد عمر - رضي الله عنه - أن يقول «الله أعلم» قاعدة من قواعد العقيدة ، نحن نؤمن بها ، ولكنها لا تصلح جوابًا عن سؤال ، أو إن شئت الدقة لم يصب من أجاب بها .

وقد فرق السادة العلماء - رحمهم الله - بين موقف عمر هذا ، وبين قوله هو «الله أعلم» في موقف آخر حيث بينوا أنه قال : الله أعلم تمهيدًا لكي يعلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس معناه إجابة ، أما في هذا الموقف فقد سقت عبارة (الله أعلم) في سياق الإجابة عن سؤال ، ما كان يصح في نظر عمر وغيره من أولي الألباب أن يطلقوها في وجه من سألهم ، وإنما عليهم إذا علموا أن يرشدوا ويدبروا ، وإن لم يعلموا أن يقولوا : لا ندري ، حتى ينطلق السائل إلى من يعلم ، فيخبره .

ونحن نشقى في هذا الزمان بمن لا يدري ويدعي أنه يدري ، حتى توهم الناس في زمن الضعف في كل شيء أنه بالفعل يدري ، وقد استمعت إلى أحدهم ( يعك ) في مسألة لغوية في ضوء أحد التراكيب القرآنية ( عكا ) ، ويعجن فيها

القول عجبًا ، فظن بعض أهل العلم - مع الأسف - أنه علامة متبحر في اللغة ، إلى هذا الحد وصل حالنا ، والله المستعان .

أقول لهؤلاء الذين يقولون ما الدهر الذي أبى وكل شيء بقضاء الله وقدره .

لقد نقلتم الموضوع إلى موضوع آخر ، وحولتم المسير الواسع إلى زقاق ضيق ، لأن الأفق الذي تدورون فيه أضيق فإن للغة علمًا ، ولستم بباليغيه ، ولعلكم قرأتم قول الله - تعالى - في سورة يوسف الآية (82) «وَسَّئِلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ» . ولعل أحدكم لو سئل : كيف قال الله - تعالى - «وَسَّئِلِ الْقَرْيَةَ» والقرية مبانٍ وحقول لا تحيب مناديًا ولا تعرف لسان المقال ؟

لو سئل أحدكم هذا السؤال لأجاب : إنه كلام الله - عز وجل - ونحن نؤمن به ، ونرضاه ، ولعل بعضكم يا أبنائي يتناول بجهل فيقول : نحن نسلم لكلام الله ولا نعمل العقل ، فالله أعلم .

ولو درستم البلاغة لعلمتم أن هذا مجاز مرسل ، مستعمل شائع في لغة العرب ، وقد ورد منه في القرآن الكريم كثير ، والقرآن قد نزل بلسان عربي مبين .

وهكذا قول الشاعر الذي استأنس به الشيخ الغزالي :

صَحَّ مِنِّي الْعَزْمُ وَالْدَّهْرُ أَبَى

لا يختلف عن معنى قوله - عز وجل - في سورة الأنبياء الآية (83) : «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» .

فقد قال أيوب : «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» أدبًا مع الله ، وأنتم لا تعرفون إلا أن الله - عز وجل - هو النافع الضار ، ومنكم شيوخ كبار في السن رأوا أن الضار ليس من أسماء الله الحسنى ؛ لأنه نظر إلى مادة (ح س ن) كما ينظر الطفل إلى قطعة الحلوى ،



فينادي أمه : هل من مزيد وإذا لسعته عصاها تألم وقال : لست أُمِّي ولست ابنك ، وإنما لسعته ابتغاء حسنه وآية على حبه لأنها قد تقسو عليه أحيانا لينزجر ، فإذا انزجر بالعصا ساعة عاش سعيداً دهره كله ، فشكر العصا ومن ضربته بها ضرباً غير مؤذٍ ؛ حتى لا يغضب السادة الفقهاء .

وقد تعرض الغزالي لتلك القضية في كتابه «هموم داعية» ، ورأى الدم يغلي في عروقه وقد سأله أحد الشباب : هل في القرآن مجاز ؟

وذكر له أن الله تعالى يقول في سورة يس الآيتين (8 ، 9) : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ وقال - رحمه الله - ترى ، هذه السدود هي السد العالي أو سد الفرات ، وهل الأغلال هنا هي القيود والتي توضع أحياناً في أيدي المجاهدين أم أن هناك مجازاً في القرآن الكريم !

قال الغزالي :

واستأنفت الكلام وأنا أتجه إلى الضحك .

لما سُرَّ المتنبي بشعب بَوَّان ، وراقه الهواء والظل وتسلسل الأشعة بين الأوراق والغصون تصنع دوائر شتى على ثيابه قال :

وَأَلْقَى الشَّرْقَ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَائِرًا تَفَرُّ مِنَ الْبَنَانِ

ثم قال في مجون لا يسوغ :

يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَّانٍ حِصَانِي أَعَنْ هَذَا يُسَارُّ إِلَى الطَّعَانِ

أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَ الْمَعَاصِي وَعَلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الْجَنَانِ

هل وقف حصان المتنبي وسط الحديقة الغناء ، وألقى هذه الخطبة العصماء ؟ أم أن المتنبي أنطق دابته بهذا الشعر ، أظن الحكم على مذهبك أن الحصان هو الذي فسق بهذا الكلام ضد الأنبياء ، ويجب ذبحه .

ثم قال - رحمه الله - : إن هذا الشباب وأمثاله مغدورون ، والوزر يقع على من يوجههم ؛ لأنه لا يفقه أزمت الحياة المعاصرة ، ولا يرتفع إلى مستوى الأحداث ولا يحس آلام أمته ، ولا يخطر بباله ما يبيت للأمة الإسلامية ودينها العظيم من مؤامرات .

إننا نريد ثقافة تجمع ولا تفرق ، وترحم المخطئ ولا تتربص به المهالك ، وتقصد إلى الموضوع ولا تتهارش على الشكل ، ولا أدري لماذا لا نؤثر العمل الصامت المنتج بدل ذلك الجدل العقيم<sup>(1)</sup> .

وأنا أختلف في بعض الأمور مع الشيخ الغزالي ولقبه عندي «العزير الغالي» ، ومنها أن معالجة الجاهل تكون بتعليمه أن هناك مجازاً ، لا بصرفه عن هذا من أجل أن يفقه أزمت الحياة المعاصرة كما يدل عليه ظاهر النص السابق ، فلا تعارض بين فقه أزمت الحياة ومشكلات الأمة ، وبين أن نوجه الشباب إلى العلم بكل شيء لاسيما العلم باللغة .

وأقول : إن سبب غليان الدماء في عروق الشيخ الغزالي هو جهل بعض الشباب بوقوع المجاز في القرآن الكريم .

وفي كلامه - رحمه الله - ما ينطق بهذه الفكرة موضوع الكتاب فقد وصف المتنبي بالمجون الذي لا يسوغ حين أنطق حصانه بقوله :

يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَّانٍ حِصَانِي أَعَنْ هَذَا يُسَارُّ إِلَى الطَّعَانِ

(1) هموم داعية ص 22.

أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَّ الْمَعَاصِي وَعَلِمَكُمْ مُفَارَقَةَ الْجَنَانِ  
فالمجون إنما وصف به المتنبي دون حصانه لأنه هو الذي أنطق حصانه ، كما  
أنطقه عنتره حين قال :

لَوْ كَانَ يَذْرِي مَا الْمَحَاوِرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي  
مع الاختلاف بين الطريقتين ، طريقة أحمد المتنبي وطريقة عنتره فعنتره قال :  
«لو» والمتنبي أنطقه بلا «لو» فالأول القديم متخيل ، والثاني العباسي متخيل كذلك،  
لكنه سامع فهو مغرق في الخيال ، بينما يتصور عنتره ما إليه المآل .

والوصف بالمجون أخف بكثير من الوصف بالكفر والإلحاد الذي قد يكون  
لأدنى ملابسة على حد قول النحاة في الإضافة لأدنى ملابسة .  
وانطلاقاً من قول الغزالي : «إننا نريد ثقافة تجمع ولا تفرق» أقول :

وهذه الثقافة التي تجمع ولا تفرق لابد لها من آليات للتوفيق والتجميع ؛ لأن  
من عاداتنا السيئة أننا نقيم صلحاً بين المتخاصمين كلا صلح ، إنه صلح يصح أن  
نطلق عليه (فض مجالس) .

وذلك بأن نقول للمتخاصمين : وحدوا الله وصلوا على النبي ، وليقبل أحدهما  
رأس صاحبه ولنبدأ بالصغير ، فهكذا الأدب ، وهذا الذي أنتم عليه عيب ، فأنتم  
من أسرة واحدة ، والدم لا يستحيل ماءً بحال .

وما هكذا الصلح عند العقلاء فضلاً عن المسلمين ؛ فلكي يكون صلحنا الذي  
نقيم صلحاً حقيقياً يجب أن نحقق المسألة ونحقق فيها ، ونقف عند المخطئ ،  
ومقدار الخطأ الذي أحدثه ، وما ترتب عليه في حق الطرف الآخر ، ونعطي كل ذي  
حق حقه ، ثم ندعو إلى التقبيل والقبلات .

وقد عرف الناس ذلك في الجاهلية ، وصوره لنا الشاعر زهير في معلقته ، حيث  
قال في الحارث بن عوف وهرم بن سنان :

تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذُبْيَانًا بَعْدَمَا تَقَاتُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمٍ  
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنَّ نُذْرِكَ السَّلْمَ وَاسِعًا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسْلَمٍ

والشاهد أن الرجلين سعيًا في الصلح بين المتقاتلين بالمال ، لا بالتقبيل ، وبذلا  
الديات من أموالهما فكان الصلح .

فما عسى أن ينفع الصلح بين رجل وامرأته بقول المصلح للمرأة : إنه زوجك  
وأبو أولادك ، وإن كان ابن عمها ، زيد على ذلك : وابن عمك .

وهو الذي ظلمها ، وأكل مالها ، وأساء عشرتها ثم إن هذا الذي يجري يتناقض  
واصطفاء القرآن الكريم «حَكَمِينَ» من أجل الإصلاح بين الزوجين فإن أي أحد  
بوسعه أن يقول لمن خيف الشقاق بينهما هذا الكلام المعسول .

ومن ثم كان هذا الكلام غير علاج ، واشترط الحكماء العاقلان الفاحصان ،  
البعيدان في النظر ، المترقبان ما يكون في مستقبل الأيام بين زوجين أو شك رباط  
الزوجية أن ينقطع بينهما ، وجدار الاقتران أن يتصدع فوقهما بل وفوق أولادهما  
وجيرانهما ، والدنيا المعنية بأمرهما !

وهكذا لا يكون الصلح بين عالم دين ومبدع بنحو هذا الكلام المعسول الذي  
قد ينتهي بعبارة :

- من أين أنت ؟

- من كفر الشيخ .

- والله العظيم !



- إي والله العظيم .

- إننا من بلد واحد ، فإن أُمي من كفر الشيخ لكن أبي من أعماق الصعيد .

- كَفَّكَ .

- كَفَّكَ .

إنما يكون الصلح بينهما بالوقوف على مواضع الخلاف ، وبتنبية عالم الدين إلى ما غاب عنه من أحكام فقهية ، غيبها - كما قلت الغضب والتعصب - وما غاب عنه من أسرار البيان وتنبية المبدع إلى مواضع التوقف من نصه التي قد تبدو في ظاهرها عدواناً ، فالله - ﷻ - يقول في سورة الأعراف الآية (55) : ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ .

فهناك اعتداء في الدعاء ، مع أنه مناجاة لرب الأرض والسماء ، وقد نهانا ربنا - تعالى - عن هذا الاعتداء فإذا ثبت أن هناك اعتداء في الدعاء فليس بشاذ أو غريب أن يكون هناك اعتداء في الإبداع وفي غيره .

ومن الاعتداء في الدعاء كما نص على ذلك العلماء ، ومنهم ابن حجر في فتح الباري ارتفاع الصوت بالدعاء ، ومنه الدعاء بمحرم ، كان داعياً يدعو الله أن يوفقه إلى مال حرام أو إلى الجمع بين زوجته وأختها أو عمتها أو خالتها ، فلا يدَّعين مبدع أن ذلك جائز في الإبداع !

لابد أن يكون نصب عيني رجل الدين - وهو بذلك عليم - أننا لا نتصيد للناس ما يخرجهم عن الدين ويصرفهم عنه ، فنحن مأمورون بأن نحمل على الخير ما يحتمل الحمل عليه .

ولو كان في الكلمة ألف معنى للشعر ، ومعنى واحد للخير حملناها عليه باتفاق .

أما أن يكتب كاتب قصة قصيرة أو رواية طويلة لها أبطال ، منهم الأساسي ومنهم الثانوي فننصب من أنفسنا نقاداً نقول إنه يقصد بهذا البطل نبياً أو ملكاً ، ويقصد بهذا فلاناً فهذا ليس من المنهج الإسلامي ولا الأدبي المحض ، وقد دافع الأستاذ الدكتور شوقي ضيف عن أبي العلاء المعري بما قدمناه هنا في هذا الكتاب بشيء من التفصيل .

كما ينبغي أن يكون نصب عيني الأديب المبدع أن الإبداع رسالة حياة ، والكون كله آيات إبداع ، وليس فيه إلا دليل قدرة الله - ﷻ - فما رأينا غصناً تمايل فوق مستوى دفع الريح ، ولا زهرة هجرت حقل الزهور وراحت تسكن بمفردها عليا الجبال ؛ لأن فيها إبداعاً زائداً على أخواتها .

وإنما يمضي الكون البديع على نظام مقدّر ، ولو اختلّ هذا النظام طرفة عين لفسدت السماوات والأرض ، ألا ترى إلى قول الله - ﷻ - في سورة يس الآيات (37 - 40) : ﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمْ أَلَيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ . ورسالة الإبداع لا تعني - وليس من معانيها - إثارة القلق والاضطراب في النفوس ، وإنما من أهم معانيها بث السلام ونشر الفضائل ، والدعوة إلى المثل وتشكيل وجدان إنسان على أطر من الإنسانية المهدبة التي تعلقو على معاني الحيوانية ، والجبلية القاسية التي تجعل منه وحشاً متوحشاً لا إنساناً مؤنساً مستأنساً .

وقد روى البخاري عن النبي - ﷺ - أنه قال : «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئين أكنفا ، الذين يألون ويؤلفون» . ولن يتسنى للإنسان أن يكون ألفاً أو مألوفاً إلا إذا كان لين الجانب حسن العشرة .

وتحت هموم داعية قلب عالم ناقد كتب تحت عنوان : «هبوط عمّ الدين واللغة معاً» .

وقبل أن أناقش ما تحت العنوان أنبه السادة المتحفزين للاعتراض ، وبلغه شيخنا العلامة . أ . د إبراهيم حسن إبراهيم «سنوا أسنانهم للفريسة» أي شحذوها واستعدوا أقول : إن مقصد الشيخ الغزالي في قوله : «هبوط عمّ الدين واللغة معاً» هبوط عم رجال الدين ورجال اللغة فالدين لا يهبط ، وكذا - في اعتقادي - اللغة والدين محفوظ ، وكذا اللغة ، فمن أوفى بما عاهد عليه الله ارتقى ديناً ولغة ، ومن أعرض كان هو الهابط .

فالشيخ لا يقصد هبوط الدين من عليا مكانته وسمو منزلته ولا هبوط اللغة التي تحيا بوجود القرآن ، وهي في كتب الأدب والدواوين والمعاجم المهم أن الشيخ الغزالي استنكر على صحيفة الجزيرة أنها ذكرت اسم نزار قباني واسم المتنبي في سياق واحد .

فالمتنبي الحكيم - هكذا قال الشيخ - يقول في تصوير المجد :

لَا يُذِرْكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ قَطْنٍ      لَمَّا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالٌ  
لَا وَارِثُ جَهْلَتْ يُمْنَاهُ مَا كَسَبَتْ      وَلَا سَأُولُ بَغَيْرِ السَّيْفِ سَأَلٌ

وأما نزار فيقول في رثاء امرأته :

السَّيْفُ يَدْخُلُ لَحْمَ خَاصِرَتِي      وَخَاصِرَةُ الْعَبَّارَةِ

كُلُّ الْحَضَارَاتِ أَنْتِ يَا بَلْقِيسُ      وَالْـدُّنْيَا حَـضَارَةٌ

يقول الشيخ الغزالي : الحق أني استنكرت الجمع بين الحكمة والقيامة ، بين الأدب في الأوج والأدب في القاع بيد أني عدت إلى نفسي أقول : إن ما وقع في ميدان الشعر والنثر صورة مساوية لما وقع في ميدان الدعوة ، أليس مضحكاً أن يدخل داعية في مسجد ، فينظر إلى المنبر ثم يقول : بدعة ، لماذا ؟ لأنه من سبع درجات ، ويرى أن يقف على الثالثة لا يعدوها ، ثم يرى المحراب ، فيقول أيضاً : بدعة ، لماذا ؟ لأنه مجوف في الجدار ...<sup>(1)</sup> .

وأنا أرى أن الشيخ ما وصف شعر قباني بما وصفه به ، وكان بلا شك قاسياً عليه إلا لكلمة واحدة هي كلمة «خاصرة» .

وأنا أرى أن رثاء نزار في علو لا في قاع ، فليست المفردة المستهجنة لحالها إذا ذكرت مفردة مستهجنة كذلك في سياقها ، فالحكم العدل عليها لا يكون بالنظر إليها مفردة ، وإنما يكون بالنظر إليها في تركيبها .

فنزاري يرى أن السيف قد دخل لحم خاصرته بموت أو بقتل زوجته بلقيس ، ودخل كذلك خاصرة العبارة ، فالشاعر في خزي ، وهو يمثل الإنسان العربي في تلك الظروف التي يعيش فيها الذل والقهر والخسارة والانكسار وعبارته كذلك مثله ، فلا فرق بين الإنسان وبين البيان ، الذي يصور حاله ، أو يتعد عن حاله فيصور مجداً لم يبلغه ، وينادي بسلام لم يذق طعمه ، ويمجد عدوه الذي يذبحه .

وقد رحلت بلقيس وهي كل الحضارة ؛ أي رحلت الدنيا برحيلها ، فإن كانت الدنيا حضارة ، وكانت بلقيس كل الحضارات ، فلم يعد من حضارة الحضارات شيء .

(1) هموم داعية ص 33.



وليس بغريب على من عاش بلا حضارة أن تتعري خاصرته ، وأن يعرضها للسيف يخترقها لا يتلقاه برقته كالمتنبي الذي عاش الحضارة العباسية ، والمجد يحيط به من كل مكان وما كتبه الشيخ الغزالي عن إحساسه بشعر المتنبي الرفيع وشعر نزار قباني الوضع - في نظره - يدل على حاسته النقدية التي تتفق معها أو تختلف ، وكم قال كبار من العلماء إذا ورد ذكر نزار : هذا الذي يصف مفاتن المرأة العارية ، وكم قلت إن للرجل شعراً آخر في قضايا الأمة ، والغور في أسرار النفس البشرية .

وقد جعل الشيخ الغزالي تلك الإطلاقة النقدية الأدبية مقدمة إلى الكلام عن مفهوم البدعة لدى بعض صغار الأئمة ، الذين نظروا إلى السنة من حيث الشكل ، ولم ينظروا إليها من حيث المعنى الذي نقل الناس من حياة إلى حياة .

وكما قلت إن الشيخ الغزالي ابتداءً مقدمة كتابه (هموم داعية) بمزج كلامه بالشعر ، وهو كذلك في مقدمة كتابه (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) حيث يقول في صدر الفصل الأول (صور جديدة للأعمال الصالحة) .

كانت الخصومات الكبيرة تحل قديماً بمبارزات فردية ، يلتقي فيها الخصمان ، ولا يزال أحدهما يصاول الآخر حتى يصصره ويدع جثته في العراء ، كما قال شاعر عربي :  
وَاللَّهِ لَوْ لَا قَيْتَنِي خَالِيَا      لَأَبَ سَيِّفَانَا مَعَ الْغَالِبِ

وربما بدأ قادة الجيوش الحرب بهذه المبارزات قبل أن يتزاحف الجمعان ، ويتلاحم العدوان ، وتنجلي المعركة عن فوز هذا أو ذاك ، ثم تسقط بعد ذلك القرى والمدن في أيدي المنتصر<sup>(1)</sup> ويذكر الشيخ الغزالي أن الحظوظ قد تلعب دوراً في الحياة ، ولكنه ثانوي محدود ؛ وذلك في ضوء ذكره قول ابن الرومي :

إِنَّ لِلْحَظِّ كَيْمِيَاءَ إِذَا مَا      مَسَّ كَلْبًا أَحَالَهُ إِنْسَانًا

(1) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ، ص 21.

يَرْفَعُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مَتَى شَاءَ      كَمَا شَاءَ كَائِنًا مَا كَانَا

ثم يقول - رحمه الله - : «أما ارتفاع الأمم وانخفاضها فيرجع إلى قوانين صارمة ، وأقدار جادة ، والمسلمون لم يُظلموا عندما هزموا في سباق الحياة ، إنهم شوهوا معنى التدين فانهزموا بجدارة»<sup>(1)</sup> .

وربما كان بيتا ابن الرومي لهما أثر في هذا الفكر الدعوي وهو الاعتراف بكيمياء الحظ ، التي إذا سالت منها قطرات على كلب صار الكلب إنساناً .

وقد يكتب كاتب آخر غير الغزالي فينبغي وجود الحظ فضلاً عن كيميائه ، فإن قيل له إن ابن الرومي يقول :

إِنَّ لِلْحَظِّ كَيْمِيَاءَ إِذَا مَا      مَسَّ كَلْبًا أَحَالَهُ إِنْسَانًا

أجاب : وهل ابن الرومي نبي معصوم ، أو عالم معتمد في الشريعة ؟

من ابن الرومي ؟ وحدوا الله وصلوا على النبي .

ما ضيع البشرية والأمة الإسلامية إلا مثل ابن الرومي هذا ..

والدنيا أجمل من هذا بكثير ، والدعوة الإسلامية رحبة ، ويمكن حمل الحظ على القدر ، والإيمان بالقدر واجب ، وقد قال ابن الرومي :

يَرْفَعُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مَتَى شَاءَ      كَمَا شَاءَ كَائِنًا مَا كَانَا .

فنسب أمر الرفع والرفعة - ومفهوم المخالفة واضح - إلى الله - وَجَّكَ -

(1) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية.

فهو يتحدث عن الحظ الذي هو النصيب المقدر من قِبَل مَنْ خلق كل شيء  
بقدر - سبحانه وتعالى -

ومن هذا المزج قوله :

والقرن الرابع عشر ينتهي ، ثم يجيء القرن الخامس عشر ، ومشكلات الأمة  
الإسلامية تتعقد ، وتتضاعف :

وَاللَّيَالِي مِنَ الزَّمَانِ حُبَالَى      مُثْقَلَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيَّةٍ  
الأعداء تنمو أطماعهم ، وتربو ضغائنهم ، وتتقارب مسافة الخلف بينهم ،  
والتخلف الحضاري عندنا يثير الأسى<sup>(1)</sup> .

والشيخ الغزالي في هذا الكتاب يقدم فصلاً هو أقرب ما يكون إلى الدرس  
الأدبي منه إلى الوعظ والدعوة وليس بينهما من تناقض ؛ إذ الهدف بيان أثر اللغة  
العربية في حياة الأمة ، وأنها لسان هذا الدين ؛ فقد تحدث عن النهضة الأدبية في  
العصر الحديث ، وذكر من أهل النثر الفني الرافعي وطه حسين ، ومن أهل الشعر  
أحمد شوقي ، واستطاب وصفه بأمير الشعراء قديماً وحديثاً .

وذكر أبا شادي وجماعته ، وراه شاعراً مجيداً .

ويبين الشيخ الغزالي أن هؤلاء جميعاً وإن اختلفت مشاربهم وتنوعت مصادر  
ثقافتهم ، كانوا حريصين على اللغة وأسرارها ، ورأى أنهم لو عاشوا طويلاً لغيروا  
وجه الحياة وأثروا في الأجيال ، فأصبحوا يتحدثون العربية ويقفون عند جمالياتها  
ويدعون ما عليه من هوس وعبث .

(1) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ، ص 55.

وقال في ص 100 :

إذا لمحت عيني ما يسمّى بالشعر المنشور تجاوزته على عجل لأنني من طول ما  
بلوته يئست أن أجده فيه معنى جاداً أو شعوراً صادقاً ، أو فكرة واضحة .

وفي الصفحة نفسها يثبت الشيخ الغزالي صحة ما ذكرته هنا في فصل (الإبداع  
والآخر) من استقامة المعاني وجلالها ، وأثر الصدق في كل نفس ، فقد أعجبه شاعر  
أسباني ، شعر بأن له جذوراً عرقية عربية ، فتغنى بالحضارة التي أينعت في الأندلس  
ثانية قرون ويومئ إلى شعاعاتها التي أضاءت أوربا خلال العصور الوسطى حيث  
يقول :

أَنَا مِثْلُ أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ عَمَرُوا أَرْضَ أَجْدَادِي  
أَنَا مِنْ جِنْسٍ كَانَ قَدِيمًا صَدِيقًا لِلشَّمْسِ  
أَنَا مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَسَبُوا كُلَّ شَيْءٍ وَفَقَدُوا كُلَّ شَيْءٍ  
وَرُوحِي هِيَ رُوحُ الزَّنَابِقِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَسْبَانِيَّةِ

وربط الشيخ الغزالي بين قول هذا الشاعر الأسباني ، وبين قول أبي تمام :

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السُّنُونُ وَأَهْلُهَا      فَكَأَنَّهُمْ أَهْلُهُمْ أَحْلَامُ

وأعجبه كذلك الشاعر الأمريكي الذي يقول :

كَلَّمَا نَظَرْتُ إِلَى اللَّبَنِ مَسْكُوبًا عَلَى الْمَائِدَةِ

وَرَأَيْتُ الْأَكْوَابَ مُلْقَاةً بِغَيْرِ عِنَايَةٍ



تَذَكَّرْتُ كُلَّ الْأَبْقَارِ الَّتِي تَشَقَّى  
وَضِيَاعَ الْأَطْنَانِ مِنَ الْحَشَائِشِ فِي الْمَرَاعِي  
وَمُعَانَاةَ الضُّرُوعِ الَّتِي تَمْتَلِئُ لِتَحْلِبَ  
وَأَشْجَارَ الْعَابَاتِ الَّتِي تُجْتَثُّ لِصِنَاعَةِ الْوَرَقِ  
وَمَلَايِينَ الشُّمُوعِ الَّتِي تَحْتَرِّقُ هَبَاءً  
فَعَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ فِي الْعَالَمِ الْمُتَخَمِّمِ تَنْسَكِبُ الْأَلْبَانُ ضَائِعَةً

وَيُحَاوِلُ مَلَايِينُ الْأَطْفَالِ الْغُرُقَى التِّقَاطُهَا بِقِطْعِ الْإِسْفِنْجِ دُونَ جَدْوَى .

يقول الشيخ الغزالي : هل هذه نظرية مادية ؟ هل الشاعر الأمريكي يتألم للدولارات الضائعة ؟

من الظلم أن نوجه إليه هذه التهمة ، إن الرجل يمقت الإسراف ، وإراقة نِعَمِ الله على الثرى !

تصور اللقمة التي ترمي بها دون اكتراث ، كم سنبله قمح بها ؟ كم بذل الفلاح من جهد حتى حصدها ؟ وكم بذل غيره من جهد حتى أوصلها إلى يدك ؟ أما كان الأولى أن تصان لينتفع بها فقير بدل أن تستقر في صناديق القمامة<sup>(1)</sup> .

والشيخ الغزالي يشجعني بذلك على الفكرة القادمة في الفصل القادم من هذا الكتاب (الأدب الإنساني أدب إسلامي) .

وهو من القلائل الذين عنوا بالنص الشعري على هذا النحو من التحليل والتعقيب والنقد والموازنة ، ومعظم الذين ذكروا الشعر من الدعاة ، إنها ذكره تحلية وطلاء جميلاً واستثناساً لا غير .

(1) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ، ص 102 .

## الفصل الثاني الأدب الإنساني أدب إسلامي

ندرس الأدب في مدارسنا وجامعاتنا وفق عصوره المعهودة الجاهلية وصدر الإسلام ، وعصر بني أمية ، والأدب العباسي وهكذا ، وبات مصطلح الأدب الإسلامي عند كثير من النقاد والأدباء غير محدد تحديداً يسفر عن حقيقة معناه ، وأنا أرى في هذا الفصل أن الأدب الإسلامي لا ينحصر فيما قاله الشعراء المسلمون الذين يمدحون الإسلام ديناً ، ويصورون بعض معانيه ، ويدعون إلى فضائله ، ومكارم الأخلاق وإنما هو كل أدب يدعو إلى الإنسانية ، وكما رأينا دعوة الشاعر الأمريكي الذي أعجب الغزالي إلى عدم الإسراف وما أكثر الذين تحدثوا شعراً ونثراً عن قضايا الإنسان ومشاعره ، وما يعتريه من سعادة ومأس ، وما يؤثر فيه من عناصر الفكر والسلطة والأدب وغيرها .

فلماذا أدعو إلى تلك الفكرة هنا ؟

لقد رأيت بعض الصفات المشتركة بين المسلمين وغيرهم يقرها الإسلام باعتبارها صفة إنسانية ، وإن كانت مجردة في ذاتها ، ولكن يضاف إليها عند المسلمين ما لا يضاف مثله عند غيرهم .

ودليل ذلك قول الله - تعالى - في سورة النساء الآية (104): ﴿وَلَا تَهْنُؤُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِن تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾ .

فالتأمل في هذه الآية الكريمة يدرك أن الألم حالة مشتركة بين المسلمين وغيرهم ، لكن الألم عند المسلمين مقرون بالرجاء ، الرجاء في نصر الله - ﷻ - وتأنيده ، وأجره العظيم ثواباً على ما أصابهم في سبيل الله - ﷻ -

لكن الألم عند الكافرين جراح لا يواسيها الرجاء ، ودموع لا يكفكفها من الغيب ترقب ابتسام ، فهم غرقون في الآلام المشفوعة بانقطاع الصلة بالسماء ، وانقطاع الصلة بالسماء منتهى اليأس .

وقد تأتي الصفة دون زيادة أو نقص ، وذلك كما في قول الله - ﷻ - في سورة التوبة الآية (7): ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا هُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ .

فالاستقامة صفة مشتركة بين المسلمين وغيرهم إذا وجدت ، وكيف نعرف أنهم استقاموا لنا حتى نستقيم لهم ؟

لا بد أن هناك معالم تنتهي إليها تلك الاستقامة وهي من الكلمات الجامعة المانعة ، التي من مقتضياتها أن يحفظوا العهود ، وألا يقرّبونا بأذى ، وأن يحسنوا جيرتنا ، وألا يسيئوا إلى ديننا ، وبناء عليه فلا غدر من جهتنا ، ولا خيانة من قبلنا ، ولا قتال .

والقرآن الكريم فياض بالمعاني والصفات الإنسانية ، ففي سورة النور الآية (39): يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ تَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾ .

فظاهرة السراب التي نعرفها من خلال دراسة علم الفيزياء واحدة في نظر الساري في الصحاري ، يستوي في ذلك المسلم وغيره .

وفي الآية بعدها (40) يقول الله تعالى : ﴿أَوْ كَظُلُمَتِ فِي نَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَتِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرْنَهَا ۚ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ۝﴾ .

فالذي في ظلمات بحر لجي ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، إذا أخرج يده لم يكده يراها ويبقى بعد ذلك أن يَمُنَّ الله عليه بنور إذا أراد وكان مؤمناً ، كقوله تعالى : ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ﴾ . وفي سورة كاملة هي سورة قريش ، يقول الله - ﷻ - : ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۚ إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ۝﴾ .

فالجوع بس الضجيع كما قال النبي - ﷺ - ورواه البخاري ، وهو كذلك عند غير المسلمين .

وقد ذكر ربنا - تعالى - قريشاً بتلك المنة والنعمة ، نعمة الإطعام من جوع ، والأمن من خوف ، فالجوع موجه والشبع نعمة ، والخوف مرعب والأمن نعمة عند جميع الناس فإذا صور ذلك مبدع ، ودعا إلى إنصاف المساكين والمحرومين من



الذين يريدون أن يكون المال دولة بينهم وحدهم دون سواهم كان أدبه إسلامياً ؛ لأن تلك دعوة الإسلام والحق والتحقيق والخبرة والعلم دون الباطل والفوضى والأحلام والدجل ، يقره الإسلام ، كما يقره الأسوياء من غير المسلمين .

وحين قالت ملكة سبأ : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۚ ﴾ .

قال الله - ﷻ - : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ النمل (34) والعقل أعظم الهبات ، فإن كان ما يصدر عنه حقاً كان إسلامياً ، وإن تلوعب به فنطق لسان المقال أو الحال بعكس ذلك كان من سوء حظ صاحبه .

ومن ثم رأينا أبا حذيفة المسلم المجاهد يحزن حين قتل أبوه عتبة بن ربيعة على كفره ، وقال النبي - ﷺ - كما روى ابن هشام في سيرته « والله يا رسول الله ما حزنت لقتله ، وإنما حزنت لأن أبي كان له عقل ، وكانت له حكمة ، وكنت أرجو أن يدعوه عقله إلى الإسلام » .

وقد أقر النبي - ﷺ - بتلك الحقيقة حين رأى عتبة بن ربيعة على جملة يوم بدر ، يوم التقى الجمعان ، وقال : لو أطاعوا صاحب هذا الجمل لفازوا .

وقد ثبت أن عتبة بن ربيعة دعا الناس يوم بدر ، وقبله إلى عدم محاربة محمد - ﷺ - وناقش القوم في أمره مناقشة العاقل الأريب فقال لهم : إنه ما بين صادق وكاذب ، فإن كان كاذباً فليكن قتله على يد غيركم ، وإن كان صادقاً كان له ملك ، وعندئذ تدخلون في ملكه بها لكم عنده من صلة ورحم ، وسلام قد سلف .

أي لا تتعجلوا بالأذى ، واصبروا ، وأراد أن يصرفهم يوم بدر عن القتال ، لكن أبا جهل رشقه بالكلمات ، وقال : إنه لا يود قتال محمد لأن له ابناً عنده

الفصل الثاني : الأدب الإنساني أدب إسلامي  
هو أبو حذيفة - ﷺ - يأكل عند محمد ، واتهمه بالجن ، فأثر ذلك فيه ، وكان ما كان من سوء عاقبته .

والقوة من الصفات المشتركة ، ومن ثم كان فرح النبي - ﷺ - والمسلمين بإسلام عمر - شديداً لتلك الصفة التي ينتقل بها من قوة أذى إلى قوة نفع ، ومن قوة عدوان إلى قوة تعاون على البر والتقوى .

والأمومة والأبوة من المعاني ، وقد رحمها الإسلام أيما رحمة ، ونزل قول الله - ﷻ - من سورة لقمان الآية (15) ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ ۖ ﴾ .

وفي حديث البخاري عن أسماء بنت أبي بكر - ﷺ - أن النبي - ﷺ - أمرها أن تصل أمها المشركة لأنها جاءتها راغبة ، فالمعنى المستدعي للرحمة لا يغيب في هذا الدين . والكرم والبخل من الصفات المعهودة في الناس مسلمين وغير مسلمين ، والكرم ممدوح ، والبخل مذموم .

وقد ضرب المثل في الكرم بحاتم الطائي ، وقيل في ابنه الذي أسعده الله بالإسلام :

بِأَبِيهِ أَقْتَدَىٰ عَدِيٌّ فِي الْكَرَمِ وَمَنْ يُشَابِهْ أَبُهُ فَمَا ظَلَمَ  
ولم ينكر أحد من الناس كرم حاتم ؛ لأنه عاش ومات جاهلياً ، بل نقل المسلمون شعره ودونوه ، ودرسوه ، وحللوه ، وأبرزوا قيمته المعنوية ، وبلاغته العربية ، وفي شواهد نحونا منه الكثير .

والنبي - ﷺ - يقول في شعر أمية بن أبي الصلت أسلم شعر أمية ، وكفر قلبه .

وهذا من أقوى الأدلة على تلك الفكرة ، وهي وصف كل كلام لا يناقض الإسلام ، وما جاء به من فضائل بأنه إسلامي .

ألا ترى إلى قول زهير في معلقته :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ      وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدِ عَمِ

أليس هذا المعنى في الإسلام ، فالغيب لله - ﷻ - وحده .

وإلى قول علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس :

إِذَا غَابَ عَنْهَا الْبَعْلُ لَمْ تُفَشِّ سِرَّهُ      وَتَرْضَى إِيَّابَ الْبَعْلِ حِينَ يَأُوبُ

وفي رائعته التي مطلعها :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَنِ طُرُوبُ      بُعِيدَ الشَّابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيبُ

فالمرأة التي إذا غاب عنها بعلها (زوجها) لم تفش سره هي امرأة أصيلة المعدن، ربيبة المكارم لا ينكر خلقها ، لأنه من شئائل المسلمة .

وقد بايع النبي - ﷺ - النساء ، وعندما وصل إلى «وَأَلَا تَزِينُ» قالت هند

بنت عتبة :

أَوْ تَزِينِي الْحَرَّةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ !؟

فهي ترى أن الزنا ليس من خلق الحرة ، ولم تكن تدري أنه يحتاج إلى بيعة ، فهي بدين وبدون دين لا ترضاه .

وقد علّمها الإسلام أن حفظ الفرج الذي يناسب طبعها الأصيل وحرّيتها الحقيقية تؤجر عليه وتثاب ، وتدخل بذلك في حلف المؤمنين الذين من صفاتهم

أنهم لفروجهم حافظون إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم فإنهم غير ملومين . فمن اعتدى بعد ذلك فأولئك هم العادون .

وعن مجمع البحوث الإسلامية صدر كتاب (الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة) للدكتور محمد كامل الفقي سنة 1986م ، وفيه جهد مشكور بذله مؤلفه في جمع نتاج أدبي لأزهريين أسهموا في النهضة الأدبية الحديثة ، وفيه قال عن المصرفي إنه كان شديد التمكن من رواية الشعر العربي القديم متوثقا من كل ما يرويه مفاخرًا بذلك بين تلامذته ، حتى لقد كان يقول إن أبا تمام اختار من هذه القصيدة هذه الأبيات ، وترك ما هو أجود منها وأكثر روعة<sup>(1)</sup> .

والشاهد في هذه الكلمات أن المصرفي وغيره من علماء عندما روى الشعر ، وليس كل ما روه يفيض بالمعاني الإسلامية ، بل فيه ما فيه مما هو معروف من حديث الخمر والمجون والنساء واللهو والدعوة إلى العدوان والظلم والكبر والتفاخر .

لكنه على الجملة خصوصًا في زمان الاحتجاج مفيد ، وما أكثر الأبيات الواردة في كتب التفسير والحديث من هذا الشعر ، ولكن ورودها إما لتفسير كلمة أو لمعرفة أسلوب ، فهي إسلامية من هذا الجانب ومعروف أن ابن عباس كان يحفظ كثيرًا من الشعر ، وكان يفسر به القرآن الكريم ؛ لأنه ديوان العرب فمن نظر إلى المعاني غير المستقيمة مع الإسلام ، ولفظ من أجلها هذا التراث كان كمن ألقى بحقبة كل ما فيها ذهب وجواهر نفيسة خلا بعض الأشياء التي لا قيمة لها ، أو خلا شيئًا بخسًا كان بوسعه أن يجنبه إياها وأن يفيد منها .

وأذكر أن أحد الدعاة قد تمنى أن يحرق شعر أبي نواس ، وأن يهال عليه التراب - هكذا بلفظه - قلت : وهل تستريح الأمة إذا فعلت ذلك ؟

(1) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية ص 46 .



قال : نعم نعم يا سيدي ، وكرر «نعم» مرتين .

قلت : وما عسى أن تتمنى لمن كان في صدره شيء من شعر أبي نواس ؟

أتحرقه هو الآخر ، وتدفن رماده تحت التراب !

وأذكر في هذا السياق أن أبا حنيفة ناظر أحد الفقهاء في مسألة مَنْ وجد في بيته

أدوات الشراب المحرم ، وهو لا يشرب .

فقال : أجلده .

فقال أبو حنيفة : إذا عليك أن تجلد كل رجل غير محصن (غير متزوج) وترجم

المحصن ؛ لأن معه آلة الزنا .

ومراد أبي حنيفة أن وجود الآلة التي يفعل بها المنكر لا يوجب الحد على مَنْ

وجدت عنده ، ولو كان ذلك مستساغاً لأقمنا الحد على من بيده سكيناً لأنها أداة

قتل ، فلماذا نصرف النظر عن كونها أداة لقطع اللحم والفاكهة .

وكذلك التراث الشعري ، لا نهيل عليه التراب لوجود الخمر فيه والشراب ،

ففيه معنى طريف ، وحكمة مستفادة ، وإضاءة إلى مكونات أسلوب يسير على

منهج العربية ونظامها .

وقد جاء في الكتاب إبداع رفاة الطهطاوي الذي نقل قصيدة (المارسيليز)

التي هي نشيد فرنسا القومي إلى العربية ، فقال :

فَهَيَّا يَا بَنِي الْأَوْطَانِ هَيَّا      فَوَقْتُ فَخَارِكُمْ لَكُمْ تَهَيَّا

أَقِيمُوا الرَّايةَ الْعُظْمَى سَوِيًّا      وَشُنُّوا غَارَةَ الْهَيْجَا مَلِيًّا

عَلَيْكُمْ بِالسَّلَامِ أَيَا أَهَالِي      وَنَظْمِ صُفُوفِكُمْ مِثْلَ اللَّالِي

وَحُوضُوا فِي دِمَاءِ أُولِي الْوَبَالِ      فَهُمْ أَعْدَاؤُكُمْ فِي كُلِّ حَالِ

وَجُودُكُمْ غَدَا فِيكُمْ جَلِيًّا

فَمَاذَا تَبْتَغِي مَنَا الْجُنُودُ      وَهُمْ جَمْعٌ وَأَخْلَاطُ عَيْدُ

كَذَا أَهْلُ الْخِيَانَةِ وَالْوُفُودُ      كَذَاكَ مُلُوكٌ بَغْيٍ لَمْ يَسُودُ

تَعَصَّبُهُمْ لَنَا لَمْ يُجِدْ شَيْئًا<sup>(1)</sup>

والدعوة إلى الدفاع عن الأوطان دعوة إسلامية ، بغض النظر عن المواطنين ،

فإن الدين يقر بالوجدان بين الوطن والإنسان ، وحين أرسل النبي - ﷺ - معاذاً

إلى الجبل وأبا موسى الأشعري - رضي الله عنه - كان مما أمرهما به أن يأخذوا من أهل اليمن؛

أغنيائهم ، صدقة ترد إلى فقرائهم ، أي في الوطن نفسه .

وقد روى البخاري أن أعرابياً سأل رسول الله - ﷺ - من الهجرة ، فقال له :

ويحك ، إن أمرها لشديد ثم سأله ، فقال له :

- هل لك من إبل ؟

قال : نعم .

قال : أتؤدي صدقتها (زكاتها) .

قال : نعم .

(1) الأزهري وأثره في النهضة الأدبية ص 93 .

فأمره أن يعود إلى وطنه ، ليرعى إبله ، وليخرج زكاتها وقال له : اعلم أن الله لن يترك عملك ولو كنت من وراء البحار .

والانتماء إلى الأوطان ، والاعتزاز بها ، وإنشاد آي الإبداع فيها والدعوة إلى نصرتها ، من الإيمان وقد ذكرت ذلك وغيره في كتاب سميت « فقه الأوطان » .

وقد ترجم نشيد فرنسا الشيخ الطهطاوي ، وكتب أناشيد وطنية ، منها :

بُشْرَى لِمِصْرِ سَعْدُهَا بِالْغُرِّ لَاحِ

وَسَعِيدُهَا بِالْفَوْزِ سَاعَدَهُ الْفَلَاحُ

أَبْنَاءُ مِصْرِ نَحْنُ مَوْطِنُنَا أَصِيلُ

حَسْبُ عَرِيقُ زَانَهُ مَجْدُ أَثِيلُ

وَفَخَارُنَا فِي الْكَوْنِ جَلَّ عَنِ الْمَثِيلُ

بُشْرَى لِمِصْرِ

نَحْنُ السُّرَاةُ وَشَأْنُنَا حُبُّ الْوَطَنِ

وَلِشَأْنِنَا السَّامِيُّ نَزَاجِمُ مَنْ قَطَنُ

شَانِي<sup>(1)</sup> حِمَانًا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْفِطَنِ

فَهُوَ الدَّعِيُّ وَعِرْضُهُ شَرَعًا مُبَاخُ

بُشْرَى لِمِصْرِ

وَطَنٌ عَزِيزٌ لَا يَهَانُ وَلَا يُضَامُ

(1) شاني : مبغض .

وَحِمَى تُعَزِّزُ مِنْ عَلَا عَلَيْهِ حَامُ

مَجْدُهُ لَهُ لَا زَالَ يَحْتَرِقُ الْعَمَامُ

عَنْ السُّهَاءِ لِفَخَارِهِ ذَاتِ التَّهَامِ

بُشْرَى لِمِصْرِ

ويقول الدكتور محمد كامل الفقي : « وكان من تجديد الأزهريين في الشعر الحديث أيضًا ما اقتدر عليه المرحوم السيد عبد الله النديم من إخضاع الزجل لمعاني الشعر الرفيعة ، وإبداعه خيالاته الرائعة ، وألوان الأدب في شتى صورها ، واستخدامه الزجل في توجيه الشعب وتقويم الأمة ، ودعوته للنهوض سياسيًا وخلقياً واجتماعياً »<sup>(1)</sup> .

وقد ذكر العلامة في هذا الكتاب طرائف من شعر الأزهريين وإن كنت أرى أن كثيراً منها لا يصل إلى مستوى الإبداع وأنا لا أعرف التعصب ، ولي من الشعر الكثير ولا أدعي أنني مبدع فيه ، فغاية ما يوصف به أنه شعر العلماء وشعر العلماء غير شعر المبدعين .

لأن شعر العلماء موكول إلى علمهم بالأوزان والقوافي ، واللغة والفصاحة ، لكن شعر المبدعين شيء آخر ، لو سئلوا هم أنفسهم عنه لما وفوه حقه ؛ لأنه نابع من كيان مبتلى بالموهبة وأنا أصر على استعمال كلمة « مبتلى » لأن الموهبة مزمنة من القدم ، انتظرت لحظة ميلاد هؤلاء المبدعين فعرفت وطنها

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرُ

(1) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية ص 95 .



ويكفي الأزهريين فخراً أنهم ما ذموا الشعر وما أعرضوا عنه بل شجعوا ،  
وآزروا ، ونصحوا ، ووجهوا ، وكان أزهرينا معقلاً للدارسين المبدعين .

إنما أقول ما أقول في النماذج التي سردها الدكتور محمد كامل الفقي في كتابه  
(الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة) من نحو قول محمد عبد المطلب لقراءة :

فَيَا قَاضِيًا بِالَّذِينَ تَجْرِي فِعَالُهُ      وَيَرْضَاهُ فِي أَحْكَامِهِ الْعُمَرَانِ  
وَيَا نَائِبًا فِي دِينِهِ عَنْ نَبِيِّهِ      نِيَابَةً فَضْلٍ لَا تُشَانُ لَشَانِي  
وَيَا أَيُّهَا الْبَحْرَانِ كَيْفَ افْتَرَقْتُمَا      وَقَدْ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ  
تَقَاسَمْتُمَا مِنَّا قُلُوبًا قَدْ اغْتَدَتْ      بِسُوءِهَاجٍ مِنْ آدَابِكُمْ بَيَانِ

فأنا أرى فيها تطبيقاً لطلاب العروض وتدريباً على الطويل .

» فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

فعولن مفاعيلن فعولن فعولن»

أو مفاعي الذي هو الضرب دون إحالة إلى فعولن .

وقد كنت أقول لطلابي الذين درّست لهم العروض إن التحويل عندي ليس  
بلازم .

لكن ليس فيها - فيما أرى شيئاً من الإبداع ، ومنها أبيات الشيخ علي الليثي  
1896م في سائحة أمريكية :

وَزَائِرَةٌ زَارَتْ عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ      غَرِيْبَةٌ دَارَتْ تَتَحَيَّ كُلَّ مَوْرِدٍ  
تَبَدَّى لَنَا وَقْتُ الظَّهِيرَةِ نُورُهَا      وَنَحْنُ عَلَى رَوْضِ زَهَابٍ بِالتَّوَرِدِ

مِنْ أَلَاءٍ لَمْ يَدْخُلْنَ مِصْرَ حَاجَةٍ      سِوَى رُؤْيَةِ الْآثَارِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ  
هَآ فِي أَمِيرِكَا انْتِسَابٌ وَدَارُهَا      بِسُتْنٍ إِذْ تُغْرِي لِمُسْقَطِ مَوْلِدٍ  
فَحَيَّتْ وَقَالَتْ وَالْمُتَرْجِمُ بَيْنَنَا      لَنَا فَأَذْنُوا نَحْطَى بِرَوْضِكُمْ النَّدِي  
فَقُلْنَا وَنُورُ الْبَشْرِ أَزْهَرَ بَيْنَنَا      عَلَى الرَّحْبِ وَالْإِقْبَالِ مَشْكُورَةَ الْيَدِ

وقد وصفها الدكتور محمد كامل الفقي بالرقعة<sup>(1)</sup> ، وأنا لا أرى فيها من رقعة ،  
بل أرى فيها غلظة ؛ لأنها مجرد كلمات مركبة ، وهي كما قلت تطبيق أو تدريب على  
الطويل من بحور الشعر ، لكنه هنا :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

أي أن العروض مقبوضة والضرب مثلها مقبوض .

### أثر القرآن الكريم في الشعر

هناك فرق بين أن يتأثر المبدع بالقرآن الكريم فصاحة وبلاغة وسيراً على المنوال  
في التراكيب التي تحفظ عليه لغته سليمة عالية ، وأن يقتبس من آياته ما لا يفسد  
بالاقتباس المعنى وبين أن يقتبس منه ما يفسد به المعنى ، كالذي قال :

مَا قَالَ رَبُّكَ وَيْلٌ لِّلَالِئِ سَكِرُوا      بَلْ قَالَ رَبُّكَ وَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَا

فهل قال ربنا - تعالى - : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ وتم الكلام عند هذا؟ أم قال  
ربنا - تعالى - في سورة الماعون الآيتين (4 ، 5) : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ  
عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

(1) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية ص 225 .

ومن الأول الذي لا يضر الاقتباس فيه بالمعنى قول الشاعر :

تَرَى الْمُحِجَّيْنَ صَرَعى فِي دِيَارِهِمْ كَفْتِيَةِ الْكَهْفِ لَا يَذْرُونَ كَمْ لَبِثُوا  
قَوْمٌ إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِّلُوا مَاتُوا فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهْوَوْنَهُ بُعِثُوا<sup>(1)</sup>

فألفاظ الشاعر «صرعى ، وديار ، وفتيه ، والكهف ، ولبثوا ، وماتوا ، وعاد ، وبعثوا» كلها قرآنية .

وقد يقول قائل : ألا ترى إلى قوله :

قَوْمٌ إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِّلُوا مَاتُوا فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهْوَوْنَهُ بُعِثُوا

كيف يتحقق هذا المعنى ، والموت بإذن الله ، والبعث كذلك علمه عند الله ، وأنت ترى الشاعر قد جعل الموت في الهجر ، والبعث في عود الأحبة ؟

فالجواب : إن مثل هذا السائل لا يدري الحقيقة من المجاز والله در أبي تمام حين وُجِّهَ إليه مثل هذا السؤال من قديم ، ولامه السائل على كثرة المجاز في شعره فأرسل إليه يقول :

إن الله - ﷻ - يقول في سورة الإسراء الآية (24) : ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ فائتني من هذا الجناح بريشة .

أي أن الجناح المقصود في الآية منتهى الرحمة والخفض في حضرة الوالدين ، وليس جناح طائر فيه ريش ، يريد أبو تمام أن يقول لهذا الذي لامه إنك لم تحسن قراءة القرآن ، ولو أحسنت لوجدت المجاز فيه ، فكيف تلومني على شيء ورد مثله في الكتاب المتعبد بتلاوته ، المنزل من لدن حكيم عليم على قلب خاتم المرسلين محمد - ﷺ -

وقد قال جرير :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْتَنَّا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا  
يَصْرَعُنْ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حِرَاكَ بِهِ وَهْنٌ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا

فهل ترى القتل عمداً أم شبه عمد ، أم خطأ ؟ وهل تحكم على العيون بالقصاص إن كان قتلها عمداً ، أم بالدية إن لم يكن قتلهم لجرير عمداً ؟

إن جرير يرى الوقوع في العشق قتلاً ، فلما لم تجبه العيون التي في طرفها حور ظل صريعاً لا حراك به .. كل ذلك من باب المجاز ، لا من باب الحقيقة فاطمئن على جرير في زمانه ، فهو برغم القتل يتحرك ، ولكن حركة مع المعاناة أشبه ما تكون بالسكون ، وحياة مع الألم أشبه ما تكون بالعدم ، وإن تميز العدم بالموارة ، فأنت لا تدري إن كان من تحت التراب معذباً أو منعماً ، فإن كان منعماً فهنيئاً له ، وإن كان معذباً فأنت لا ترى منه عذاباً ، ولا يضيف إليك تصور عذابه ألماً إلى آلامك ، وإن ورد لك منه خبر ؛ إذ ليس الخبر كالمعاينة .

والشاعر من قديم يقول :

لَوْ أَسْنَدْتُ مَيِّتًا إِلَى صَدْرِهَا قَامَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِإِ

وكان هذا البيت يسر شيخنا العلامة إبراهيم عبد الرازق البسيوني - رحمه الله - ويبعث في نفسه السرور ، وكان ذلك وهو فوق السبعين من عمره ، وما كان فيه يومئذ من تَصَابٍ ولكنها روح المعاني ، التي تبعث في النفس جديداً من الحياة ، إن قصرت عن إدراكه الأعضاء ، ففيها للقلب الذي شاخت ضلوعه غذاء ، فهو لا يشيخ وإن ضمرت حوله الضلوع ؛ ما دام فيه نبض ونحن ومن قبلنا شيخنا



لا نرى في هذا القول من كفر ولا من ضلال ؛ لأن مقصود الشاعر أن امرأته جميلة فهل ينتظر المتلقي من المبدع أن يقول :

جميلة على وزن «متفعّلن» التي أصلها «مستفعّلن» خَبِثَتْ بحذف الثاني الساكن أو أن وزنها «مفاعِلن» التي أصلها «مفاعيلن» قبضت بحذف خامسها الساكن ، أو أصلها «متفاعِلن» وُقِصَتْ بحذف ثانيها المتحرك .

ثم يكمل على هذا المنوال مراعيًا وزنًا عروضيًا يعرف علله وزحافه ، وما يجوز فيه وما لا يجوز .

وهل تظن أن قول النبي - ﷺ - : «إن من البيان لسحراً» وقد روي ذلك في البخاري وغيره ، هل تظن أن البيان مراعاة أصول الكلام في الضبط ومجارية سنن العربية التي احتوى معظمها كتاب الخصائص لابن جني أم أن المراد بالسحر إبداع المبدع في نسج الكلام بحيث إذا سمعته نزل منك منزلة السحر ، وهذا أحد المعاني التي ذكرها العلماء في شرحه .

إنك إذا تدبرت معنى الجمال لو قال «جميلة» .

فلربما قلت : هذا بالنسبة إليه ، فالقرد في عين أمه غزال .

لكنه قال :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيِّتًا إِلَى صَدْرِهَا قَامَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

بين لك بما لا يدع مجالاً للريبة أن جمالها سر حياة وقد عبر لك بالنكرة حيث قال «ميتًا» ليدل على العموم فأَي ميت ، لو أسندته إلى صدرها قام ، ودبت فيه الحياة ، وسوف يبقى القابر منتظرًا إياه ، وسوف يطول انتظاره ، حتى يخبره الناس بأن من كان منقولاً إليه على آلة حذاء قد عادت إليه الحياة ، فلينصرف فإنه غير آتية الآن .

فقل أنت «الله» أو «آه» وقل «ياه» قل ما شئت من قول .

فإن قلت : لا توجد امرأة في الدنيا تسند ميتًا إلى صدرها فإذا به يقوم ولا ينقل إلى قابر ، فقد عدت إلى الحقيقة والشاعر لن يقول لك ذلك ؛ لأنه إذا قال لك ذلك كان ناظمًا لك منظومة في علم التوحيد ، أو في الوعظ والإرشاد مع أن محمدًا الواعظ يقول كما جاء في ديوان الصبابة ص 304 :

دَعَا لَوْ مَيِّتًا فَلَوْ مَكْمًا مَعَادُ وَقَتْلُ الْعَاشِقِينَ لَهُ مَعَادُ  
وَلَوْ قَتَلَ الْهَوَى أَهْلَ التَّصَابِي لَمَّا مَاتُوا وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا

فهو مع إقراره بأن قتل العاشقين له معاد شأنهم في ذلك شأن غيرهم ؛ إذ لكل أجل كتاب يقول : إن الهوى يقتل ، ولكن لا يميت ، ولو رد القتل إلى حياته لعاد إلى مَنْ قَتَلَهُ ؛ ليقته من جديد وكأنه شهيد يود أن يعود لكي يقتل في سبيل الله ثم يحيا ، ثم يقتل ثم يحيا لما يرى من الكرامة كما جاء في الحديث .

ومحمد الواعظ يقتبس كما ترى «ولو ردوا لعادوا» من قوله - تعالى - في سورة الأنعام الآية (28) : «بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» .

والسؤال الآن :

هل يَعْتَبِرُ محمدُ الواعظ العاشقين كفارًا ؛ لأنه قال : «ولو ردوا لعادوا» ، وهذا جزء من آية تتحدث عن الكفار ؟ والجواب : لا .

والسبب : أن قوله «ولو ردوا لعادوا» مما يمكن أن نجعله مما جرى مجرى المثل ، والمثل ذو قصة أصيلة لكنه يضرب فيما يشبهها ، وبين المشبه والمشبه به فرق ، يعرفه

أصغر طلاب البلاغة في صفوفهم الأولى فأنت عندما تقول : «محمد أسد» تعني أن محمدًا لن يصل إلى مستوى الأسد في البأس والشجاعة ، لكنه ضرب من البيان يريك كيف أن محمدًا شجاع .

وأنت في حاجة إلى مراجعة كتاب مثل «معتك الأقران في إعجاز القرآن» لتقف على أمثال ذلك .

ومن الناس من إذا رد إلى شيء عاد إليه وهو مؤمن ، فلا يؤثر ذلك الاقتباس في الحكم فمراد محمد الواعظ أنهم برغم ما أصابهم من القتل لو ردوا لعادوا من جديد ؛ لأنهم أهل الهوى .

### أبو العلاء المعري بين الإيمان والضلال

وقد اطلع بعض الناس على شعر أبي العلاء ، وتسرع فنسبه إلى الضلال ، وقال إنه يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وهو بذلك يكفره صراحة ؛ لأنه تحدث عن الصلاة فقال :

وَشَاهِدُ خَالِقِي أَنَّ الصَّلَاةَ لَهُ أَجَلٌ عِنْدِي مِنْ دُرٍّ وَيَأْقُوتِ

وقال :

خُذُوا سِيرِي فَهِنَّ لَكُمْ صَلاَحٌ وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمْ وَزَكُّوا

وقال :

وَفُضَّ زَكَاةَ مَالِكَ غَيْرَ آبٍ فَكُلُّ جُمُوعٍ مَالِكَ يَفْضُضَنَّهُ

وَأَعْجَزَ أَهْلَ هَذِي الْأَرْضِ غَاوٍ أَبَانَ الْعَجْزَ عَنْ حَمْسٍ فِرْضَنَّهُ

وَصُمَّ رَمَضَانَ مُخْتَارًا مُطِيعًا إِذَا الْأَقْدَامُ مِنْ قَيْظٍ رَمَضَنَّهُ

وقال :

أَقِيمِ حَمْسِي وَصُومَ الدَّهْرِ أَلْفُهُ وَأَوْصِلِ الذِّكْرَ أَبْكَارًا بِأَصَالِ

فلما ذكر الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ولم يذكر الحج اتهمه من اتهمه بالكفر .

وأقول متسرعا وتسرع ؛ لأن أبا العلاء شأنه في ذلك شأن جميع المسلمين الذين يؤمنون بأن الحج على من استطاع إليه سبيلا .

والرجل لم يذكر صراحة أنه بريء من الحج ، ولم يقل بُني الإسلام على أربع ، وألغى المعلوم من الدين بالضرورة ، ولم يكتب قصيدة عنوانها «أركان الإسلام» ، وكان من الجائز أن يكتب في الصلاة وحدها ، فهل يحكم عليه بأنه عدو للصيام والزكاة والحج ؟

ثم إن الأستاذ شوقي ضيف قد دافع عن أبي العلاء بأن زمانه كان الحج فيه شديداً صعباً ، وكان الناس يهلكون ، وكان قطاع الطرق يسيحون في الأرض ينهبون ويقتلون الحجاج ويأخذون أموالهم ، ومن ثم قال أبو العلاء للنساء العجائز المتعرضات للهلاك :

أَقِيمِي لَا أَعِدُّ الْحَجَّ فَرَضًا عَلَى عُجْزِ النِّسَاءِ وَلَا الْعَذَارَى

ثم ذكر العلامة - رحمه الله - أن أبا العلاء حث على الحج في لزومياته ، حيث قال :

لَقَدْ فُزْتُ إِنْ كُنْتَ تُعْطِي الْجَنَانَ بِمَكَّةَ إِذْ زُرَّتْهَا أَوْ مِنَى<sup>(1)</sup>

(1) فصول في الشعر ونقده ، ص 123 ، دار المعارف ط الثالثة ، سنة 1988 .



وأنا أضيف إلى ما قاله الدكتور شوقي ضيف بأن رسول الله - ﷺ - قال في ضمام بن ثعلبة : دخل الجنة إن صدق أي في التزامه بأركان الإسلام التي قال فيها : لا أزيد على هذا ولا أنقص ، وليس فيها ذكر الحج .

وللعلماء أقوالهم المعتمدة في التعليق على ذلك ، ومنها أن الحج لم يكن قد فرض يومئذ .

أو أنه - ﷺ - علم أنه لا يطيقه خصوصاً أنه قال له في رواية : إن بينه وبينه مضراً ، أي قریش .

والشاهد أن الناظر متسرعاً ملتقطاً من سوء فهمه وضيق أفقه ما يكفر به الناس ، عليه أن يطلع جيداً وأن يستوعب جيداً ما عليه حال القائل الذي يسارع في تكفيره ، ويتسرع بالحكم عليه .

وأزيد على ما ذكره العلامة من سوء الأحوال التي كان يلقاها الحاج ما ذكر في مرآة الحرمين ؛ ففيه أهوال تجعل الولدان شيباً ؛ حيث كانت الطرق غير معدة ، ولا إنارة ولا إضاءة ، ولا أمن ولا شرطة وأن أحد الفلاحين من الأعيان قال لأحد قطاع الطرق في الحج : لي عشرة فدادين بمصر ، أكتبها لك ودعني لأعود إلى أولادي حياً ، وغير ذلك من القصص ولو أن أبا العلاء المعري في زماننا كتب الله له الحج ، فرأى الدنيا وقد أضاعت ، والطيران وقد سبح في الآفاق ، وتنظيم الرحلات ، والفنادق ، والخدمات التي تقدمها مشكورة حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز - حفظه الله - ومن قبله فهد العروبة - رحمه الله - وما حدث من توسيع للحرمين بمكة والمدينة لتغني بالحج ، ودعا إليه كل مسلم ومسلمة خصوصاً إذا علم أن من المسلمين من هو قادر على أداء الفريضة لكنه حرم نفسه ، وحال دون ثواب الله العظيم بجهله وتكاسله .

ولربما نظم الشعر في أولئك الذين يحجون في كل عام ، ويكررون مع ذلك العمرة . وفي المسلمين من ينامون على جوع ، ويعيشون على ذل ، والحج مرة واحدة في العمر . وقد سئل النبي - ﷺ - :

أفي كل عام يا رسول الله ؟

فسكت - ﷺ -

فلما كرر السائل سؤاله قال :

لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم .

وقال أبو العلاء :

هَنْتِ الْحَنِيفَةَ وَالنَّصَارَى مَا اهْتَدَتْ وَيَهُودُ حَارَتْ وَالْمَجُوسُ مُضَلَّلَةٌ  
اِثْنَانِ أَهْلُ الْأَرْضِ ذُو عَقْلٍ بِلَا دِينٍ وَآخِرُ دِينٍ لَا عَقْلَ لَهُ

فاتهمه بعض الناس بأنه ينكر الديانات ، فهلا اطلعوا على قول شوقي ضيف : «وواضح أنه لا يهاجم الديانات نفسها وإنما يهاجم أصحابها ، وفرق بين أن يهاجم الإسلام والمسيحية واليهودية ، وبين أن يهاجم المسلمين والنصارى واليهود وأن يثبت عليهم في عصره نقص عقولهم ، فقد اختلف أصحاب كل دين ، وتوزعوا فرقاً كبيرة ، ويكفي أن نعرف أن المذهب الإسماعيلي الفاطمي كان يسيطر في عصره على مصر والشام مع ما في أصوله وفروعه من انحراف ، وقد هاجمه وهاجم الفرق الشيعية في اللزوميات ورسالة الغفران ، كما هاجم كثيراً من الفرق الأخرى ، مثل النصيرية القائلين بالتناسخ والصوفية القائلين بالحللول ، فإذا هتف بأن من يتبعون أمثال هذه المذاهب لا عقول لهم لم يكن معنى ذلك أنه يهاجم الإسلام ، إنما يهاجم

المسلمين بعصره ، وبالمثل النصارى واليهود « ، ويؤكد ذلك شوقي ضيف بما ذكره أبو العلاء من قوله :

دِينٌ وَكُفْرٌ وَأَنْبَاءٌ تَقْصُّ وَفُرْ قَانَ يَنْصُ وَتَوْرَاةٌ وَإِنْجِيلٌ  
فِي كُلِّ جِيلٍ أَبَاطِيلٌ يُدَارُ بِهَا فَهَلْ تَفَرَّدَ يَوْمًا بِالْهُدَى جِيلٌ

ثم قال : « فقد رويت «يدار» في البيت الثاني بقلب الراء نونًا أي يدان ، وهو تصحيف مقصود ، وما الأباطيل إلا ما ذكره في البيت قبله من الكفر والأساطير التي تقص »<sup>(1)</sup>.

والدليل على أن أبا العلاء كان يقصد أصحاب الشرائع قوله :

عَدَا أَهْلُ الشَّرَائِعِ فِي اخْتِلَافٍ تَقْصُّ بِهِ الْمَضَاجِعُ وَالْمَهُودُ  
فَقَدْ كَذَبَتْ عَلَى عِيسَى النَّصَارَى كَمَا كَذَبَتْ عَلَى مُوسَى الْيَهُودُ  
وَلَمْ تَسْتَحْدِثِ الْأَيَّامُ خُلُقًا وَلَا حَالَتْ مِنَ الزَّمَنِ الْعُهُودُ

يقول د . شوقي ضيف : وهو يريد بالبيت الأخير الكذب والوضع للذين دخلا على الحديث النبوي ، وهو ما لا ينكره أحد قديمًا ولا حديثًا ، ومن أجله ألفت الصحاح ، ووضع علم مصطلح الحديث ولعل في ذلك ما يشهد بوضوح بأن أبا العلاء لم يهاجم الديانات وإنما كان يهاجم أصحابها .

وهو في ذلك يتابع القرآن الكريم في مهاجمته أهل الكتاب وخاصة اليهود .

ويعدد الإسفراييني المعاصر لأبي العلاء الفرق الإسلامية ويحصى منها ثلاثًا وسبعين فرقة ويقول : واحدة منها ناجية والباقيون في النار ، وفي ذلك مبالغة

(1) فصول في الشعر ونقده ، ص 132.

لا شك ، ولكنها تدل على ما وراءها من الاختلافات الهائلة التي حدثت في الإسلام ، والتي دفعت أبا العلاء إلى مهاجمة أصحابها ، وأصحاب الشرائع الأخرى الذين كانوا يكثر من تكفير بعضهم بعضًا حتى عمت الحيرة ، والتبس الأمر»<sup>(1)</sup>.

وحين قال أبو العلاء :

تَلَوْا بَاطِلًا وَجَلَّوْا صَارِمًا وَقَالُوا صَدَقْنَا فَقُلْنَا نَعَمْ  
اتهمه بعض الناس كذلك بأنه يعرض بالإسلام .

ويدافع شوقي ضيف فيقول : «إنه لم يكن يقصد به إلى التعريض بالإسلام ، كما ظن بعض الباحثين ، إنما كان يقصد به إلى أصحاب الحكم والسلطان في عصره الذين حملوا الناس على عقائدهم الفاسدة مصلتين عليهم سيوفهم»<sup>(2)</sup>.

وحين قال أبو العلاء :

وَلَسْتُ أَقُولُ إِنَّ الشُّهْبَ يَوْمًا لِيَعِثَ مُحَمَّدٌ جُعِلَتْ رُجُومًا

اتهمه بعضهم بأنه يعرض بالنبي - ﷺ - والحق أنه كان يقول بقول من رأى أنها كانت رجومًا للشياطين قبل بعثته - ﷺ - من العلماء ودليلهم على ذلك قول الله - تعالى - في سورة الملك الآية (5) : «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ» حيث إنها خلت من تخصيص ذلك ببعثته ﷺ . وجاءت عامة .

(1) فصول في الشعر ، ص 133.

(2) فصول في الشعر ، ص 134.



وحين قال :

صَحِـكْنَا وَكَانَ الضَّحْـكُ مِنَّا سَفَاهَةً      وَحَقُّ لِسْكَانِ الْبَسِيطَةِ أَنْ يَبْكُوا  
تُحْطَمُنَا الْآيَامُ حَتَّى كَانْنَا      زُجَاجٌ وَلَكِنْ لَا يُعَادِلُهُ سَبْكُ  
اتهمه مثل هؤلاء بأنه ينكر البعث والحساب ، والرجل إنما يقصد ذلك في  
الدنيا ، كما قال جرير :

قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِنَ قَتْلَانَا

أي أننا تحطمتنا الأيام بما فيها من آلام وخطوب فننكسر كما ينكسر الزجاج ،  
ولا عود لها بعد انكسارها وهذا لا ينكره أحد .

وكيف له أن ينكر البعث والحساب وهو يقول :

وَهِيَ الْحَيَاةُ فَعَفَةٌ أَوْ فِتْنَةٌ      ثُمَّ الْمَمَاتُ فَجَنَّةٌ أَوْ نَارٌ

ولأن هناك من لا يكتفي باصطياد مَنْ يثبت به فكرته ويتعدى به على بريء ،  
فقد اصطنع أناس أبياتاً نسبوها إليه ، تفيد صراحة لا ضمناً أن الرجل منكر  
لأساسيات في الدين ، ومن ذلك نسبتهم إليه أنه قال :

وَلَا تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسُلِ حَقًّا      وَلَكِنْ قَوْلُ زُورٍ سَطَرُوهُ  
وَكَانَ النَّاسُ فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ      فَجَاءُوا بِالْمُحَالِ فَكَدَّرُوهُ

ومن ذلك :

فِي اللَّادِيقَةِ فِتْنَةٌ      مَا بَيْنَ أَحْمَدَ وَالْمَسِيحِ  
هَذَا بَنَاقُوسٍ يَدُ      قَدْ وَدَّ بِمِثْلِ نَفْسِهِ يَصِيحُ

كُلُّ يُعَزِّزُ دِينَهُ      يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الصَّحِيحُ  
ومنه :

رَيْبُ الزَّمَانِ مُفَرِّقُ الْإِلْفَيْنِ      فَاحْكُمْ إلهي بَيْنَ ذَاكَ وَبَيْنِي  
أَمْهَيْتَ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ تَعْمُداً      وَبَعَثْتَ أَنْتَ لِقَتْلِهَا مَلَكَيْنِ  
وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهَا مَعَادَاً ثَانِيَا      مَا كَانَ أَغْنَاهَا عَنِ الْحَالَيْنِ

والصحيح الذي ذكره الدكتور شوقي ضيف أن ذلك ليس من شعره<sup>(1)</sup> .

وقد مدح أبو العلاء رسول الله - ﷺ - فقال :

دَعَاكُمْ إِلَى خَيْرِ الْأُمُورِ مُحَمَّدٌ      وَلَيْسَ الْعَوَالِي فِي الْقَنَا كَالسَّوَابِلِ  
فَصَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا ذَرَّ شَارِقٌ      وَمَا فَتَّ مِسْكَاً ذِكْرُهُ فِي الْمَحَافِلِ  
وقال في البعث :

مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ تُدْعَى بِرَيْثِهِ      مِنْ تُرْبِهِمْ فَيَعُودُوا كَالَّذِي كَانُوا

وأذكر في هذا السياق قصة أبي محجن الثقفي - رضي الله عنه - وكان يشرب الخمر ،  
وحده عليها عمر ، ونفاه إلى جزيرة في البحر ، وأرسل معه رجلاً ، ففر منه إلى سعد  
بن أبي وقاص ، فحبسه سعد بأمر عمر ، فلما دارت الحرب أنشد :

كَفَى حَزْناً أَنْ تَلْتَقِيَ الْحَيْلُ بِالْقَنَا      وَأَتْرَكَ مَشْدُوداً عَلِيَّ وَثَاقِيَا  
إِذَا قُمْتُ عَنِّي الْحَدِيدُ وَغُلَّقْتُ      مَصَارِعُ دُونِي قَدْ تُصِمُّ الْمَنَادِيَا

(1) فصول في الشعر ، ص 135 .

وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ  
فَقَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَالِيَا  
وَقَدْ شَفَّ جِسْمِي أَنَّنِي كُلَّ شَارِقٍ  
أَعَالِجُ كَبَلًا مُضْمَمًا قَدْ بَدَانِيَا  
فَلِلَّهِ دَرِّي يَوْمَ أَتْرَكَ مُوثَقًا  
وَيَذْهَلُ عَنِّي أُسْرَتِي وَرَجَالِيَا  
حُسْبِنَا عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ وَقَدْ بَدَتْ  
وَأَعْمَالُ غَيْرِي يَوْمَ ذَاكَ الْعَوَالِيَا  
فَلِلَّهِ عَهْدٌ لَا أَحِيسُ بَعْهَدِهِ  
لَكِنَّ فُرَجْتَ أَلَّا أَزُورَ الْحَوَانِيَا

وقال لامرأة سعد أن تخلي سبيله ، وأن تحمله على فرس ، وقال لها : إن فعلت لأكونن أول من يرجع إليك إلا أن يقتل ، ففعلت ، وركب فرسًا لسعد وحمل السلاح ، وقاتل قتالًا شديدًا حتى قال سعد لولا أني تركت أبا محجن في القيود لظننت أنها بعض شمائل أبي محجن .

فقالت له امرأته : إنه أبو محجن ، فدعا به وقد عاد إلى محبسه وقال له : والله لا نجلدك على الخمر أبدًا فقال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها أبدًا قد كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم !!

والشاهد أن ابنًا له دخل على معاوية ، فقال له : « أبوك القاتل :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِي إِلَى جَنْبِ كَرَمَةٍ تَرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرْوُهَا  
وَلَا تَدْفِنَنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَاتُ أَنْ لَا أَدُوقُهَا

فقال ولده :

لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره ، فقال :

وما ذاك ؟

قال : قوله :

لَا تَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ  
وَسَائِلِ النَّاسِ عَنْ حَزْمِي وَعَنْ خُلُقِي  
الْقَوْمُ أَعْلَمُ أَنِّي مِنْ سُرَاتِهِمْ  
إِذَا تَطْيِشُ يَدُ الرِّعْدِ الْفَرْقِ  
قَدْ أَرْكَبُ الْهَوَلَ مَسْدُولاَ عَسَاكِرُهُ  
وَأَكْتُمُ السَّرَّ فِيهِ ضَرْبَةُ الْعُنُقِ  
أَعْطِي السَّنَانَ غَدَاةَ الرَّوْعِ حِصَّتَهُ  
وَحَامِلُ الرُّمَحِ أَرْوِيهِ مِنَ الْعَلَقِ

فقال معاوية : لئن كنا أسأنا القول لنحسنن لك الصغد ، وأجزل جائزته ، وقال : إذا ولدت النساء فلتدن مثلك <sup>(1)</sup> .

ونحن في حاجة إلى أن نكون مثل ابن أبي محجن ؛ نعرض عن قبيح ونذكر حسناً نقصده متى وجدناه ، فهذا ضياء الإسلام ، فالرجل قد أفضى إلى ما قدم ، وحسابه على الله الرحمن الرحيم .

وأما قوله :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِي إِلَى جَنْبِ كَرَمَةٍ تَرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرْوُهَا  
وقوله :

لَا تَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ  
وَسَائِلِ النَّاسِ عَنْ حَزْمِي وَعَنْ خُلُقِي  
إلى آخر ما ذكرناه ، فأبي القول نذكره إذا ذكرنا أبا محجن .

ثم إن أبا محجن كان يستعين به أبو بكر - رضي الله عنه - وقد أثبت ما أثبت وأبلى ما أبلى في القادسية فنفع الله به المسلمين .

(1) الاستيعاب ، 4 / 312 .



وإن كان يشرب الخمر ، وقد تاب الله - تعالى - عليه ، ونحن أمام جنود بإمكاننا أن نستعين بها ، وأن نستثمرها في خدمة الدين .

فما بالنظر لها من حسابنا ، ونرميها بما نرميها به من معاداة الدين فضلاً عن الخروج منه ، ولدينا متسع في التراث يجعلنا نعيد النظر في هذه القضية ؛ لأنه قد نتج عنها عزوف كثير من المثقفين عن رجال هم الأعلام في علوم الدين ، وتباعد المسافات وتباعدها يظل يقتل بعضنا بعضاً ، وتباعدها يكون التناهي لا التداني .

إنني في حاجة إلى أن أستمع إلى المثقفين ، وأن يستمعوا إليّ ، ولن يتم ذلك بالمباعدة والنفور ، وإنما يتم بالقرب ، وبإحداث السرور .

### فرق بين التأويلين كبير

يقول ابن الفارض :

سَائِقُ الْأَظْعَانِ يَطْوِي الْبَيْدَ طَيِّ مُنْعِمًا عَرَجَ عَلَى كُتْبَانَ طَيِّ  
وقد ذهب بعض الناس إلى أنه يرمز بسائق الأظعان إلى الله - ﷻ -  
والأظعان : الناس .

وكثبان طي : كناية عن المقامات المحمدية .

وكانه يطلب من الله - تعالى - أن يوصله إلى تلك المقامات المحمدية كما يوصل جميع المؤمنين .

ويقول الدكتور شوقي ضيف : وواضح أن ألفاظ البيت لا تدل على هذه المعاني الرمزية .

وظاهر البيت أن ابن الفارض يخاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طي على حافة نجد والحجاز ليتمهل قليلاً حتى يُحيي مَنْ يمر بهم استرواحاً منه للحي العطر وأهله ، وهو بذلك يريد أن يعبر عن حنينه المستعر في قلبه للحجاز مهبط فتوحه .

ولم ينف عنه شوقي ضيف استعمال الرمز ، ولكنه نفى عنه أن يكون رمزه حرفياً ، وأنه تحوّل بشعره وألفاظه إلى ما يشبه الألغاز<sup>(1)</sup> .

وإن كنت أخالف الدكتور شوقي ضيف فيما يراه في قول ابن الفارض :

يَا لَأَيْمًا لَأَمْنِي فِي حُبِّهِمْ سَفْهًا كُفَّ الْمَلَامَ فَلَوْ أَحْبَبْتَ لَمْ تَلْمِ  
وَحُرْمَةُ الْوَصْلِ وَالْوُدِّ الْعَتِيقِ وَبِالْ عَهْدِ الْوَيْثِقِ وَمَا قَدْ كَانَ فِي الْقِدَمِ  
مَا حِلْتُ عَنْهُمْ بِسُلْوَانٍ وَلَا بَدَلٍ لَيْسَ التَّبَدُّلُ وَالسُّلْوَانُ مِنْ شَيْمِي

فقد رأى - رحمه الله - أن ذلك في الحب الإلهي ؛ وذلك لقول الشاعر ابن الفارض :  
« وما قد كان في القدم » ، فإني متى اتفقنا أنا والدكتور شوقي على تجنب الرمزية والتعويل على الظاهر من الألفاظ أرى ذلك غزلاً ، ولا صلة له بعهد المحبة الإلهية ،  
فقوله « ما قد كان في القدم » يرجع إلى علم الله القديم الذي علق به ابن الفارض وغيره ، وظاهر الأبيات ينفي ما أثبتته الدكتور شوقي ، فإن أحداً لا يلوم أحداً على حب الله ورسوله ، وقوله « ولو أحببت لم تلم » دليل على أنه الحب المعروف للمرأة .

وليس بالضرورة أن تكون أجنبية ، فقد تكون زوجته ، وليس بالضرورة أن يكون هناك حب أصلاً ، وأهل الأدب والنقد يعرفون أن المقدمات الطللية والبدايات الغزلية ما هي إلا تقليد معروف لإثارة النفوس وجذب الانتباه .

وما قاله ابن الفارض قاله البوصيري ، وعلى الوزن والقافية نفسيهما :

أَمِنْ تَذَكُّرِ حَيْرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَرَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ  
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاظِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمٍ  
فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَّتَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهْمِ

(1) فصول في الشعر ، ص 210 .

أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحَبَّ مُنْكَتِمٌ  
لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرْفَقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ  
فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَمَا شَهِدْتَ  
مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٍ  
وَلَا أَرَقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ  
بِهِ عَلَيْكَ عُذُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ

وقال من بعده شوقي :

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ  
رَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنِي جُودُورٍ أَسَدًا  
لَمَّا رَنَا حَدَّثْتَنِي النَّفْسُ قَائِلَةً  
جَحَدْتُهَا وَكَتَمْتُ السَّهْمَ فِي كَبَدِي  
يَا لَائِمِي فِي هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدَرٌ  
لَوْ شَفَكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلْمِ  
أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ  
يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَذْرِكُ سَاكِنَ الْأَجَمِ  
يَا وَيْحَ جَنْبِكَ بِالسَّهْمِ الْمَصِيبِ رُمِي  
جُرْحُ الْأَجَبَةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمٍ  
لَوْ شَفَكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلْمِ

والبيت الأخير هو عين ما قاله ابن الفارض فهل كان شوقي ومن قبله البوصيري يقصد إلى حب الذات الإلهية !

وأقول للدكتور شوقي مخاطبًا مدرسته وهو عندي عزيزٌ ، إذا كان الحب المراد هو حب الذات الإلهية فهل يصرف ابن الفارض عنه الناس أم يدعوهم إليه ، ألا ترى إلى قوله :

هُوَ الْحَبُّ فَاسْلَمْ بِالْحَشَا مَا الْهَوَى سَهْلٌ  
وَعِشْ خَالِيًّا فَالْحَبُّ رَاحَتُهُ عَنَّا  
وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيدًا فَمِتْ بِهِ  
فَمَنْ لَمْ يَمِتْ فِي حُبِّهِ لَمْ يَعِشْ بِهِ  
فَمَا اخْتَارَهُ مُضْنَى بِهِ وَلَهُ عَقْلٌ  
وَأَوَّلُهُ سُقْمٌ وَآخِرُهُ فَتْكٌ  
شَهِيدًا وَإِلَّا فَالْغَرَامُ لَهُ أَهْلٌ  
وَدُونَ اجْتِنَاءِ النَّحْلِ مَا جَنَّتِ النَّحْلُ

فهذا نداء منه إلى من لم يعرف الحب ، يقول له اسلم بالحشا منه ، فما الهوى سهل ، وعش خاليا فالحب راحته عناء ، وأوله مرض وعلل ، وآخره قتل ، ويؤكد في البيت الأخير أن على المحب أن يتحمل ما يتحملة الذي يجتني عسل النحل من صبر على لسعه ؛ (ودون اجتناء النحل ما جنت النحل) ثم إن هناك إشكالية في الرمزية ، تجمعنا نفر من الرمضاء إلى النار عن طريق التأويل البعيد ؛ وذلك عندما يقول ابن الفارض :

قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِأَنَّكَ مُتْلَفِي  
لَمْ أَقْضِ حَقَّ هَوَاكَ إِنْ كُنْتُ الَّذِي  
مَالِي سِوَى رُوحِي وَبَاذِلُ نَفْسِهِ  
وَالْمُطْلُ مِنْكَ لَدَيَّ إِنْ عَزَّ الْوَفَا  
رُوحِي فَدَاكَ عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَعْرِفْ  
لَمْ أَقْضِ فِيهِ أَسَى وَمِثْلِي مَنْ يَفِي  
فِي حُبٍّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفٍ  
يَخْلُو كَوْضِلٍ مِنْ حَبِيبٍ مُسْعِفٍ

فكيف يخاطب الله - تعالى - بقوله « عرفت أم لم تعرف » ولذا بدا جواب الدكتور شوقي ضعيفًا ، ليس فيه شيء من إقناع ، حين قال : « وكأننا بلغ طموحه إلى هذا الفداء الذروة بلوغًا جعله يقول لربه « عرفت أم لم تعرف » وهو لا يقص مدلول التعبير بدقة ، إنما يقصد تصوير حبه المضطرم في فؤاده ، وأنه لن يستريح حتى يبذل لمحبه روحه » <sup>(1)</sup> .

فهذا كلام غير مقبول ، لأن المحب إذا بلغ الذروة في حبه فقد عرف من محبوبه من لم يعرفه غيره .

وإذا كانت هناك صفة مشتركة في الحبيب بين من يحبونه تعمقت تلك الصفة عند من يحبه أكثر من غيره .

(1) فصول في الشعر ص 218 .



ألا ترى أن رسول الله - ﷺ - كان أشدنا حبا لله بلا شك ، ومع ذلك روى البخاري وغيره قوله « أنا أخشاكم لله وأتقاكم » .

وليس من الخشية ولا من التقوى أن يخاطبه وهو أعظم خلقه حبا له بنحو قول ابن الفارض « عرفت أم لم تعرف » .

إنما يقبل الرمز في نحو قوله :

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً      سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ  
لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهِيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا      هَلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو إِذَا مَزَجَتْ نَجْمُ  
وَإِنْ خَطَرَتْ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ      لَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحَلَ الْهَمُّ  
وَلَوْ نَضَحُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ      لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الْجِسْمُ

فهو أولى في هذا المقام من قول القائل :

لَوْ أَسْنَدْتُ مَيِّتًا إِلَى صَدْرِهَا      قَامَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

فتلك مدامة روحية ، والسُّكْرُ فيها بلوغ منتهى الحب والذوبان وهي خمر غير الخمر التي مصدرها الكرم ؛ وبهذا فالسُّكْرُ الناتج عنها عين العقل ، لا السُّكْرُ الذي يذهب به ، كأنها البدر ، وهي شمس في كف هلال ، وقد يبدو في المنظر نجم ، ومجرد خطرهما على الخاطر ينعش المهموم فإذا به في فرح لا في غيوم وإذا بقتيل الدنيا المحزون الذي يبدو وهو مهموم حي منتعش ، فلا الدنيا ولا ما فيها يساوي شيئا في هذا الحب الذي عبر عنه أحد الصحابة بقوله : لقد أحببت الله حبا هوّن عندي كل مصيبة .

والذي قالت فيه الأنصارية للنبي - ﷺ - يوم أحد وقد مات ابنها وزوجها وأبوها « كل مصيبة بعدك جلل » ، وذلك حين رآته بعينها واطمأنت على سلامته .

ومن ثم قال ابن الفارض في وصف تلك المدامة :

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا      خَيْرٌ أَجْلُ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ  
صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوَى      وَنُورٌ وَلَا نَارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمُ  
تَقَدَّمَ كُلَّ الْكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا      قَدِيمًا وَلَا شَكْلٌ هُنَاكَ وَلَا رَسْمُ  
وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بِحَيْثُ تَمَازَجَا أَتَّ      حَادَاً وَلَا جَرْمٌ تَخَلَّلَهُ جَرْمُ  
وَلَا قَبْلَهَا قَبْلٌ وَلَا بَعْدَ بَعْدِهَا      وَقَبْلِيَّةُ الْأَبْعَادِ فَهِيَ لَهَا حَتْمُ

### الإبداع والآخر

في خاتمة مقدمة كتابه « هكذا كتبوا » الذي نشرته الدار المصرية للتأليف والترجمة في مايو 1985 يقول الأستاذ فؤاد دواره ص 6 : وهناك بعد ذلك سؤال لا بد من إثارته ، وهو لماذا يشغل ناقد عربي نفسه بالكتابة عن أعلام الأدب الغربي في حين أن أدبنا العربي ما زال أحوج إلى الدرس والتقييم ؟!

والإجابة ليست عسيرة على كل حال ، فأدبنا العربي الحديث وهو المجال الذي كَرَسْتُ له كل جهودي مهما قيل في أصالته وفي امتداد جذوره إلى أدبنا العربي القديم ، فإنه في رأي الدارسين المعتمدين متأثر إلى حد بعيد بالأدب الغربي قديمه وحديثه ، وعلى ذلك تصبح دراسة هذا الأدب الغربي وأعلامه ضرورة منهجية لفهم أدبنا الحديث ، وتقييمه على أسس علمية سليمة فضلاً عما في هذه الدراسة من إثراء للنفس ، وتدريب لها على تذوق الجيد من الأعمال الأدبية أيا كان مصدرها .

وقد قدّم الأستاذ السؤال والجواب ، ولا مجال لمزيد ؛ فالفكرة واضحة ، وهي أن أدبنا العربي متأثر بالغربي ، وأنبه هنا فقط إلى قوله « ضرورة منهجية » فما رأيتم

شيئاً ذا بال إلا والمنهج فيه ضرورة ، وهل المنهج إلا قيد ، يا من تريدون كل شيء بلا قيد!

وقصدي في هذا الفصل أن أصحب الأستاذ فؤاد دواردة على منهج الأدب الإسلامي النابع من غير المسلمين ؛ أي أننا لو قدمناه إلى المتلقي المسلم دون ذكر المبدع؛ اسمه وديانته ووطنه ، لظن أنه للأديب المبدع فلان المسلم العربي النشأة والمشرّب .

وأعني بذلك المبادئ الإنسانية التي هي قيمة مشتركة بين الناس مسلمين وغير مسلمين وأبدأ برسالة كتبها جوجول الروسي لخاله في صباه ؛ حيث قال : « إن العرق البارد ليملاً وجهي حينما أفكر في أي قد أندثر تحت التراب دون أن تتاح لي الفرصة كي أقوم بعمل بارز يقرن باسمي ، فإنه لأمر مخيف حقاً أن يعيش الإنسان في هذه الحياة الدنيا دون أن يأتي عملاً يبرر وجوده فيها »<sup>(1)</sup>.

وأقول : أية مخالفة بين معنى هذه الرسالة وما يدعو إليه الإسلام من العمل الدائم ، والسعي إلى البطولات التي قيل فيها : « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم » ولن يعرف هذا المعنى من حال الصدود بينه وبين قراءة هذا النص ؛ ذلك الصدود الذي رسمه الوهم بأن كل شيء غير إسلامي كفر وضلال ، وأن الثقافة الحقيقية هي التي كانت وليدة الموطن والمشرّب ، وأما القادم من الثقافات الأخرى فهو بدعة وضلال مبين .

ومع أن نهاية نيكولاي فاسيليفتش جوجول كانت مأساوية إلا أنها تذكرنا بالمر الذي يلاقه المبدع من نقد لاذع غير موضوعي ، يصيبه بالإحباط ،

(1) هكذا كتبوا ص 15.

حتى يتوسد التراب وإن كان قد كتب على قبره « سأظل أضحك ضحكتي المريرة » .

ولكل مبدع في حياة جوجول درس وعبرة ؛ حيث إنه كتب فيما لا علم له به بأسلوب العالم الخبير فكشف بذلك عن جهله ، وخسر بكتابه « رسائل لأصدقائي » الكثير من أصدقائه ومعجبيه ، وتعرض لهجمات قاسية من النقاد .

وهذه القسوة قد طارده فاحرق الجزء الثاني المخطوط من روايته « الأرواح الميتة »<sup>(1)</sup> .

ومن روح الإسلام ما كان من موقف بلينسكي أعظم نقاد روسيا آنذاك حين فرحاً شديداً برواية ( دستوفسكي ) الذي عزفت عنه المجلات ودور النشر لأنه أديب حدث ، لا عهد لأحد به .

فلما عرضها صديقه الشاعر المعروف نكراسوف الذي أعجب بها من قبل وملكت عليه نفسه وهي رواية المساكين قال الناقد الكبير إنها المحاولة الأولى عندنا لكتابة قصة اجتماعية .

وحين قيل للناقد الكبير « بلينسكي » إن دستوفسكي يعتبر نفسه عبقرياً هز كتفيه وقال :

« يا للشقاء ، إن دستوفسكي موهوب حقاً ، ولكنه لو ظل يعتبر نفسه عبقرياً ولا يصنع شيئاً فإنه لن يتقدم خطوة واحدة »<sup>(2)</sup> .

(1) هكذا كتبوا ص 21.

(2) هكذا كتبوا ص 29.



وهذا كلام حق ، والإعراض عنه من الخطورة بمكان ؛ فقد أعجب الرجل برواية المساكين ، ولكنه يريد ما بعدها ، يريد من المبدع أن يكون غيثاً مثمراً لا سحابة صيف عارضة وإن أمطرت .

وهذا الذي جعل الناس يتقدمون في كل شيء . هذه جذور التقدم ، وعلينا أن نقف عندها لتعلم ؛ فما دمنا نتأثر بهم في أدهم فلتتأثر كذلك بتلك الروح التي هي في ديننا ، فقد روى البخاري عن النبي - ﷺ - أنه أجاب من سأل عن أحب العمل إلى الله قائلاً : « أدومه وإن قل » .

وتجربة السجن المريرة التي عاشها المبدع الروسي دستوفسكي والتي أسفرت عن روايته « رسائل من بيت الموتى » تفيدنا بأن المشاعر الإنسانية واحدة ؛ فالسجن بيت الموتى في أي زمان ومكان .

ولأن فيه ضحايا النظم الفاسدة الذين رُجَّح بهم في السجون لأنهم شرفاء ، ودافعوا عن شرفهم وأموالهم وأعراض نسائهم ، يقول دستوفسكي :

لقد دافع هؤلاء الرجال عن حياتهم وحریتهم أحياناً وهم يكادون يموتون من الجوع ، وفي حالات أخرى ارتكب الرجال الجرائم عامدين لكي يزج بهم في السجون فيجدوا فيها المهرب من حياة أقسى من السجن نفسه ، حياة تجرعوا فيها الذل حتى الثمالة ، وعرفوا الجوع والعمل الشاق المضني من الصباح حتى المساء نظير دربهات قليلة كي يثري أصحاب المصانع على حساب كدِّهم ، وأما حياة السجن فأسهل ، وفيها كميات وفيرة من الخبز<sup>(1)</sup> .

وقد أمضى بعد خروجه من بيت الموتى في 12 / 2 / 1854 فترة عقوبته بالخدمة العسكرية التي كانت حياة الجنود فيها كحياة المجرمين .

(1) هكذا كتبوا ص 33.

كتب الجزء الأول من « رسائل من بيت الموتى » على ضوء مصباح غازي صغير أشبه باللمبة التي كنا نستذكر تحتها قبل أن تدخل الكهرباء قُرانا فنحن معه في هذا الجهاد ، ولسنا معه في حب امرأة متزوجة<sup>(1)</sup> . وخاطبها بقوله : لو تعلمين إلى أي حد تضنيني الوحدة هنا إنني في عذاب .. إنني أشتاق إليك ... نعم أنا أبكي من أجلك ، وأرجوك ألا تسخري مني ، فأنا الآن أعيش وحيداً ، ولا أدري إلى أين أذهب .

وقد أشرقت شمس السعادة في حياته حين جاءت رسالة من حبيبته تخبره بوفاة زوجها لكنها سرعان ما غربت ؛ حيث تعلقت هي بشاب وسيم ، وكان ما كان من ذل له أسفر عن روايته « مهانون ومستذلون » .

ومن هنا أكرر ما يقوله المستنيرون من علمائنا وأدبائنا إننا نأخذ ما يتفق وأخلاقنا ، ونترك ما عداه .

وفي حياة دستوفسكي درس أطلق عليه في سياق الفكر الإسلامي إن صح هذا التعبير « العبقرية والظروف » ؛ ذلك أنه تعلق بفتاة شابة هي ( أنا جريجور نيفيا ) التي بدأت عملها معه ككاتبة يملي عليها روايته وانتهت بالزواج ، وكانت شابة وكان يكبرها بكثير ، كانت نضرة كزهرة الربيع ، وكان قد هدته الأمراض وحطمته الديون والأزمات المالية ، وبرغم ذلك عادها أهله ، وكأنها قصة اليوم التي تتكرر في بلادنا ؛ فإننا نرى صوراً قبيحة في أسرة تعادي زوجة الابن التي هي بالنسبة إليه رحمة ، كالفتاة الجامعية التي تزوجت شاباً دونها في التعليم حيث يحمل أحد الدبلومات الفنية ولا يعمل به ، وهي حسناء ، مؤدبة ذات دين ، ولا تسلم من أذى حماها ليل نهار ، وكأن حماها أم البطل المغوار ، الذي رضي بها وهي دونه

(1) السابق ص 35 .

ولا تعلم أن ابنها هو الذي دونها ، وكان عليها أن تسجد لله شكرًا على تلك النعمة .

والشاهد أن الرجل لم يتمكن من كتابة شيء في تلك الظروف القاسية ، فقد كتب إلى صديق له يقول : « فقط ، لو استطعت يا صديقي أن تعرف كيف نعيش؟ إن زوجتي تقوم برعاية الطفل ، وأنا معدم تمامًا ، فكيف بالله عليك أستطيع أن أكتب وأنا في حالة جوع مستمر ، حتى لقد اضطررت إلى رهن سروالي . الجوع والشيطان رفيقاي الدائم... أما زوجتي فهي ترعى رضيعها ، ثم تضطر إلى الخروج لترهن معطفها الوحيد ، ولو أمكنك أن تدرك حقيقة ما أعانيه لعرفت أنه من المستحيل أن أستطيع الكتابة في مثل هذه الظروف »<sup>(1)</sup>.

وقد صدق ؛ فإن للعبقريّة عوامل تؤجج نارها وتستخرج ثمارها ، وأهم عواملها توفير حياة كريمة للعبقري ، ونحن مع الأسف نعاني تلك المسألة فنحن نريد عباقرة مع الجوع والفقر والمرض والحرمان ، وحالنا في ذلك حال من يتغني النصر دون جهاد ومن يطلب من الأرض أن تشق عن عين صافية من الماء أو أن تخرج جميع الثمرات دون أن يضرب فيها بفأس . رحل كثير من أبنائنا إلى الخارج فأُكْرِمُوا ، وأُتيحت لهم الفرص فكانوا علماء فيما نحن نعلم أن أقل ميزانية في الدنيا هي الميزانية المخصصة للعلم والبحوث .

وقد كتب الأستاذ أنيس منصور في مواقفه في الأهرام كلمة حق حين قال إن أساتذة الجامعة في بلادنا لا وقت عندهم للقراءة والكتابة ، فهم يقضون أوقاتهم في البحث عن محاضرات هنا وهناك من أجل لقمة العيش .

وقد قلت في برنامج ( كلام من القلب ) الذي أذيع عصر السبت الموافق 2009 / 2 / 7 على قناة الحياة الثانية .

إن أستاذ الجامعة الذي لا دخل له سوى راتبه الذي لا يتجاوز الألفين من الجنيهات يستحق الصدقة ؛ فمن أين يأكل ويشرب ويلبس ويشتري كتابًا ، وكيف يتسنى له أن يكون مبدعًا في مجاله .

إن لدينا مبدعين تحت إيقاف التنفيذ ، وما دمنا نوقف التنفيذ ، فلن نرى للإبداع من قيمة ؛ لأنه رُكب في آلة عاجزة عن الحركة .

وحين ارتقى دستوفسكي بروايته ( الإخوة كاراما زوف ) وبلغ قمة مجده الأدبي في الاحتفالات التي أقيمت في موسكو 1880م بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال بوشكين ألقى خطابًا طويلًا رائعًا ، جاء فيه : إني لأتساءل من هو بوشكين ؟ وما سر عظمته ؟ وفي رأيي أنه بمقدرته الفائقة على اكتساب عبقرية الشعوب الأخرى قد استطاع أن يصبح التجسيد الحقيقي لروحنا القومية ، بوشكين ، إنه روسيا بكل ما فيها من صفات عالمية ؛ فالإنسان الروسي الحقيقي أوروبي بل عالمي ، ولكي يكون الإنسان روسيًا حقيقيًا روسيًا كاملاً ، فهذا معناه ، واحفظوا جيدًا ما أقوله : هذا معناه أن يصبح أخًا لجميع البشر ، وأن يصبح واحدًا من دعاة الإنسانية الشاملة »<sup>(1)</sup>.

وما قاله الأديب الروسي 1880م هو قضية اليوم التي نعانينا ، والتي نشد فيها التلاقي لا الافتراق ، والوفاق لا الاختلاف الذي حذرنا الإسلام منه .

وفي مصر الجديدة بالقاهرة رجل من أصل روسي هو الدكتور الطيب سورين بايرميان ، طبيب الأسنان الذي عرفته منذ أكثر من عشرين عامًا ، فما تغير له نظام ،



تضبط على وصوله عيادته ساعتك ، وتدخلها فلا تجد ممرضا وإنما يفتح لك الباب ، وتجلس على كرسي الفحص لترى عيناك جنة خضراء من اللبلاب الذي ينتشر في كل مكان .

وإذا فحصك قال لك : ما المطلوب ؟ وعرض عليك صنوف العلاج المحتملة، وما تتكلفه من نفقات ويسلمك إلى الباب مصحوبا بالسعادة .

وزوجة هذا الرجل وبناته يعملن بالإذاعة المصرية بلغتهن في البرامج الموجهة في دأب ونشاط ، يذكرني هذا الطبيب وأسرته بقصة صاحب المعطف وهي أجنبية ، وقد أنسيت اسم كاتبها ، صاحب المعطف الذي كان يعود إلى مسكنه البائس في ساعة معينة لا يتجاوزها ، فهل الدقة في العمل والالتزام ، والأمانة ، والوضوح ، وأداء حق الوطن الذي يقيم فيه ، والانتماء إلى الوطن الأم إلا مبادئ إسلامية ؟!

وهل تظن أن الدكتور سورين إلا امتدادا لبوشكين الذي صار عبقريا ؛ لأنه اكتسب عبقرية الشعوب الأخرى .

وأذكر من مقولات د. سورين أنه قال لي يوما : إنني أنصح كل من أراد نصحي أن يركب سيارة محلية رخيصة الثمن ، يؤدي بها غرضه ، ولا يتألم كثيرا إذا أصيبت في شوارعنا السيئة ؛ فما قيمة أن تتركب سيارة فارهة ثمنها كبير ، فلا تجد لها قطع غيار إلا بأسعار من نار ، ويعز عليك ما يصيبها من حفر وبؤر ، وصدام من أهل الفوضى من السائقين .

هذه معلومات وخبرات وآراء نحن في حاجة إليها فكم ننفق في شراء تلك السيارات التي وصلت إلى ملايين ، نصفها بقصائد من شعر ونتغزل في تقنياتها العجيبة المريحة ، وهي أشبه بالحسنة القعيدة التي أصابها الكساح .

إن دراجة تمشي ، أفضل من سيارة فارهة لا تقضي بها حاجتك ، ولا تلبي بها نداء من دعاك ولا تقضي بها مصلحة ، وإن أردت أن تبعتها خسرت ، فهل نشترى السيارة لكي نستمتع بها فيها من مسجل صاحب ، ومن تكييف ونحن قعود فيها أم نشترى السيارة لكي تسير ؟! فإذا ضمنا لها سيرا مرجوا كان النظر بعد ذلك في الصنوف والكماليات ، كالنظرة الأولى في نص شعري ؛ إن رأيت إيقاعه وموسيقاه ووزنه وقافيته وإن تعددت ، فابحث بعد ذلك في المعاني والإبداع ، أما أن نطلق عبثا على نص جليل القيمة المعنوية اسم قصيدة ، وهو بلا وزن ولا موسيقى فهذا غير مقبول .

وللأستاذ فؤاد دواردة كلمة في مارك توين رائد الأدب الأمريكي يقول فيها :

« دائما تتبع الفكاهة الصادقة من ألم كبير ، ودائما تكمن وراء الضحكات مأس ودموع ، تلك هي طبيعة حياتنا ، وتلك حقيقة نفوسنا ، لا تحلو السخرية إلا من أنفسنا ، ولا نجد مادة طيبة لمرحنا إلا في متناقضات حياتنا ، وأوضاعها المقلوبة رأسا على عقب ، وما أكثر المتناقضات والأوضاع الشاذة التي نراها كل يوم ولا نفطن لما فيها من فكاهة تضحك الشكالي ، حتى تأتي روح الفنان الشفافة ، فسلط عليها من نورها ما يكشف لنا عن حقيقتها فإذا بها تبدو أمامنا وكأنها شيء جديد لم نعرفه من قبل ، فنضحك ونضحك ومن خلال ضحكنا نتعلم ، ويزيد عمق إحساسنا بها حولنا من متناقضات وأوضاع مقلوبة لن تعتدل إلا إذا مددنا أيدينا وعدلناها » (1) .

وإنما نقلت هذا النص لأقف عند بعض المعاني فيه وفي ضوئه فإذا كنا نضحك من مأسينا فهذا واقع ، ويجب أن نغيره حتى نضحك من مباحنا ، وتلك دعوة الدين وصريحه فقد قال الله - ﷻ - في سورة يونس الآية (58) ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ

(1) هكذا كتبوا ص 80، 79 .

وَبَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فالفرح - ومن مظاهره الضحك - إنما يكون بفضل الله وبرحمته ، لا بالمآسي والأوضاع المقلوبة .

والأمر الآخر هو قول الأستاذ دورة « إن الأوضاع المقلوبة لن تتغير إلا إذا مددنا أيدينا وغيرها » وتلك حقيقة ؛ لأن الأشياء ساكنة ما لم تأت قوة تحركها ، هذا قانون الأشياء ، وتلك نظرية العلماء .

ونحن كذلك نقول : إن من الأوضاع المقلوبة ما بين أهل العلم بالدين والسادة المثقفين من تناحر ، ولن تعادل تلك الأوضاع إلا إذا مددنا أيدينا لكي نصلحها ، وكما قلت إن الصلح ينبغي أن يكون على شرطه ، وليس من شرطه أن نقسم الناس قسمين علماء وأدباء ؛ فإنهم قسم واحد ولكن يختلفون في التخصص الدقيق ، وهذا لا يعني الانقسام وفي كلمات مارك توين درس لو قرأته أمريكا لأعادت النظر في سياستها جميعاً .

فقد عمل الرجل في مجال الصحافة المخبرية أربع سنوات ورأى أشلاء القتلى ، ووصف المجلس التشريعي والكونجرس بأن أهلها أصغر العقول التي خلقها الله ، وأكثر النفوس أنانية وأشد القلوب جبناً .

كره مارك توين الحرب ، وكتب دعاء الجندي الساخر الذي يصف وحشية الحرب بقوله :

« ربنا أعنا على تمزيق جنودهم بقنابلنا فتصير أجسامهم شرائح ملوثة بالدماء ، وأعنا ربنا على أن نغطي حقولهم الباسمة بأشلاء قتلاهم الوطنيين ، وأعنا اللهم على أن نغرق قصف المدافع في طوفان صرخات جرحاهم وهم يتكئون من الألم ، وأعنا على تخريب بيوتهم بإعصار من نار ، وأعنا على حرمانهم المأوى ، فيهيمنون على وجوههم مع أطفالهم الصغار بلا محب أو صديق وسط الخراب الذي خلق بأرضهم المهجورة » .

وقد قال مارك توين : إن تاريخ البشر لا يعدو أن يكون سرداً موجزاً لقصة سفك دماء البشر ، ويقول ساخرًا :

« لقد منح الله شعبنا ثلاث هبات لم يقدرها حق قدرها بعُد ، وهي : حرية الفكر ، وحرية القول ، ثم الإدراك السليم الذي يجعلهم لا يفكرون في استخدام الهبتين السابقتين » <sup>(1)</sup> .

### روبرت لي فروست

وأول شيء أوقف عنده في حياة « روبرت لي فروست » أنه عندما تجاوز الحادية والعشرين قال : إن العمر قد مضى ، ويجب إدراكه ، وإنني ضائع ، ولا بد لي أن أتزوج وحين أراد أن يتزوج عادت به الذاكرة إلى المرحلة الثانوية ؛ حيث كان في مدرسة مشتركة ، ويعرف زميلة كانت تدرس معه ، وهي أنبل زميلاته خلقاً ، ولم تكن هناك صلة ما بينه وبينها فلما سأل عنها وعلم أنها لم تتزوج تزوجها وعاشا سعيدين ، وأنجبا أطفالاً .

ولو أننا نتحدث عن رجل لا نعرف اسمه لقلنا إنه فلان المسلم ، الذي يرى الزواج حصناً ويختار على الخلق ، والإسلام يدعو إلى ذلك كله . ويموت له ولد فيصبر ، وهذا أيضاً من أخلاق المسلمين .

ويكد روبرت لي فروست ويتعب ويشقى في زراعة الأرض ، ولا يتركها ويجري بشعره . فهو شاعر أمريكا الغريد . لينشره هنا أو هناك ، ولم يترك العمل بالزراعة إلا بعد أن أحس أنه يزرع في صخر ، عندئذ اضطر إلى العمل بالتدريس وتنازعه بعد كفاح مدارس ثلاث ؛ والمدرسة التصويرية والكلاسيكية ، والواقعية .

(1) هكذا كتبوا ص 85 .



وهو في تواضع جميل يقول : « إذا كان لا بد من تصنيفي فمن الممكن أن أعتبر شاعراً مجازياً ؛ فأنا أفضل المجاز في الشعر ؛ ذلك الأسلوب من التعبير الذي يغني فيه الجزء عن الكل .

وفي نقده للواقعية وفحصه يقول فروست :

« إنَّ الواقعيين نوعان : ذلك الذي يقدم لنا مع البطاطس كمية من الطين والأقذار ليرينا أنه بطاطس حقاً ، وذلك الذي لا يرضى عن البطاطس إلا بعد تنظيفها ، وأنا أقرب للشخص الثاني ؛ لأنني أعتقد أن ما يصنعه الفن للحياة أنه ينظفها ، ويصقل شكلها » <sup>(1)</sup>.

ولم يقل أحد إنه كان ناقداً ، ولكني أقول إنه كان ناقداً ؛ لهذه الكلمات التي تشهد له ، ولغيرها ولفروست من إبداعه قوله :

لَيْسَ هُنَاكَ شَاعِرٌ حَيٌّ ، لَا يَسْرُهُ

أَنْ يَجِدَ شِعْرَهُ مَفْهُومًا

وَلَيْسَ مَرْفُوضًا أَبَدًا

مِنْ أَهْلِ بِلَادِهِ وَالْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ

وقد استوقفني هذا الشعر ، ففي ضوءه أرى أن الشاعر الذي يبدو شعره غير مفهوم مُقْصَرٌ ، وتلك أزمة حقيقية ؛ فكثير من نصوص الشعر الذي يطلق عليه شعر التفعيلة أو المرسل ، أو ..... أو ..... ما هو إلا طلاس ، وإذا قرأته لم تخرج بشيء ؛ فأنت أمام شاعر يتحدث عن امرأة مجهولة في وطن مجهول على بساط الريح

(1) هكذا كتبوا ص 122 .

بين البحر والياقوتة ، والدمعة الصفراء على الجبين الأخضر ، في يوم لم يُدرج في التاريخ ، فهو اليوم الخامس والثلاثون من الشهر مثلاً إلى آخره .

فهل نسَمِّي هذا إبداعاً ؟!

لا بأس أن يسميه بعض الناس إبداعاً ، فما من مشكلة . وكما يقول العلماء : لا مشاحة في الاصطلاح ؛ فأنا لا أسميه إبداعاً ، ولكن لا أضرب بيد من حديد على يد من يسمي مثل هذا إبداعاً .

وأنا يروق لي دائماً أن أعود إلى هذا النص من شعر فروست ، حيث يقول :

شَيْءٌ كُنَّا نَتَعَلَّقُ بِهِ جَعَلَنَا ضَعْفَاءَ

حَتَّى اكْتَشَفْنَا أَنَّهُ نَفْسُنَا

كُنَّا نَبْخُلُ بِهَا عَلَى أَرْضٍ مَعَاشِنَا

ثُمَّ مَا لَبِثْنَا أَنْ رَجَوْنَا خَلَاصَنَا فِي التَّسْلِيمِ

فقد حمل نفسه إثم نفسه وضعفه ، ووضع الحل الذي يبحث عنه كل طموح .

وهو أن تسلم النفوس للأرض ، يؤكد ذلك بقوله بعد .

أَرْضٌ بِلاَ قَصَصٍ وَلَا فَنٍّ وَلَا حَلِي

وَهَبْنَا لَهَا أَنْفُسَنَا كَمَا هِيَ

وَسَنَهَبُهَا لَهَا مَهْمَا كَانَتْ

هذا سر تقدم بلاده ؛ إنه يعلم أنها أرض ليست لها قصص ، ولا فيها فن ، ولا فيها حلي ولكنهم وهبوا أنفسهم لها كما هي ، ومضوا على أن يظلموا واهبين أنفسهم لتلك الأرض ؛ حتى تعلو وتعلو ؛ وتغزو العراق وتدمر كل شيء حولنا

ونحن أصحاب القصص والفن والحلي ، ولا نهب أنفسنا لبلادنا التي زينها التاريخ ، وجلها الأدب وارتقت بها الدعوة السماوية .

بل أهملنا كل شيء ، وودعنا كل شيء ، وفقدنا مقتضيات الانتماء إلى أعز الأوطان . وينطق فروست الضباب والدخان كما أنطق عنتره فرسه بـ « لو » ، وكما أنطق المتنبي حصانه بدونها ، فيقول الضباب :

أَنَا لَا أَصَدِّقُ أَنَّ النَّائِمِينَ فِي هَذَا الْبَيْتِ يَعْلَمُونَ أَيْنَ هُمْ

ويجيب الدخان :

لَقَدْ عَاشُوا هُنَا زَمَنًا كَافِيًا

كَيَّ يَرْفَعُوا الْغَابَاتِ مِنْ حَوْلِ الْمَسَاكِينِ

وَيَفْصِلُوا بَيْنَهَا بِطَرِيقٍ يَتَوَسَّطُهَا

يقول الأستاذ فؤاد دواره : « والقصيدة كلها تدور حول جهل الإنسان بنفسه وبجاره ، وبالبيئة المحيطة به ، وكيف أن الأمريكيين الذين يعيشون في القارة الأمريكية رغم ما حققوه من تقدم لم يزدوا كثيرًا عن سكانها الأصليين من حيث فهمهم لأنفسهم وللبيئة المحيطة بهم »<sup>(1)</sup>.

وفروست لا يعترف بالهزيمة ، ويصر على الوثبة بعد العثرة ، ألا ترى إلى قوله :

لَسْتُ أَرَى هَزِيمَةً لِلطَّبِيعَةِ

فِي سُقُوطِ شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِهَا

وَكَذَلِكَ لَا أَرَى هَزِيمَةً فِي أَنْسَحَابِي

اسْتِعْدَادًا لِهَجْمَةٍ أُخْرَى

ولقد كان فروست شاعر أمريكا الغريد ، مدح كريستوفر كولمبوس لأنه اكتشف أمريكا ، واكتشاف أمريكا يعني عند فروست إتاحة فرصة للحياة البشرية أن تبدأ من جديد ، وقال كل ما صنعه أنه وسع مساحة الحجره

فَحَالَ بِذَلِكَ دُونَ وَقُوعِنَا فِي الْهَآوِيَةِ

وَدُونَ وَقُوفِ كُلِّ مِنَا فِي طَرِيقِ الْآخَرِ

وَهَكَذَا وَضَعَ نِهَآيَةَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ الْمُحْمُومِ

حِينَ كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نُرَكِّزَ كُلَّ تَفْكِيرِنَا

فِي كَيْفِ نَتَكَاثَرُ وَنَظْلُ أَخْيَارًا مَعَ ذَلِكَ

وهذا التصوير المبدع من فروست يرينا كيف أن اكتشاف قطعة من الأرض واسعة في مساحة الدولة الكبيرة أو ضيقة ، عبارة عن توسيع مساحة الحجره التي يقصد بها فروست الكرة الأرضية .

فانظر كيف كان الرجل بعيد النظرة عميقها ، كأنه يتحدث عن العولمة اليوم ، لا بل بعد ألاف السنين فنحن نتحدث عن العولمة بأن العالم غداً مثل قرية صغيرة ، لكن فروست يرى العالم حجره ، وهي دائماً تحتاج إلى مَنْ يوسع مساحتها حتى لا يقع ساكنيها المتزاحمون في الهاوية ، وحتى لا يقف كل واحد في طريق الآخر .

وإذا كان فروست يرى أن كولومبس الذي اكتشف أمريكا قد وضع نهاية لذلك اليوم المحموم المكتوم باكتشاف أمريكا ، فإن على الأمريكيين أن يعوا هذا الدرس الذي ساقه إليهم شاعرهم فروست ، وأن يكونوا دعاة حياة لا آليات للغزو والتخريب ، وعلينا كما قال فروست أن ندرس كيف نتكاثر ونظل أخياراً مع ذلك .



إن فروست يضع حلاً في الحقيقة هو حل إسلامي لمشكلة الزيادة السكانية ، وإنه لا يرى أية مشكلة فيها ما دمنا نفكر في علاج لها قبل أن توجد ، ولكن مشكلة كثير من الناس تكمن في عدم التخطيط ، وأنا نفكر في الأزمة قبل وقوعها إذا كنا أهل علم ومجد وحضارة فإذا فكرنا فيها بعد وقوعها كنا متخلفين .

والنبي - ﷺ - حين نادى الشباب وحثهم على الزواج ما قال : تزوجوا تزوجوا على بركة الله ، وإنما قال : من استطاع منكم الباءة فليتزوج . أعرف شاباً عرف الزواج قبل الباءة بأن أرادت أمه - بلغة العامة - أن تفرح به وبحث له عن فتاة في الحي ، ودبرت أمر الزيجة ، كان ما زال طالباً يدرس في آخر سنة في دبلوم فني نظام الخمس سنوات ، فرحت ليلة عرسه ، وغنت ، ورقصت ، وهدأت ثورتها بدخوله في شقتها المكونة من غرفتين ، خصصت له ولزوجه غرفة ، وأقامت هي في غرفة لم يمض سوى أسبوع ، وبدأت مشكلات كانت متوقعة ؛ لم توفق مع العروس الجديدة ، بدأت سلسلة من المعارك بين العروس وحماها ، وبعد سنة من الزواج رسب العريس فلم يحصل على دبلوم ، وحمل لقب أب ، وماتت أمه ، واتضح للولد الوالد أن الشقة لم تكن ملكاً لأمه ، وإنما هي لخال له أبى إلا أن تعود إليه ، وصار في الشارع بزوجة وولد وبنت ، آواه حموه ، فكان متضرراً بإقامته في بيته ومن مشكلة إلى الأخرى ، ترك الدراسة فما عسى أن يحصل من وظيفة بدبلوم ، وعمل في شركة نفته إلى الفرع البعيد ، كان يعود كل شهر يحمل دربهات معدودة ، ولا تكفي أسرته ، التي كانت تحلم بشقة مستقلة ، وعيش رغد واسع ، شاهد المشيب بقلبه قبل أن ترى عيناه الشعر الأبيض في مفرق رأسه ، وفي تضاعف لحيته ، وكانت مأساة .

فمن قال إن هذه دعوة الإسلام ؟

وفي مجتمعاتنا ملايين الشباب يتعثرون في الزواج ، وقد بلغت البنات وكذا البنون سنّاً مربعة ولما يتزوجوا ، والأزمة الاقتصادية من وراء ذلك مع عوامل أخرى . وتحت شعار « الفرح » المزعوم يقبل كثير من الشباب على المخاطرة . وتحت شعار إن الله هو الرزاق تُحشى الحجرة الصغيرة بأمة من الأطفال الأبرياء الذين لا ذنب لهم في تلك المعيشة الضنك .

إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين للأقوياء الأمناء الذين يمشون في مناكب الأرض ، ويأكلون من رزق الله ، لا لأصحاب القوى المهذرة الذين لا يريدون الانتقال من الشمس إلى الظل ، ولا يحركون ساكناً ، ولا يصنعون شيئاً .

ودعوة فروست إلى توسيع الحجرة باكتشاف المجاهيل من المعمورة دعوة إلى السلام الذي يجب أن يسود العالم ؛ لأن العالم مهما توسعت أراضيه فلن يحيا حياة سعيدة مع الشقاق والحروب والدمار والويلات الناتجة عن ذلك .

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِبَلَادٍ بِأَهْلِهَا وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرَّجَالِ تَضِيقُ  
ومن خمسمائة بيت يكتب فروست قصيدته « صقر كيتي » التي يبدأ فيها بتحية الأخوين « رايت » باعتبارهما من كبار المخترعين الذين مهدوا لغزو الفضاء ، ويمضي بعد ذلك مؤيداً المخاطرة في سبيل التقدم العلمي ، ألا ترى إلى قوله :

يَرِثُ الْغَرَبِيُّونَ

شَكْلًا لِلْحَيَاةِ

أَكْثَرَ تَوَعُّلاً فِي الْمَادَّةِ

قَدْ يَكُونُ طَرِيقًا خَطِرًا

وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ الطَّرِيقُ الْحَكِيمُ  
فَخَبَّرَنِي لِمَاذَا تَوَقَّفَ الشَّرْقُ

عِنْدَ تَجْمِيدِهِ الطَّوِيلِ

فِي التَّأْمُلِ الْمُجَرَّدِ

وَلِمَاذَا كُلُّ هَذَا الضَّجِيجِ الَّذِي يُثِيرُهُ

فِي مُحَاوَلَتِهِ اللَّحَاقَ بِنَا؟

يقول الأستاذ فؤاد دواردة : مثل هذه الأبيات رغم ما فيها من إجحاف شديد بالشرق وقيمه تمثل موقفًا تقدميًا في شعر فروست ، وتؤكد صدق ما ذهب إليه مرة من أن الشعر كالحب ، يبدأ بالدهشة تليها فرحة ودموع ، ثم ينتهي إلى الحكمة وقد أراني أخالف الأستاذ فؤاد دواردة في هذا الذي زعمه إجحافًا من فروست بالشرق وقيمه ؛ لأنه فيما أرى ما ذم الشرق وما نال من قيمه ، إنه فقط يتساءل ، يقول : خبروني لماذا توقف الشرق عند تجميده الطويل ... في التأمل المجرد ونحن حقًا ملأنا الدنيا تأملًا مجردًا عن العمل والإبداع ؛ أي ملأنا الدنيا جمالًا على الأوراق ، إلى درجة أنك إذا رأيت هذه المفارقة بلسان الموضوعية وجدت الشاعر صادقًا .

فأنت إذا أردت أن ترى جمالًا في الحياة بحثت عنه في نص ، أما إذا أردت أن تراه عن يمين مسارك أو شماله أعياك ذلك .

فنحن نكتب عن الجمال في أرض قبيحة ، ونتحدث عن الفضائل ونحن نرتدي ثوب الرذائل ، فالمفارقة بين الكتاب والكتابة وبين الواقع والحياة كبيرة .

إننا قد نسمع خطبة جمعة موضوعها النظافة وأمام المسجد رمينا القمامة ، وربما أدخلنا الأطفال فيه يعبثون ، وينجسون المكان الطاهر الذي عده البرجمي في حاشيته

حاشيته الفقهية من صغائر الذنوب التي يكون الإصرار عليها حائلًا دون تحقق العدالة الواجب توفرها في الشاهد ، وقد كتبت قصيدة منذ أعوام طويلة عنوانها (امرأة من شعري) مطلعها

الْفِكْرَةُ تَنْبُعُ مِنْ ذَاتِي فَأَرَاكَ نَدِيمِي وَسُقَاتِي

أي إن المرأة المصورة في شعري ما هي إلا امرأة من شعري ومن شعر غيري ، أما المرأة التي هي من الواقع تنشدها كما تجد في الشعر فلا وجود لها .

فإن قيل : هكذا الشعر ، واديه الخيال ، ومطيته المبالغة والعمق فيما يكمن في الذات ، ولا غرابة قلت : وما هكذا ينبغي أن يكون الحال ، إننا نود إبداعًا يكون مرآة لواقع جميل ، فإن رأيت يربو بالبيان والمبالغة آتست في الواقع الذي صورته إبداعًا يتفوق على إبداع الشعر بقيمة الوجود ، هب أن شاعرًا وصف رجلًا بالجمال ، ثم رأيت هذا الرجل فألفيته غير جميل ، فلا ملمح فيه من نضرة أحالك الشعر إليها ، لكنك وجدته كريًا مفضلاً ، يلقاك بآيات الندى من يديه ومن آيات الحفاوة من أدبه المتواضع ، إنك بلا شك سوف تستشعر قولِي في رجل عاملته وهو الأستاذ الدكتور سعيد الحميدي :

الشَّعْرُ دُونَكَ وَالْكَلَامُ قَلِيلُ يَا سَعْدُ أَنْتَ مُؤَصِّلٌ وَأَصِيلُ

نعم كان الشعر دون سعد الحميدي الذي ما ذهبت إلى الكلية في أبها بجامعة الإمام محمد بن سعود فرع الجنوب إلا وجدته قبل السابعة صباحًا في مكتبه معتكفًا على أوراقه يعمل في صمت وما فارقت الابتسامة وجهه على مدى ستة أعوام عرفت فيها وكان لي شرف العمل في صحبته .

أما إذا رأيت آية إبداع في شخص أو في مكان ثم لقيت هذا الشخص ، أو نزلت في ذلك المكان فما كان لفظ أقرب إليك من قول الناس من قديم « تسمع



بالمعدي خير من أن تراه » فذلك الشقاء بعينه وقد جرت عادتنا في هذا الموضع أن نتعلق بفلسفة « خذوا عيني لتروا بها » ولدينا قول كثير:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ حَدِيثَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكَّعَا وَسُجُودَا

وهي علة لا تنهض دليلاً على تصوير القبح في قمة الجمال.

لقد قال زيد بن حارثة في النبي - ﷺ - وهو غلام صغير أبي العود مع أبيه وعمه إلى أهله وأمه ودياره : « لقد رأيت في هذا الرجل شيئاً وما أنا بتاركة أبداً » .

وقد يظن ظان أن هذا الذي قاله زيد بن حارثة من هذا القبيل ، ولا والله ما هو من هذا القبيل .

فإنه قبل أن يستدعيه رسول الله - ﷺ - لكي يخيره بين الإقامة معه ، وبين العودة مع أبيه وعمه إلى دياره كان الرجلان الوالد والعم قد سألا رسول الله - ﷺ - أن يأخذ ما شاء من مال ؛ فداءً زيد .

فما طلب النبي - ﷺ - مالا منهما وإنما عرض عليهما شيئاً ؛ حيث قال : نخيره بين أن يقيم معي ، وبين أن يعود معكما ، فإن اختارني تركتهما ، وإن اختاركما أخذتماه دون مال .

وفرح الرجلان بذلك فرحاً شديداً ، وقال حارثة والد زيد للنبي - ﷺ - :

جاوزت النصف .

أي هذا بعد العدل ، وفوقه ، كأنه قال : حياك الله وبياك ، هذا عرض كريم

مقبول ، ما يعرضه أحد .

فالذي رآه زيد في رسول الله - ﷺ - رآه أبوه وعمه ، ومن ثم ما قال له أبوه وما قال له عمه :

وما هذا الشيء الذي رأيته فيه وقد رأيناه بأعيننا فما رأينا شيئاً كالذي رأيت . وخلاصة القول في هذه المسألة أن هناك أمارات مشتركة بين الناس جميعاً يتفقون عليها في تحديد الجيد والردىء ولا يخلو الأمر من شاذ لا يعول عليه ، فإذا انفرد شخص أو مبدع بتصوير الردىء جيداً أو الجيد رديئاً وأجمعت الآراء على عكس تصويره لم يكن له غير تلك العلة سبيلاً للخروج من فساد ذوقه وسوء وإبداعه :

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ حَدِيثَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكَّعَا وَسُجُودَا

لقد تغنى المبدعون بالنيل ، ووصفوه ، وتناولوا جانباً من تصوير الحياة على شاطئه ؛ فأنت تعشق النيل الذي قال فيه شوقي :

وَالنَّيْلُ يُقْبَلُ كَالدُّنْيَا إِذَا احْتَفَلَتْ لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا

وَالسَّيْلُ لَوْ دَامَ وَالنُّعْمَى لَوَاطِرْدَتْ وَالسَّيْلُ لَوْ عَفَّ وَالْمِقْدَارُ لَوْ دِينَا

أَعْدَاهُ مَنْ يُمْنِهِ التَّابُوتَ وَازْتَسَمَتْ عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَنْوَارُ مِنْ سِينَا

لَهُ مَبَالِغُ مَا فِي الْخَلْقِ مِنْ كَرَمٍ مَهْدُ الْكِرَامِ وَأَخْلَاقُ الْوَفِيِّينَا

فأنت حين تقرأ هذه الأبيات ثم تذهب إلى النيل الآن . وتجده مكاناً للنفايات والقمامة ، وقد غطته القوارب الكثيبة ووسائل النقل النهري المشوهة ، لن تجد هذا الجمال الذي صورته شوقي وغيره .

فتشعر بأن شوقي قال ذلك حين كان النيل خلواً من صنوف الأذى التي لحقته بسوء سلوكنا معه . وهو نهر ينبع من الجنة .

وقد قال حسان في رثاء النبي - ﷺ :

فَابْكِي رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عِبْرَةٍ وَلَا أَعْرِفَنَّكَ الدَّهْرُ دَمْعُكَ يَجْمُدُ

وَمَا لِكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ  
فَجُودِي عَلَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَأَعُولِي لِفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرُ يُوجَدُ  
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ

ومن يتأول هذه الآيات يدرك أنها دون رسول الله - ﷺ - ، فهو فوقها ، وما من معنى ذكره حسان إلا وهو في رسول الله - ﷺ - حقيقة وأود أن أقول في ضوء هذه المرتبة الصادقة : إن بيتاً ذكره حسان فيها يجعلنا نقول بصدق فروست فيما قاله فينا دون تعصب من هوى ، فقد قال حسان :

مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَهُ وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ  
فَإِنْ حَسَانًا - ﷺ - لا يقول : أنه يرجو جوار النبي - ﷺ - في الجنة بالشعر والكلام ، وإنما قال :

وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

فالإيهان لا يُنال بالتمني ، وقد قال الله - ﷻ - في سورة النساء الآية (123) :  
﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا مُجْزِئًا وَلَا يَتَّخِذْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وهذه الآية دليل العلماء على أن الإسلام ليس بالتمني .

وقد كان الأستاذ دواره وغيره بلا شك سيمدحون فروست أو غيره إذا قالوا في الشرق قصيدة مدح ، وعندئذ نقول جميعاً : شهدوا لنا ، وكانوا منصفين ، فإذا وردت عبارة كالتي قالها فروست تقول إننا أصحاب تأمل مجرد ، قلنا ما قاله الأستاذ دواره : إنه صاحب إجحاف وفي قوله هذا ظلم للشرق وقيمه ، يكون منصفاً لو قال فينا مدحاً ، ويكون ظالماً مجحفاً إذا نبهنا إلى نقص فينا ، وما هذا

بِالنَّصْفِ وَلَا الْإِنْصَافِ ؛ إِنَّا مَأْمُورُونَ بِالْعَمَلِ ، لَا بِالْجَدَلِ ، فَمِنْ آيَاتِ شِقَاءِ النَّاسِ أَنْ يَمْنَعُوا الْعَمَلَ وَأَنْ يُرْزَقُوا الْجَدَلَ ، وَمِنْ شِقَاءِ الرَّجُلِ أَنْ يَغْضَبَ حِينَ يَنْتَقِدُ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ فِيهِ السُّوءَ ، وَمِنْ سَعَادَتِهِ أَنْ يَرَى عَيْبَهُ وَأَنْ يَبْصُرَهُ بِهِ غَيْرُهُ ، فَإِذَا بِهِ يَفِيقُ مِنْ سَبَاتِهِ وَيَضَعُ كَلِمَةَ الْخِتَامِ عَلَى أَحْلَامِهِ وَأَوْهَامِهِ لِيَدْرِكَ مَا فَاتَهُ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ .



## الفصل الثالث

### التبادل بين علماء الدين والمبدعين

#### حاجة علماء الدين إلى الإبداع

إن لم يكن عالم الدين مبدعاً كان جافاً ، يعزف عنه الناس وتنصرف عنه الجماهير ، إنه في حاجة إلى الإبداع لأن الدين مبدع ؛ فالله - وَجَّكَ - بديع السموات والأرض ، خلق هذا الكون على أتم نظام وأجمله ، وقال في سورة الملك الآيتين (4،3) : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۚ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۚ﴾ .

فلما كانت هاتان الآيتان معبرتين عن الإحكام جاءت الآية الخامسة معبرة عن الجمال ؛ حيث يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۚ وَلَمْ تَخُلْ سُورَةَ الْمَلِكِ الْمَكُونَةَ مِنْ ثَلَاثِينَ آيَةً مِنْ حَدِيثٍ عَنِ الْجَمَالِ فِي الْأَرْضِ الذُّلُولِ ؛ لكي نمشي في مناكبها ونأكل من رزقه - تعالى - وإليه النشور ، ومن حديث عن الطير فوقنا صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير .

ومن حديث عن البيان الذي وجه إليه النظر في قوله تعالى في الآية (22) : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ﴾ ونحن في تعطش شديد هذه الأيام للحديث عن هذا الإبداع الذي هو لون من ألوان الخطاب الديني نحن عنه غافلون .

فإن الله يقسم بالفجر ، والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وبالضحى ، والقمر ، وما ذلك إلا إشارة إلى تأمل هذه المواطن الجمالية الإبداعية .

وفي القرآن الكريم لوحات بديعة للكون حولنا ، ومن ذلك قول الله - تعالى - في سورة الكهف الآيات ( 32 - 43 ) ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۖ كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۖ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ۖ ﴾

فكيف يتناول تفسير هذه اللوحة من لم تقع عينه عليها في واقع الحياة ، ولم يتفيا ظلال جنة ، ولم يشرب قلبه معنى الربيع المتدفق إلى شرايينه يبعث فيها روح الجمال وسر الإبداع ، إنه أقرب إلى روح ابن البساتين الذي مشى في صباه بين أشجار العنب وبين أشجاره المتوسطة في الارتفاع يتخلل مواقع قدميه نباتات زراعية قصيرة ، لا يراها الناظر إلى الأشجار العالية المثمرة ، والسور الذي يضم تلك الجنة سور من نخيل ، وليس سورًا من أسمنت وحديد ، وبين الجنتين المتطابقتين في الشكل نهر جار بقاء الحياة لهما ولزارعتهما ، وللهار عليهما وقد يكون ابن سبيل منقطع ، يعرج عليه ليشرب ويرتوي ، وقد يراه عامل مفوض بالعطاء للمنقطعين من صاحب الجنتين إن كان رجلاً صالحاً فيزوده بعنقود من عنب ، وقد تسقط الريح بعض التمور من ذرا النخل ، فهي رزق ساقه الله إليه في طريقه الذي قد تبيست على جانبيه قلوب البشر ، ولكن قلب الطبيعة الحاني ليس بقاس ، فعلى الطريق من فضل الله - تعالى - أنهار وظلال ، ودفع وجود ، ونسيم حياة ، يبعث النور ويرسل الأمل في الطريق .

ثم يرتقي العلامة في ضوء هذا الجو إلى صاحب الجنتين الذي أبى إلا كفرًا وجحودًا وتطاولًا على صاحبه الذي كان أقل منه في المنح الدنيوية ، ولكنه كان أعلى منه فقهاً ، فأسعده إيمانه بينما شقي صاحب الجنتين ؛ إذ أحيط بشمره ، وأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً .

ومع أنه لم تكن له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً كان كذلك سبباً في ضياع هذا الجمال الذي صار أثراً بعد عين ، وطللاً بعد عمارة ، ورتجاً آل إلى خسارة ، وشمساً حارقة بعد ظلال ، ووحشة قاتلة بعد أنس ، وشرّاً مستطيراً بعد خير كثير .

وشتان بين عالم تسكن روحه هذه المعاني ، فيثيرها في نفوس قارئيه ومستمعيه ومشاهديه ، وبين عالم لا يقف إلا عند معاني المفردات ، وإعراب الكلمات غير مدرك لتلك الصورة البديعة .

ومن ذلك قوله - تعالى - في سورة الأنعام الآية ( 99 ) : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۚ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ففي آية واحدة صورة الغيث ينزل من السماء فإذا الأرض تستقبله استقبال الجثة الهامدة للروح فإذا ببديب الحياة ينعشها ، وإذا الألوان تتبدل ، فالخضرة حلت محل السواد الكالِح ، وإذا بالحب يتراكب ، وإذا بالنخل تدنو ثماره ، وإذا بالأعنان والزيتون والرممان منها ما هو متشابه في الشكل متغاير في الطعم والمذاق .

ويوجهنا القرآن الكريم إلى النظر إلى هذا الجمال فإنه كما خلق لغذاء البدن وإقامته خلق كذلك لغذاء الروح ، وإحياء الشعور بالجمال واستقامته فهل يوجه عالم الدين الأمة إلى درس الدين من جهة الأكل ويغفل الدعوة إلى النظر ؟!

وكيف يدعو إلى النظر إلى آيات الجمال ونفسه مشحونة بالسواد

وَالَّذِي نَفْسُهُ بِغَيْرِ جَمَالٍ لَا يَرَى فِي الْوُجُودِ شَيْئًا جَمِيلًا



وهو في حاجة إلى إقامة هذه المعادلة ، والتي هي موازنة بين قيمة الغذاء وقيمة الجمال ، والله در القائل :

إِذَا جَاءَكَ الضَّيْفُ فَأَبْسُمْ لَهُ وَقَدِّمْ إِلَيْهِ وَشَيْكَ الْقَرَى  
لكن بعض الناس تربوا على « أَحْسِنُ لِقَائِي وَلَا تُغَدِّنِي ».

والإسلام يقول : أحسن لقاء من جاءك وقدم إليه القرى معاً ، فتلك هي المعادلة المستقيمة.

إن بعض الدعاة لا حس عنده بالشعر ، ولا طاقة له بإقامة وزن ، وجعبته خالية من النصوص الإبداعية وإن حاولت أن تعصره خرجت بعض أبيات كالحلة شاحبة بلون فكره وثقافته وعقم نظرتة إلى الدنيا والحياة من حوله ، فقد تجدد بيتاً يدعو إلى النظر في القبور ، تابعت رجلاً من هؤلاء فوجدته يكرر في كل حديث :

كُلُّ ابْنِ أُتْنَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مُحْمُولٍ  
مع أن في قصيدة كعب :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُورٌ

وقد قال أهل العلم والأدب : إن الرسول - ﷺ - قام عند ذكره هذا البيت وخلع عليه برده ، ومن ثم سميت القصيدة بالبردة .

فلم يخلع النبي - ﷺ - عليه برده حين قال :

كُلُّ ابْنِ أُتْنَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مُحْمُولٍ

لقد خلع النبي - ﷺ - على الشاعر برده عند ذكر النور الذي يستضاء به وسيف الله القائم بالعدل وصون الحياة ، لا سيف البطش والعدوان ؛ أي عند ذكر نور الحياة ، لا عند ذكر ظلمات القبور ؛ فهذا الدين دين الحياة .

وقد تأملت النسبة بين البيوت والقبور فوجدت أن البيوت ذكرت في القرآن الكريم أربعاً وستين مرة ، فيما ذكرت القبور ثمانين مرات ، فنسبة القبور إلى البيوت 8:1 .

أي أن القبور ثمن البيوت ، ولا بد من أن يكون لهذا من نتائج تفيد الداعية .  
ورجل العلم بالدين يحتاج إلى الإبداع الذي هو شاهد العلماء قبله ، والذين هم مصادره ومراجعته ، من حيث تفسير الكلمات وإعرابها ، والوقوف على مشكلها .

يقول ابن كثير في توجيه قراءة « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين » وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة ، فدل ذلك على أنها غيرها ، وأجيب عن ذلك بوجوه :

أحدهما : أن هذا إن رُوي على أنه خبر فحديث (عليّ) أصح وأصرح منه ، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾

أو تكون لعطف الصفات ، لا لعطف الذوات كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ، وكقوله ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ وأشباه ذلك كثيرة ، وقال الشاعر :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَأَبْنِ الْهَمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِييَةِ فِي الْمَزْدَحَمِ

وقال أبو داود الإيادي :

سَلَطَ الْمَوْتَ وَالْمُنُونَ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ

والموت هو المنون

قال عدي بن زيد المعتادي :

فَقَدَمَتِ الْهَشِيمَ لِرَاهِشِيهِ فَالْقَى قَوْلَهَا كِذْبًا وَمِينَا

والكذب هو المين ، وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل : مررت بأخيك وصاحبك ، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه ، والله أعلم .

وأما إن روي على أنه قرآن فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ، ولهذا لم يثبت أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في المصحف ، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم لا من السبعة ولا من غيرهم ، وقد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث : قال مسلم : حدثنا إسحق بن راهويه ، أخبرنا يحيى بن آدم عن فضيل بن مرزوق عن شقيق بن عقبة عن البراء بن عازب قال :

نزلت ( حافظوا على الصوات وصلاة العصر ) فقرأناها على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما شاء الله ثم نسخها الله - تعالى - ، فأنزل ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ فقال له زاهر - رجل كان مع شقيق - أفهي العصر ؟ قال : قد حدثتك كيف نزلت ، وكيف نسخها الله - تعالى - <sup>(1)</sup> .

ومثلها لا يبقى ملء البطن مساحة للتفكير كذلك لا يبقى ضيق الفكر مساحة للتأمل في الجمال ، قال الحسن البصري : يا ابن آدم ، كل في ثلث بطنك ، واشرب في ثلثه ، ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة .

وقال بعض الحكماء : مَنْ نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا بِغَيْرِ الْعَبْرَةِ انطَمَسَ مِنْ بَصَرِ قَلْبِهِ بِقَدَرِ تِلْكَ الْغَفْلَةِ .

وقال بشر الحافي : لو تفكر الناس في عظمة الله - تعالى - لما عصوه .

وقال الحسن بن عامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكير .

وقد ذمَّ الله - تعالى - مَنْ لَا يَعْتَبِرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ وَأَيَاتِهِ فَقَالَ - تعالى - فِي سُورَةِ يُوسُفَ الْآيَتَيْنِ ( 105، 106 ) ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ .

فلا بد للخطاب الديني أن يتجه إلى آيات الإبداع في الكون ، ولن يتحقق ذلك إلا عن موهبة وتلك الموهبة قد تجلت في كثير من علماء الدين ، وللاستاذ العلامة محمود جمعة أمين الدكتور الأديب أستاذ الأدب والنقد بكليتنا كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج بحث قديم عنوانه « الفكر الأدبي في تفسير الزمخشري » وقد نشره الأديب الأريب معالي الدكتور علي الخطيب حين كان رئيس تحرير مجلة الأزهر ، وكان سعيداً بنشره ، وأذكر أنه كتب إلى الأستاذ الدكتور أبي مجدي ( محمود جمعة أمين ) رسالة يستعجله بتقديم الجزء الثاني من بحثه القيم لنشره بالمجلة . كان هم الدكتور جمعة أن يبحث عن جذور الثقافة الأدبية في كشاف الزمخشري ، وكيف استثمارها في الوقوف على آيات الكتاب العزيز ، وبين ثمرات هذا الفكر في قصص الزمخشري ، وموقفه من الموازنات بين عليا التراكيب القرآنية وبين آي الإبداع الموروث وأثر ذلك في أسلوب الزمخشري نفسه .



وكان الدكتور محمود جمعة أمين مسح ببحثه هذا قطرات العرق المُر من على جبين الزمخشري مما أصابه من بعض الكتاب الذين سلخواه لاعتزاله وفرق كبير بين أن تقرأ الزمخشري لتقف على أثر الاعتزال في تفسيره ، فتلعنه لأنك متعصب لمذهب غيره ، وأن تقرأه لتقف على فكره الأدبي الذي يصف الجمال فتحمده لأنه مبدع ونحن في حاجة إلى مثل هذه الدراسات التي تريحنا من عناء المذاهب العقيدية ، وبهذه المناسبة فإنني أدعوا إلى درس جديد من دروس العقيدة ، يقوم على توثيقها في نفوس الناس ، دون فلسفة ، وكم كنت أرجو أن أكتب في العقيدة مقالات أجمعها في كتاب عنوانه ( عقيدة بلا فلسفة ) أتوجه به إلى الناس الذين ما أعد انحرافهم عن منهج الله - ﷻ - إلا بسبب ضعف العقيدة ، تاركًا الفلسفة لطلاب العلم المتخصصين وطلاب الدراسات العليا ، وكم أسعد ، ويسعد معي البسطاء حين أقرأ للأستاذ أنيس منصور مقالًا بعيدًا عن الفلسفة والوجوديين ، كلام عبر هو نفسه عنه بالمهم الذي يأخذ الناس ويصحبهم برفق من الظلمات إلى النور ، فقد مدح أنيس منصور إذاعة القرآن الكريم ، ثم عاد فانتقدها من حيث ذكر الوجوه الكثيرة في التفسير وقال بالحرف الواحد : « وأنا مالي » ؟

وكذلك أقول باسم ملايين المسلمين المتعطشين لدرس العقيدة : وأنا مالي بالفلسفة والكلام في المذاهب ، أنا أريد من يعلمني عقيدة حيث هي منهج أعيش عليه مؤمنًا بأن لي ربًا واحدًا هو السميع البصير القريب المجيب المعز المذل ، أنا أيها التاجر الصغير الذي رزقني الله دكانًا صغيرًا أبيع فيه بعض الأدوات الكهربائية المستوردة من الصين ومكتوب عليها أنها مستوردة من اليابان ، لست أنا من كتب عليها ، ولكنني أعرف الحقيقة ، فهل أخبر الزبون بذلك أم أتركه على عماه !

إنني لو أخبرته بالحقيقة فسوف يكون ربحي قليلًا ، ولو أخبرته بظاهر المكتوب فسوف يكون ربحي كثيرًا ، فهل للعقيدة دور هنا ؟

إن مثل هذا البائع الصغير يحتاج إلى درس الأمانة والصدق الذي لن يؤتي ثماره إلا إذا اعتقد أنه يراقبه ربه ، ويراه ، ويرزقه ، ويبارك له في القليل فالتاجر الصدوق مع النبين والصادقين في أعلى الدرجات ، ولن يكون صدوقًا عن طريق الصداع الناشئ عن الجدل ، والكلام الكثير في المذاهب المختلفة ، وإنما يكون صدوقًا إذا قويت عقيدته ، وسلمت من الدخل وسبيل ذلك سهل - على من وفقه الله - تعالى - كما يقول العلماء ، ويكفي أن يعلم أن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وأن يخاطب بلغة يفهمها ، وبِحَسِّ يعيشه ، وبشعور ليس مستوردًا له من صدر ينكره ، وإنما هو قادم إليه من نفسه ، وما أكثر الذين يمدحون عالمًا لأنه بسيط ، يصل إلى قلوبهم ويلاحظهم ، ويسوق إليهم ألفاظه رقيقًا رقيقة وما أكثر الذين يذمون عالمًا مع أنه بحر لأنه معقد يقول ما لا يفهمونه ، وقد كان النبي - ﷺ - يخاطب الناس ويفهمهم ، وتقول عائشة - فيما رواه البخاري : لم يكن النبي يسرد كسر دكم والله در نزار قباني حين قال في الحرف :

أَنَا الْحَرْفُ أَغْصَابُهُ ، بَبْضَةٌ	تَمْزُقُهُ قَبْلَ أَنْ يُوَلَّدَا
أَنَا لِبَلَادِي لِنَجَاتِهَا	لِغِيَاثِهَا لِلشَّدَا لِلنَّادِي
شَعَرْتُ بِشَيْءٍ فَكَوْنْتُ شَيْئًا	بِعَفْوِيَّةٍ دُونَ أَنْ أَقْصِدَا
فَيَا قَارِئِي يَا رَفِيقَ الطَّرِيقِ	أَنَا الشَّفَتَانِ وَأَنْتَ الصَّدَى
سَأَلْتُكَ بِاللهِ كُنْ نَاعِمًا	إِذَا مَا ضَمَمْتَ حُرُوفِي غَدَا
تَذَكَّرْ وَأَنْتَ تَمَرُّ عَلَيْهَا	عَذَابَ الْحُرُوفِ لِكَيْ تُوجَدَا
سَأَرَتَا حُكْمَ لَمْ يَكُ مَعْنَى وَجُودِي	فُضُولًا وَلَا كَانَ عُمْرِي سُودِي
فَمَا مَاتَ مَنْ فِي الزَّمَانِ	أَحَبَّ وَلَا مَاتَ مَنْ غَرَّدَا

ولن يكون مَنْ يستعمل الحرف ملبياً ندائه إلا إذا وقف على أسرار الإبداع من اصطفاء الكلمة ، وتجانس اللبنة منها لكي تساق إلى المتلقي تحفة بلا غرابة ، وسلعة نادرة بلا كلفة ولا عظيم مؤونة ، أن تهدي إليه كما تهدي العروس في ليلة زفافها إلى صاحبها الذي تهاً لاستقبالها . وكانت حلم عمره ، وقد أعد من أجلها بيتاً ، وعزم على إنشاء ذرية صالحة معها .

وهل الحروف إلا صناعة ، ولا بن جني كتاب أسرار الصناعة وله الخصائص ، وللزخشي أساس البلاغة ولعبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وللشهاب الخفاجي المتأخر ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، وحين اصطفى الإمام ابن أبي جرة عنوانه ( بهجة النفوس ) لشرح ما اختاره من صحيح البخاري ما قصد بذلك إلا أن الدين . بهجة لا كآبة ، يحيي النفوس لا يقتلها ، ويضيف إليها لا ينتقص منها .

وللحروف رسالة ذكرها نزار ، رسالة إحياء للبلاد والعباد ، وفيها كوامن معانيها ، شعرت بها فكانت معبرة عنها ، فأين الغواص الذي يستخرجها من الأعماق ، ويكسوها الخلائق وهي على وجه الناطق بها شفاته ، وعليه أن يسمع صداها العالمين .

ونزار يشير إلى تبعة الناطق بالحروف ، وهي تبعة الإدراك لجمالها ، وذلك حين يقول :

تَذَكَّرْ وَأَنْتَ تَمَرُّ عَلَيْهَا عَذَابَ الْحُرُوفِ لِكَيْ تُوجَدَا

ولعله يقصد عذاب من جمعوها وصنفوها فيها ، وبينوا حسناتها المستعمل من مستهجناتها المعروف المهمل فلا يركن إلى ضعيف ولديه - إن بحث - القوي المتين وإذا كان الحرف قد أدى رسالته وتوفر ، فهو مستريح إذا لم يعيش عمره سدى فعلى

مَنْ يريد الحياة أن يكون كذلك ، أن يحب الجمال ، ويبغض القبح وأن يغرد بالحروف ليملاً الدنيا نشيد الحياة .

وأذكر كلمة غالية ذكرها شيخنا العلامة محمد عبد الخالق عزيمة في مقدمة تحقيقه لكتاب المقتضب للمبرد حين قال : وفي كتب الأدب نحو كثير لا يوجد في كتبه المتخصصة .

ومن هذا المنطلق أقول لكل داعية : إن في كتب الأدب وغيرها علماً غزيراً يفيد منه المتعرض لتفسير الكتاب والسنة لا يجده في كتب التفسير المتخصصة التي هي أيضاً بساكن مختلفة ؛ حيث إن منها ما يكون الغالب فيه المأثورات المروية وما يكون الغالب فيه اللغة والنحو ، وما يكون الغالب فيه البلاغة وهكذا ، والوقوف على ذلك كله والاعتراف منه من الضرورة بمكان .

والانعطاف على كتب المبدعين في شتى العلوم فيه إضافة لثقافة الداعية عظيمة ، وعلى سبيل المثال :

نحن نعرف قصة أبي بن خلف الجمحي الذي توعد رسول الله - ﷺ - بالقتل في مكة ، فقال له النبي - ﷺ - بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما كان يوم أخذ تناول النبي - ﷺ - الحربة من الحارث بن الصمة ، وانتفض بها انتفاضة فتطاير عنه الناس تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض ، وطعنه بها في عنقه طعنة خدشته خدشة غير كبيرة ، فلما حمله الناس وهو يخور كما يخور الثور ويقول : قتلني محمد ، وحقق دمه واحتقن فقيلاً له : لا بأس عليك قال : والله لو بصق عليّ بعد قوله أنا أقتلك ، لقتلني ، فلم يلبث إلا يوماً واحداً ومات بموضع يقال له سرف .



لكنك تجد عقب هذه القصة بيتين لحسان بن ثابت لا تجدهما في كثير من كتب السير ، ذكرهما الدميري في حياة الحيوان ، وهما :

لَقَدْ وَرِثَ الضَّلَالَةَ عَنْ أَبِيهِ      أَبِي حِينَ بَارَزَهُ الرَّسُولُ  
أَتَيْتَ إِلَيْهِ تَحْمِلُ رَمَّ عَظْمٍ      وَتُوْعِدُهُ وَأَنْتَ بِهِ جَهْلٌ<sup>(1)</sup>

وفي صحيح البخاري حديث « لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ، هذا في الجامع الصحيح .

وللبخاري أيضاً كتاب الأدب المفرد ، روى فيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - هذا الحديث ، ولكن جاء فيه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج فوجد جماعة من الصحابة يضحكون ، فقال لهم : هذا الحديث ، فبكوا ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزل جبريل وقال : يا محمد ، إن الله يقول لك : لَمْ تُبَيِّنْ عِبَادِي ، فعاد إليهم - صلى الله عليه وسلم - وقال لهم سددوا وقاربوا .

ومهم هذا الحديث الثاني الذي فيه هذا التفصيل وكثير من الدعاة يقف عند رواية الجامع الصحيح فلا يجدون لأنفسهم ولا لمخاطبيهم مساحة من التنفس ، بينما تأتي رواية الأدب المفرد حاملة البشر والسرور مبينة أن الحياة ليست كلها دموعاً وبكاء .

فكما كان بيتا حسان اللذان ذكرهما الدميري في حياة الحيوان بمثابة الاستراحة بعد عناء النص كذلك كانت رواية الأدب المفرد توضيحاً وإضافة مهمة للبكاء الذي يفيد ظاهر الحديث بأنه قدر مقدور ، فتأتي البشارة من الله - تعالى - بالعمل قدر الطاقة لتتسنى السعادة للعاملين .

والداعية حين يدعو إلى الشورى وفي عقله قول القاضي أحمد بن محمد الأرجاني :

شَاوِرْ سِوَاكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ      يَوْمًا وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَشُورَاتِ  
فَالْعَيْنُ تَلْقَى كِفَاحًا مَنْ دَنَا وَنَأَى      وَلَا تَرَى نَفْسَهَا إِلَّا بِمِرَاةٍ

ونحوه يكون غير الذي يدعو إليها وليس في عقله ووجدانه مثلها .

وفي حديث البخاري « إن من البيان لسحراً » ما يدعو إلى هذا البيان ، الذي ينزل من النفوس منزلة السحر الحلال .

وحين يدعو إلى جمال الشكل والمعنى وعلى لسانه مع النصوص الدينية الصحيحة قول الأرجاني كذلك :

أَحَبُّ الْمَرْءِ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ      لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمٌ  
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوٍ      وَهَلْ كُلُّ مَوَدَّتِهِ تَدُومُ

والبيت الثاني فيه من الإبداع أنك إذا قرأته معكوساً من آخره إلى أوله لم يتغير شيء من لفظه ، أي أن قراءته من آخره كقراءته من أوله ، ومع ذلك فهو على متن البلاغة والفصاحة غير عليل ، وأهم ما يحتاج إليه عالم الدين من درس الإبداع أن يقف على أسرارهِ ، ويدرك مراميهِ ؛ ليستطيع التفريق بين ما هو كفر وما هو مستقيم على الدين ، فلا يتعجل بالحكم على مبدع وهو بعيد عن ميدانه غير مدرك مراميهِ ، وفي تراثنا الأدبي نصوص ، وعلى وجه الدقة أبيات قال فيها العلماء إنها محتملة للمدح والذم ، ومن ذلك :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُعْثِهَا      وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

وإذا كان للغة ميزانها في الاحتمال فإن في الدين كذلك هذا الميزان ، وميزان اللغة مرجعه إلى التأويل المطلق ، ولكن ميزان الدين مرجعه إلى التأويل الذي يكون

لصالح المبدع ، وقد أشرت إلى أن حمل الكلام على الخير الذي يحتمله مقدم على نقيضه بل هو واجب .

وقد مر أحد اليهود على النبي - ﷺ - فقال : السام عليكم .

فقال - ﷺ - : وعليكم .

فلما قالت عائشة : أما سمعت ما قاله تريد أنه قال السام لا السلام .

قال لها ﷺ أما سمعت قولي « وعليكم »

أي أن النبي - ﷺ - رد عليه بما ألقى عليه فإن كان مقصده بالسام : الموت والهلاك ، فعليه الذي قال والله يعصم رسوله - ﷺ -

وإن كانت هذه لغة في السلام ، وقد تكون بإسقاط اللام عن غير قصد فعليه السلام كما سلم فالأمر حين عند العباقره الذين لا يثيرون حرباً لأدنى ملابسة .

وفي مثل الكامل للمبرد في اللغة والأدب حروف من الأقوال ومنتخبات من الشعر والنثر يحتاج إليها الداعية ، ومنه نقلت هذه القصة : مات غلام لرجل ، وقف عند قبره ، وقال له : لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، فلا ندري ما قيل لك ولا بم أجبت ، ثم دعا الله - ﷻ - قائلاً اللهم اجعل ما قصر فيه من حقي عليه شفاعة له فيما قصر فيه من حقك عليه .

وسأله الناس : كيف كان برُّه بك ؟

فقال : والله ما مشى نهراً إلا خلفي ، وما مشى ليلاً إلا أمامي ، وما رقي سطحا وأنا تحته ، وما مد يده إلى صحفة خشية أن يكون سبقه بصري إلى شيء فيها .

إن مثل هذا الأدب مطلوب لترقيق الطباع والقلوب ، ومثل ذلك ما كان من الفضل بن يحيى وكان باراً بأبيه فلما دخل معه السجن ، لم يكن أبوه قادراً على استعمال الماء البارد ، ولم يكن قادراً على تسخين الماء في السجن فكان الفضل ابنه

يضع الإبريق النحاسي وفيه الماء على بطنه مدة طويلة لينكسر برده بحرارة بطنه حتى يستعمله أبوه بعد ذلك <sup>(1)</sup> .

يقول الدميري : وما أحسن قول بعضهم :

يَشْقَى رَجُلٌ وَيَشْقَى آخَرُونَ بِهِمْ      وَيُسْعِدُ اللَّهُ أَقْوَامًا بِأَقْوَامٍ  
وَلَيْسَ رِزْقُ الْفَتَى مِنْ فَضْلِ حِيلَتِهِ      لَكِنْ حُدُودٌ بِأَرْزَاقٍ وَأَفْسَامٍ  
كَالصَّيْدِ يُحْرِمُهُ الرَّامِي الْمَجِيدُ وَقَدْ      يَرْمِي فَيَحْرِزُهُ مَنْ لَيْسَ بِالرَّامِي <sup>(2)</sup>

ولولا علم الشافعي - رحمه الله - بالأعم الأغلب لما أفتى بائع البيغاء بعدم طلاق زوجته ؛ حيث حلف بالطلاق أنه لا يكف عن الكلام ، وهو في الحقيقة يكف بعض الوقت ، واستشهد بالحديث الصحيح الذي قال فيه النبي - ﷺ - في أبي جهم : إنه لا يضع العصا عن عاتقه .

ولا شك أنه يضعها حين ينام ، وحين يقضي حاجته وحين يغتسل وهكذا ، فأجازه أستاذه مالك .

والشعر حامل تجربة حقيقية وناقل خبرات الناس ، وقد قال الأصمعي :

تَقَرَّرْتُ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا      يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذَّبَّ وَالضَّبْعَا  
فَقِيلَ لَهُ :

هذا دعاء لها أم عليها ؟

فقال دعاء لها : لأن الغنم إذا سلط عليها الذئب وحده هلكت ، أو الضبع وحدها هلكت ولكن إذا سلط عليها الذئب والضبع انشغل كل منهما بدفع صاحبه فسلمت الغنم بذلك الصراع الذي يكون بينهما .

(1) حياة الحيوان 2 / 75 .

(2) السابق 2 / 74 .



فمن لم يعرف ذلك ظن أن تسليط الله الذئب والضبع على الغنم فيه مزيد لهلاكها .

وفي حوار بديع كان بين عبد الله الشامي وابن طاوس ، الذي زعمه هو ، فلما قال له :

هل أنت طاوس بن كيسان ؟

قال : لا ، أنا ابنه

فقال عبد الله الشامي : إن كنت ابنه فإن الشيخ قد خرف فقال : إن العلماء لا يخرفون ، فدخل عبد الله على طاوس فقال له : أتحب أن أجمع لك التوراة والإنجيل والزبور والفرقان في مجلسي هذا ؟

قال : نعم

قال : خف الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه ، وارجؤه رجاء هو أشد عليك من خوفك إياه ، وأحب لأخيك ما تحب لنفسك .

فانظر إلى أولئك المبدعين من كبار التابعين الذين اطلعوا ، فهضموا ، وأخرجوا الدر منظومًا في مسالكة فنفعوا الناس بالخلاصة ، كما نفع الناس ابن مالك بخلاصته في النحو والصرف ، وكانت آية إبداع لولا توفر آلياته عنده لما نظم وأبدع ، وهو بلا شك من علماء الدين ، فما خدم هذا الدين إلا علماء اللغة .

وقد روى الطبراني بسند صحيح عن أنس أن النبي - ﷺ - مرّ بأعرابي وهو يدعو في صلاته ويقول :

يَا مَنْ لَا تَرَاهُ الْعْيُونَ ، وَلَا تَخَالِطُهُ الظُّنُونُ ، وَلَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ ، وَلَا تَغْيِرُهُ الْحَوَادِثُ ، وَلَا يَخْشَى الدَّوَائِرُ يَعْلَمُ مِثَالِ الْجِبَالِ وَمِثَالِ الْبَحَارِ ، وَعَدَدُ قَطْرِ الْأَمْطَارِ ، وَعَدَدُ وَرَقِ الْأَشْجَارِ ، وَعَدَدُ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَأَشْرَقَ عَلَيْهِ النَّهَارُ ،

ولا توراي منه سماء سماء ، ولا أرض أرضًا ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره اجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتمه . وخير أيامي يومًا ألقاك فيه ؛ فوكل رسول الله - ﷺ - بالأعرابي رجلًا ، فقال : إذا فرغ من صلاته فأتني به فلما قضى صلاته أتاه به ، وقد كان أهدي لرسول الله - ﷺ - ذهب من بعض المعادن ، فلما أتى الأعرابي وهب له الذهب ، وقال : فمن أنت ؟ قال من بني عامر بن صعصعة ، فقال النبي - ﷺ - هل تدري لم وهبته لك ؟

قال للرحم التي بيننا وبينك يا رسول الله .

قال - ﷺ - : إن للرحم حقًا ، ولكن وهبت لك الذهب لحسن ثنائك على الله - ﷻ -

لقد أحسن هذا الأعرابي بإبداعه الذي أقره عليه النبي - ﷺ -

وغني عن البيان ما كان من قول رجل قال عقب قيامه من الركوع « ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه » .

فلما سأل النبي - ﷺ - مَنْ قالها؟ سكت الرجل خشية أن يكون ذلك فيه مخالفة لشرع الله - ﷻ -

فلما كرر النبي - ﷺ - قوله ، قال : أنا .

فقال عليه الصلاة والسلام : لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أول .

لقد تسابق هذا العدد من الملائكة لكتابة كلمات نطق بها رجل من الصحابة ، خلف رسول الله - ﷺ - ما نقلها من الكتاب وما حفظها من سنة وقد صارت به سنة حيث أقرها النبي - ﷺ - فكانت سنة .

أذكر ذلك لأن لدينا كثيرًا من الدعاة يواجهون الإبداع بالإنكار ، ويقفون عند المأثور غير مدركين منابعه .

وفي الوقت نفسه أوجه الكلمة إلى المبدعين فأقول : هلا كتبتُم ما يبتدره الملائكة أيهم يكتبه أولًا ؛ لتجدوه في صحائف أعمالكم وموازينكم يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، فربَّ كلمة تنقذ أمة ، ورب كلمة تتساقط بها إلى الهاوية وقد يسمع إنسان :

بِلَادِي بِلَادِي بِلَادِي لَكَ حُبِّي وَفُؤَادِي  
فانفطر قلبه في غربته ، أو ائتلف في حضوره على حب سكن قلبه ، وأتى عليه شيء من غبار الحياة فأزاح عنه نشيد بسيط ذلك الغبار ، فعاد مشرقاً بساماً من جديد ، وهو في هذه الحالة على استعداد لتلقي أوامره ، وتحمل الأعباء في سبيل النهوض به .

فإن التمهيد واجب لتنشيط النفوس ، وما أكثر ما جاء في كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - من هذا التمهيد الذي تمثل في النداء ، والاستفتاح يقول تعالى « يا أيها النبي » و « يا أيها الناس » و « يا أيها الإنسان » .

ويقول النبي - ﷺ - « ألا أخبركم » ، « ألا أدلكم » « أتدرون من المفلس » ونحو ذلك كثير ، وقد قال لقمان لابنه وهو يعظه « يا بني » .

ويقول إبراهيم لأبيه « يا أبت » ويكررها .

وفي صلب الأزمة وعمق الطوفان يقول نوح لابنه « يا بني اركب معنا » .

### حاجة المبدعين إلى الدين

وكما يحتاج عالم الدين إلى الإبداع في نشر رسالته وهو لها واع بصير ، وبمواقع اللفظ وأسرار التراكيب خبير ، كذلك يحتاج المبدع إلى الدين ؛ لأنه يعلم أن لدينه آداباً هو أولى الناس بالتحلي بها ، ولكن يكون مريضاً بالانفصام فيأتيه عند الإبداع

شيطان ، وعند الاتباع ملك ، إنه كما قال الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي في الأستاذ العالم إنه شاعر قبل أن يكون ناقدًا ، وإنسان قبل أن يكون سياسيًا ، فإذا كان هذا مقبولاً عنده وعند العقلاء ، فالمبدع مسلم قبل أن يكون مبدعاً .

وشيطان الشعر المزعوم ليس من ولد إبليس الأمر بالغواية وإنما هو سلطان الإبداع المزكي للهواية المسعف للمبدع بآليات إبداعه ، وباستطاعة المبدع أن يعين شيطانه على الإسلام ، فيسلم فلا يملي عليه بكرة وأصيلًا إلا طيبًا ، فلا يشم منه إلا أطيب ريح ، ولا تقع عينه منه على قبيح ومن أساسيات ما يحتاج إليه المبدع أن الله - ﷻ - ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير وأن الأدب في مناجاته والتضرع إليه من عزائم الأمور . وقد قال الله - ﷻ - في سورة الأعراف الآية : (180) : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهذا خطاب لكل مكلف مبدعاً كان أو عاجزاً عن الإبداع وأنا أقول هذا الكلام أذكر القارئ خصوصاً المثقف الواعي أنه من باب التذكرة ، والذكرى تنفع المؤمنين ومن باب النصيحة للعاقل والمعونة ، فلا أتهم أحداً بجهل ، ولا أدعي أنني أبو العذرة في شيء ، وما النصيحة في هذا السياق إلا تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل .

وقد تعود الناس خطاب الزعماء والرؤساء بأي من التقدير والاحترام ، بلا غموض ولا لبس وبما لا يدع مجالاً للتعليق إلا بأحسن ، فكيف بمخاطبة من بيده الأمر كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، من يعلم السر وأخفى ، ومن خلق فسوى ، وقد فهدى .

وقد دعانا إلى سؤاله لكي يستجيب لنا ، وقد قال الأدباء المبدعون من قبل :

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ



وَقَالُوا:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبَنِيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقالوا في وجه الشاعر الذي يمدح لِيُعْطَى :

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادِ لِيُعْطَى إِنَّ اللَّهَ مَا بِأَيْدِي الْعِبَادِ

فَاسْأَلِ اللَّهَ مَا طَلَبْتَ إِلَيْهِمْ وَارْجُ فَضْلَ الْمُقَسَّمِ الْعَوَادِ

لَا تَقُلْ لِلْجَوَادِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَتُسَمِّ الْبَخِيلَ بِاسْمِ الْجَوَادِ

قالها عمران بن حطان للفرزدق ، وذكر المصنفي - رحمه الله - أن الفرزدق قال بعد انصرافه : لولا أن الله - ﷻ - شغل هذا برأيه للقمينا منه شرًّا<sup>(1)</sup>.

فانظروا كيف عدَّ الفرزدق شغل عمران بن حطان - وكان من الخوارج - برأيه خيرًا ، فلو تفرغ للشعراء لآذاهم .

ومما رواه الذهبي أن عمران بن حطان لم يكن خارجيًا ، بل كان من غيرهم المعتدلين ، وتزوج امرأة من الخوارج وقال : أرجعها إلى الصواب فغلبته هي ، وصار من أئمة الخوارج .

وها أنا ذا أورد أبياتًا له غير ناظر إلى خوارج أو دواخل ؛ حيث إنها لا شيء فيها يتعارض مع العقيدة .

وقد قال عبد بني الحسحاس بين يدي عمر بن الخطاب :

عُمَيْرَةُ وَدَّعَ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَايَا كَفَى الشَّيْبَ وَالْإِسْلَامَ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

(1) رغبة الآمل مع الكامل 185 / 5 .

فقال عمر : لو كنت قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك فقال ما سمرت بالسين ، أي ما شعرت ، وكانت فيه لكنه حبشية كما قال المبرد .

ولو أنه قدم الإسلام على الشيب فقال :

كَفَى الْإِسْلَامَ وَالشَّيْبَ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

لأنكسر البيت كما تعلمون ، وهو من الطويل وعمر - بلا شك - يعلم أنه ينكسر ، وليس بالضرورة أن يعلم الطويل من الخفيف ، وإنما همَّ عمر أن المبدع قادر على أن يقدم ما هو أهل للتقديم ، ثم يأتي به على أي متن من متون العروض التي لم يكن أحد أبا عذرتة إلا الخليل ، فليكن على أي نظام من نظم الشعر .

كأن عمر يقول لكل مبدع يرجو جائزة عمرية وهي أعلى من جوائز الأرض كلها قَدَمَ الإسلام على الشيب ، ولا يجاب بقول المبدع : ينكسر البيت إن فعلت ، إنه يقول للمبدع انظر الوزن الذي يستقيم عليه أن تقدم الإسلام على غيره قبل أن يخرج إلى الناس إبداعك .

والمبدعون يعلمون قاعدة التعامل مع الضمائر ، التي تقول : إذا أمكن الإتيان بالضمير متصلًا فلا يجوز العدول عنه إلى الانفصال ، وهناك استثناء معروف أي لا يجوز أن تقول : أتيت إياك ؛ لأنه يمكنك أن تقول : « أتيتك » .

وعلى هذا تقول « القوم يخرجونكم » فلا يقال « القوم يخرجون إياكم » .

لكن لما كان الإتيان بهذه القاعدة على وجهها سوف يؤخر رسول الله - ﷺ - وحقه التقديم جيء بالضمير منفصلًا ليتقدم وهذا قول الله - تعالى - في سورة الممتحنة الآية (1) : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ .

وهذا من الإبداع ، وأنتم مبدعون ، فلتحفظوه ولتعرفوه ، ولتقدموا ما حقه التقديم ، ولتقدروا ما حقه التقدير . والمبدع يحتاج إلى معرفة سنن العربية التي

ارتضاها لغة إبداعه ، ولسان حاله الذي ينقل من صدره الكبير وأنفه الواسع لسان مقال يكشف للناس عما في قلبه وعقله .

ومن أهم سنن العربية والتي تمثلت في كتاب الله ﷻ وفي آثار المبدعين السابقين الذين عبروا الطريق ، ورسموا المنهج العام ، من أهم تلك السنن أن من الكلام ما تكون التكنية عنه أبلغ من التصريح به ومعنى أبلغ أكثر إبداعاً وتفوقاً ، والكناية كما يقول المبرد<sup>(1)</sup> تقع على ثلاثة أضرب أحدهما التعمية والتغطية يقول النابغة الجعدي :

أَكُنِّي بِغَيْرِ اسْمِهَا      وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ خَفِيَّاتِ كُلِّ مُكْتَتَمٍ  
وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ :

أُحِبُّ الْمَكَانَ الْقَفَرَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنِي      بِهِ أَتَغْنَى بِاسْمِهَا غَيْرُ مُعْجَمٍ  
وقال محمد بن نمير الثقفي :

وَقَدْ أَرْسَلْتُ فِي السَّرِّ أَنْ قَدْ فَضَحْتَنِي      وَقَدْ بُحْتُ بِاسْمِي فِي النَّسَبِ وَمَا تُكْنِي  
وروي أن عمر بن أبي ربيعة قال شعراً وكتب به بحضرة ابن أبي عتيق إلى امرأة محرمة ، وهو :

أَلِمَّا بِذَاتِ الْخَالِ فَاسْتَطْلَعَا لَنَا      عَلَى الْعَهْدِ بَاقٍ وَذُهَا أَمْ تَصَدَّ مَا  
وَقُولَا لَهَا إِنَّ النَّوَى أَجْنَبِيَّةٌ      بِنَا وَبِكُمْ قَدْ خِفْتُ أَنْ تَتَسَمَّا  
فقال له ابن أبي عتيق : ماذا تريد إلى امرأة مسلمة محرمة تكتب إليها بمثل هذا الشعر .

فلما كان بعد مديدة قال له ابن أبي ربيعة :

أما علمت أن الجواب جاءنا من عند ذاك الإنسان ، فقال له : ما هو ؟ فقال :  
أَضْحَى قَرِيضُكَ بِأَهْوَى نَبَامَا      فَأَقْصِدْ هُدَيْتَ وَكُنْ لَهُ كَتَامَا  
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْخَالَ حِينَ ذَكَرْتَهُ      قَعَدَ الْعَدُوُّ بِهِ عَلَيْكَ وَقَامَا  
قال المبرد : ويكون من الكناية وذاك أحسنها الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، قال الله وله المثل الأعلى البقرة : ( 187 )  
﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ أَلْصِيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ وقال ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾  
النساء : 43 واللامسة في قول أهل المدينة مالك وأصحابه غير كناية إنما هو اللمس بعينه ، يقولون في الرجل تقع يده على امرأته أو على جاريته بشهوة : إن وضوءه قد انتقض ، وكذلك قولهم في قضاء الحاجة : جاء فلان من الغائط ، وإنما الغائط الوادي ، وكذلك المرأة ، قال عمرو بن كعب الزبيدي :

وَكَمْ مِنْ غَائِطٍ مِنْ دُونِ سَلَمَى      قَلِيلِ الْإِنْسِ لَيْسَ بِهِ كَثِيعُ  
وقال الله - ﷻ - في المسيح ابن مريم وأمه - صلى الله عليهما - : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ المائدة : ( 75 ) وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة ... وهذا كثير .

والضرب الثالث من الكناية التضخيم والتعظيم ومنه اشتقت الكنية ، وهو أن يعظم الرجل أن يدعى باسمه ووقعت في الكلام على ضربين :

وقعت في الصبي على جهة التفاؤل بأن يكون له ولد ويدعى بولده كناية عن اسمه ، وفي الكبير أن ينادى باسم ولده صيانة لاسمه ، وإنما يقال : كني عن كذا بكذا ، أي ترك كذا إلى كذا لبعض ما ذكرنا<sup>(1)</sup> .



وقد رأيت بعض المنتسبين إلى الإبداع يرى في ذكر القبح إبداعاً، وذلك - كما قال الغزالي - من الوهن الذي أصاب اللغة والدين، أي المنتسبين إلى الإبداع في اللغة، والمنتسبين إلى الدعوة والإمامة في الدين؛ فالذي يراه المنتسب إلى الإبداع إبداعاً يراه المنتسب إلى علماء الدين علماً، وكلاهما على خطأ وخطر.

والمبدعون في حاجة إلى الدين معرفة وفقهًا حتى يكونوا له دعاة، والله - ﷻ - يقول في سورة يوسف (108) ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقد كتبت مقالاً نشرته بمجلة الأزهر 1990م حول أثر الإعلام والكلمة في الناس، وذكرت ما لها من الأثر إيجاباً وسلباً، فعلى الأديب المبدع أن يكون - كما يعتقد - مرآة صدق لنفسه وأمته، فهو بمثابة حادي العيس، وسائق الأطفان، وقد عانينا من الفن الهابط كما يسمونه، وصار أربابه يهتمون المجتمع بأنه إفراز منهم، وتلك رغبتهم.

وصار المجتمع يلقي باللوم على أصحابه مدعيًا أنهم سبب فساد أبنائهم وبناتهم.

والإسلام يعد المال قوام الحياة، والنبى - ﷺ - يقول: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم.

فهلاً توجَّهت ركاب المبدعين إلى الدعوة إلى العمل والكسب وبيان أثر المال في حياة الفرد والأمة بدل أن يتناول بعضهم الحب والغرام، وذم الغريم الذي ينافسه حب فتاته لأنه ذو مال؛ فالأول الذي يمثله المبدع صاحب قلب يطير بمحبوبته في الفضاء العريض، والثاني الذي هو عدو لها صاحب كنوز ميتة ومال لا يحقق السعادة.

وربما كنا منصفين إذا قرأنا الواقع الذي يشهد بآلام وجراح نتيجة هذا الإغراق في الحب والهيام دون نظر إلى الخلق والدين والمال عصب الحياة، ورأينا من يجيد الغناء ويشدو باسم الحب وهو عاطل سرق قلب الفتاة فتحدث أهلها أو هربت أو خيف هروبها فتم زواج فاشل، وتجرع الكل كؤوس الألم بعدد.

إن الدين يدعو الناس إلى واقع، بينما يدعو بعض المبدعين الناس إلى خيال، ومن طريف التراث الإبداعي ما ذكره المبرد، فقد دعت امرأة تسمى جُمَيْرَ رجلاً كان يحبها، فأخذت تحدّثه ولا تذكر الطعام، فلما طال ذلك به قال: جعلني الله فداءك، لا أسمع للغذاء ذكراً، قالت:

أما تستحي، أما في وجهي ما يشغلك عن ذا، قال لها: جعلني الله فداءك، لو أن جميلًا وبشينة قعدا ساعة لا يأكلان شيئاً لبزق كل واحد منهما في وجه الآخر وافترقا<sup>(1)</sup>.

وهذه الفكاهة الطريفة تسوق إلينا حقيقة مهما حاولنا أن نوارىها بشيء من الإبداع فلن نستطيع؛ إذ الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة، وقد صرنا نسمع من كثير من أبنائنا وبناتنا أن الحياة ليست أكلاً وشرّباً، وهذا من أثر ما يسمعون، والحياة أكل وشرب وفكر وقلب وكل شيء، لكن نفى الأكل والشرب منها لنفي لوجودها من جذورها، فلترحموا الناس أيها المبدعون، ولتكن إبداعاتكم دعوة إلى سؤال الله الغني، غنى النفس والمال، ولتحققوا المعادلة كاملة.

ولله در الأعشى حيث قال:

وَلَا تَقْرَبَنَّ مِنْ جَارَةٍ إِنَّ سِرَّهَا عَلَيْكَ حَرَامٌ فَانْكِرَنَّ أَوْ تَابَدَا

وماذا على المبدعين أن يقدموا للأمة من عناصر إبداعاتهم وأجناس أدبهم أفكار دينهم التي عليها يكون صلاح الفرد والأمة، وكما قدمت في الفصل السابق

فإن مجال الأدب الإسلامي فيه اتساع ، ولو أن أهل الإبداع صوروا لنا الطبيعة ، وتمّموا فينا مشاعر الإحساس بها ، وصوروا معاناة الناس ، وحاربوا الفساد ونادوا بالعدل والحرية ، ومدحوا المبدعين في ميادين العلم والاجتماع والاقتصاد ، وتغنوا بقيمة الوطن والانتماء إليه لكان خيراً لنا جميعاً ، حتى لا يظن قارئ أنني أدعوهم إلى أن يكون إبداعهم نظماً في الصلاة والصيام والزكاة والصدقة والزواج ، والعزوف عن الطلاق إلا لضرورة مع أن ذلك لا يقدر في إبداعهم إن فعلوه ، وكم أبكت أبيات الفرزدق حين طلق زوجته نوار كل من تسرع في طلاق امرأته حين قال :

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسْعِيِّ لَمَّا      غَدَتْ مِنِّي مُطَلَقَةً نُوَارُ  
فَكُنْتُ كَفَاقِي عَيْنَيْهِ عَمَدًا      فَأَصْبَحَ لَا يَضِيءُ لَهُ النَّهَارُ  
وَكَاثَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا      كَادَمَ حِينَ أَخْرَجَهُ الضَّرَارُ  
وَمَا طَلَقْتُهَا شُبْعًا وَلَكِنْ      رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَأْخُذُ مَا يِعَارُ

فهذه أبيات تتلأأ إبداعاً ، وهي تصور واقعاً نقلته من فسخ عقد الزوجية المسمى طلاقاً إلى فسخ عقد الحياة ؛ حيث الندم ، والظلام ، والشعور بالمرارة . وكل مُتَلَقٌّ لهذه الأبيات يشعر بذلك لكن منهم من لا يحسن التعبير عنه .

إنه ندم إذ أصبحت نوارُ امرأته مطلقةً منه ، انطلقت منه ومن ذمته ، وخلت منها داره ، فإذا الصبح كأنه عمق الليل فلا نور ولا ضياء ، يتحسس عينيه ، ويفتحهما ، فلا يرى شيئاً تذكر فجأة أنه هو الذي فقأ عينيه عمداً ، فكيف يضيء له النهار وهي كانت عينيه اللتين يبصر بهما نور الصباح .

إن مثل هذه الأبيات حين يسوقها المبدع إلى جماهير المتلقين خصوصاً هذه الأيام التي كثر فيها وقوع الطلاق بين الشباب لا شك أنها تسهم في الدعوة إلى الترتيب وإعادة النظر إلى القراء ، وعمق التأمل في آثاره .

ثم إن هذا الشباب الذي يتزوج اليوم ويطلق غداً أليس من أسباب هذه الردة ، وهذا التصرف غير المقبول مؤثرات كثيرة ، منها ما يطلق عليه إبداع وهو مجنون كما قال الغزالي - رحمه الله - وغيره .

فالإبداع كما يكون بالقصيدة ملتزمة أو حرة يكون كذلك عند أصحابه بالغناء والرقص العاري وغيرهما !

ألسنا مسئولين جميعاً عن بناء صرح أمة وإصلاح أفرادها ؟!

وهل فينا من يزعم أن الدين ليس فيه مبادئ للإصلاح ؟!

هل يظن أحد أن الدين عاجز بمنهجه عن تشكيل وجدان ؟!

إن كثيراً من الناس خصوصاً المبدعين يتصورون أن الدين هجوم على الجمال ، والإسلام في حقيقته رسالة جمال ودعوة إلى السعادة ، لكن المشكلة كانت قد تولدت نتيجة خطاب منسوب إلى الدين ، ولا أقول : إنه خطاب ديني ، نسب إلى الدين خطاب هو منه براء .

خطاب كان لفظ « حرام » فيه شائعاً شيوع النار في الهشيم ، مع أن الحرام ما حرم بنص ، وهو محدود قليل وقد شاعت هذه الكلمة على ألسنة المجتمع ، تسوّمح في إطلاقها فعمت كل شيء ، وصرنا نسمع كلمة الأم لطفلها الصغير ابن الثانية كلما عبث بشيء قالت له « حرام عليك » .

ويقال للرجل الذي شرب الشاي وحده : حرام عليك ، والمرأة التي تأخرت عن إعداد الطعام وهي معذورة : « حرام عليك » .

وللأم التي اعترضت على خطبة ابنتها ؛ لأنها تراه غير كفء : « حرام عليك يا أُمي » ، مع أن لها وجهاً في الاعتراض .

وللذي قال رأياً : حرام عليك .



ولست أدري متى كان الرأي والتعبير عنه حراماً في أي شرع سماوي أو أي عقل سليم ! إلى غير ذلك مما يمكن أن يطلق عليه فقيه واع إنه حرام على من أطلقه ، وليس حراماً على ذي الرأي أن يبدي رأيه وإن كان على خطأ .

ومن الكبائر التي نبه إليها رسول الله - ﷺ - أن يسأل رجل عن شيء ولم يحرم حتى يحرم ، ثبت هذا في الصحيح عنه - ﷺ - وكذلك الحال فيما كان يسميه الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - ( فقه دورة المياه ) ومع تحفظي على العبارة التي أفهم أنها كانت من أثر انفعال الشيخ إلا أن له وجهاً كان يرمي إليه فإنَّ جُلَّ اهتمامه - رحمه الله - كان في إبراز قيمة الإسلام في حياة المسلم التي تدفعه إلى معاشة الحياة والتقدم بها ، وتحرير الفكر المفيد ببعض الأمور الثانوية .

عانى الغزالي - رحمه الله عليه - من هموم الحُرْفِيَّة في الدين ، والثانوية في العبادة ، وأذكر أنه قال لأمة من الناس يختلفون في صلاة التراويح من حيث كونها أفضل في المسجد أم في البيت ، ومن حيث كونها فوق العشرين ركعة أم ثمان ركعات ، فقال أرى ألا تصلوها أصلاً .

والناظر في ظاهر العبارة يتهم الشيخ بأنه يدعو إلى إهمال التراويح ، والإعراض عنها ، وليس الأمر كذلك ، فإنه قال : إنَّ التراويح سنة ، والإصلاح بين الناس فريضة ، والفريضة مقدمة على السنة ، هذا فكر الرجل الذي تألم من شباب درسوا السُّنة عشرين سنة فلم يخرجوا منها إلا بسواك ولحية ، وهو والله لا يسخر من السواك ولا من اللحية .

وإنما أراد أن يبين أن الذين اعتكفوا على سنة رسول الله - ﷺ - هذه المدة الطويلة من الزمن كان عليهم أن يخرجوا مع السواك واللحية طلاب علم ، يدرسون الكيمياء والفلك ، والطب والهندسة ، والزراعة ، وغيرها من العلوم ، وأن

الفصل الثالث : التبادل بين علماء الدين والمبدعين  
يسبقوا الآخرين بحرًا وعلماً وحضارة ، وأن يخرجوا إلى الدنيا وهم قلوب رحيمة ، تعلمت معنى الرحمة والعطف واللين ، أدب الحوار سنة النبي المختار - ﷺ -

وأنا أقول : قد كان الرجل يلتقى رسول الله - ﷺ - لقية واحدة ، فيعود إلى قومه بغير الوجه الذي ذهب به إليه ، فما بالناس بمن أسلم وحسن إسلامه ، وعاش معه عمره ، أو بمن اعتكف على دراسة سنته مدة من الزمن على هذا المقدار الذي بلغ عشرين سنة ، أو يزيد ثم لم يخرج إلى الدنيا بوجه جديد وضاء ، مشرق يعبر عما استقر في نفسه من شعور بالحياة والأحياء من حوله ، قد امتلأ كيانه بالعدل والإنصاف وعدم الوقوف على الظاهر ، وغير ذلك من كل معنى بهيج ، يبعث النور ويرسل الأمل في طريق الناس ، الذي هو طريقه .

وقد ورد في صحيح مسلم قوله - ﷺ - : « مَنْ قَالَ : هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ » وللعلماء في ضبط ( أهلكهم ) وجهان :  
الأول : أنه مرفوع ، على أنه خبر المبتدأ « هو » أي هو أهلك الناس بهذا التصريح الذي قال فيه « هلك الناس » .

وذلك كالحديث الشريف الذي رواه البخاري في صحيحه ونصه : « مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِر فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا » أي رجع بها أحدهما وكانت فيه ، فقد يكون المتهم غيره بالكفر هو الكافر ، وقد يكون مخاطبه هو الكافر ، فمن يدري ؟  
من أجل ذلك كان اتهام الآخرين بالكفر منهيًا عنه من هذه الطريق المربعة (والطريق يذكر ويؤنث) وليس كالسباب الصريح في الكفر الذي هو دون الكفر المخرج صاحبه عن الملة ، أو في الفسوق الذي هو الخروج عن تعاليم الدين .

إن رسول الله - ﷺ - يحذر من تكفير بعضنا بعضًا خشية أن يكون المكفر هو الكافر فإذا ربط بين هذا الحديث وبين الحديث المشهور « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه

إِلَّا اللَّهُ ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يُقذف في النار » وجدت كره العودة إلى الكفر والاتصاف به مانعاً دون إطلاق الكفر على الآخرين .

والثاني : أَهْلَكَهُمْ ، بفتح الكاف ، لا بضمها ، وعليه فهو فعل ماضٍ مبني على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر ، تقديره « هو » و « هم » أو الهاء منها مفعول به ، والجملة خبر المبتدأ .

ويكون المعنى أن الذي قال : « هلك الناس » هو السبب في إهلاكهم .

ومن هنا يفتح باب الجهاد الذي ليس فيه إراقة دماء ؛ الجهاد من أجل إحياء الناس ، لا من أجل إزهاق أرواحهم ، جهاد يسهم فيه المبدعون بنصيب كبير ، فهم أهل إصلاح ، موهوبون في التعبير الذي يسبي القلوب ويأسرها ، يؤثر فيهم بفكره ودعوته ؛ حتى لا يهلكوا ، ويكون هو سبباً في إهلاكهم ، وإزهاق أرواحهم ، وهو ساعة يزهد وجدانهم ، ويضلهم عن الطريق الذي سماه ربنا - تعالى - السوي في قوله - جل شأنه - في آخر آية من سورة طه (135) : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ .

ساعة ينحرف بهم عن الصراط السوي إنما يزهد أرواحهم ؛ إذ لا قيمة للأرواح مع الضلال ، ولا معنى للحياة مع الشقاء .

### نصيب الأطفال من الإبداع

والمبدعون في حاجة إلى معرفة نصيب الطفل من إبداعهم ، وسوف يقول قائل ولا بد له أن يقول : إن هناك أدب أطفال معروفاً ، وهناك من تخصصوا فيه ، وأنا أقول إن فكري التي أدعو إليها هنا هي مراعاة نصيب الطفل في الإبداع الذي هو أشبه بمراعاة نصيبه في الميراث ؛ فإن الرضيع ومن هو دونه من الذي صرخ ثم مات له نصيب من ميراث مورثه كأخيه الوارث البالغ من العمر سبعين سنة يستويان في

القدر ، لكن يختلفان في التناول ، فذو السبعين يتناول ميراثه بيده ، أما ذو السبعة فيتناول وصيه الذي أمر بحفظ ماله ، ورعايته ، واستثماره حتى يكبر ، ويختبر ، ويدفع إليه ماله وهو بالغ راشد قادر على إدارته والانتفاع به ، وأنا أريد من المبدعين أن يجعلوا للطفل نصيباً من الإبداع يجده عندما يبلغ ترأثاً يفخر به ويتزود منه وينتفع ، لا أن يشب ويكبر على طلاس وألغاز نال منها الولايات أبوه وعمه وأمه وأخته .

إن لدينا ترأثاً من البشرية ندخره للمستقبل وما يقدم للأطفال من قصص البطولات والأساطير التي يُدعى أن الأطفال يحبونها ؛ لأن خيالهم خصب واسع ليس كافياً لبناء أمة المستقبل . وقد حفظ التراث لنا كلمات كانوا يهددون بها الطفل على نحو :

لَا تُكَيِّحَنَّ بَبَّه جَارِيَةٌ خَدَّبَتْهُ

وعلى نحو ما ذكره السهيلي في الروض الأنف حيث كان الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله - ﷺ - يرقصه بتلك الكلمات :

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ مَنَ عِشْتِ بِعَيشِ أَنْعَمَ  
فِي دَوْلَةٍ وَمَغْنَمٍ دَامَ سَجِيسَ الْأَزْلَمِ<sup>(1)</sup>

والطفل في سن الرضاعة لا يدري ما الأنعم وما الدولة وما المغنم ، وما سجيس الأزلم ومعناها : أبد الدهر ، لكن الطفل يحاكي ما يسمع ، وهو بلا شك يحفظ القرآن الكريم ، ولا يفهم تفسير ما يحفظ ، لكن به يتقوّم لسانه ، ويستقيم بيانه ، وتُنَمَّى به ملكته فلسنا بحاجة إلى معجم خاص للأطفال ننحرف به عن فصحي لغاتنا ، وإن كانت حاجته إلى اليسرى منها ضرورة ، وكذا حاجة الكبار ،

(1) الروض الأنف 1/ 132 .



فكيف ننمي فيه تلك الملكة ، عندما نخاطبه ، وعندما ننوي ادخاراً له عندما يكبر ،  
ويحمد لنا هذا الحفظ الذي كان منا من أجله!

وأى خلق زرعنا فيها عن طريق الخطاب الديني الذي شاهدنا هو عليه  
ونحن عبوس ، ولا يجب أن يرانا ؛ لأننا لا نبتسم في وجهه .

وأذكر في هذا السياق الحديث الصحيح المجمع على صحته أن رسول الله  
ﷺ - كان يأتي الصلاة وهو ينوي أن يطيل فيها ، فإذا دخلها وسمع بكاء صبي  
أو صبية تجاوز فيها وخفف شفقة بأمه .

فهل لي أن أقيس على ذلك ما يفعله المبدع بالأم فيؤثر ذلك في طفلها وعلى أبيه  
وعلى الدنيا جميعاً من حولها .

إنني أود أن يقرأ الطفل الصحيفة ، وأن يقف فيها على قصيدة مبدع ، وأن  
ينادي أمه أو أباه ويسأله أن يفسر له فيها كلمة غامضة ؛ إذ تذوق معناها ، وجذبت  
موسيقاها ، وراح ينهل منها لا أن ينظر فيها ويقول : ما هذا ؟ وبأي لسان تلك ؟  
وسوف يقول لي قائل :

ليس من الضروري أن يراعي المبدع الأطفال في قصيدة موجهة إلى الأطفال ،  
فإن من المبدعين من يرى الكبار ليسوا أهلاً لتناول إبداعه ؛ فهو يخاطب طائفة من  
المبدعين أمثاله والمثقفين الذين يفهمون لغته ، وهذا أعرفه ولا أجعله ولا أنكر أن  
تكون هناك مجالات خاصة بالإبداع ، لا يقبل عليها إلا من له اهتمام بهذا المجال  
السامي العالي ، الذي إن وجد ، ووجد له أهله ، فإن مطلبي يوجه إلى ميدانه  
كذلك ؛ حيث يعود النفع منه على الطفل بلغة مباشرة .

وأشبه ذلك بالغذاء الذي تتناوله الأم ولا يتناوله رضيعها ، لكنه يتناول أثره  
ونتيجته ؛ فالأم تأكل اللحم والدجاج والسّمك ، ويفرز ذلك منها لبناً مغذياً

لطفلها الذي لم يتناول اللحم والدجاج والسّمك مباشرة ، وهو في الحقيقة قد تناوله  
بطريقة غير مباشرة .

وهكذا الإبداع ؛ إذا خرج في أعلى صورة وفق هذا المنهج هضمه المتلقي ،  
وأفرز منه للدنيا رقة وحناناً ، أما إذا خرج هلوسة ، وكان أقرب إلى السريالية منه إلى  
العربية لم يفرز إلا ضياعاً للمتلقي ، وهو لمن تحته أضيّع

وقد قال رؤية :

الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهُ

إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ

زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ

وَالشَّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَجْهَلُهُ

يُرِيدُ أَنْ يُعَرِّبَهُ فَيُعْجِزُهُ

### نصيب المبدع نفسه من إبداعه

قد يتغنى المرء بالطبيعة ، وقد يتغزل في امرأة لا وجود لها في حياته أو كانت  
ذات يوم لها في حياته وجود ، قد يجوب الأرض بإبداعه قد يكتب في أدب  
الرحلات ، وفي الواقعية ، وفي التاريخ ، وفي شتى أجناس الأدب ، وأغراضه  
المعروفة في كتبه ودروسه ولا نصيب له فيها كتب .

ومن يقرأ المقابسات لأبي حيان التوحيدي ، وسير أعلام النبلاء للذهبي  
وغيرهما ، سوف يقف عند كثير من الكتاب - وهم بلا شك - مبدعون - حرقوا  
بأيديهم كتبهم قبل أن يموتوا .

ولذلك علل وتوجيهات كثيرة ، منها وأهمها أنهم أدركوا أن لا نفع فيها لغيرهم بعد مماتهم ، ومنهم من رأى أنه لم يتحر الدقة فيما كتب ، ومنهم من أصابته لحظة عمى ، فضنَّ بما كتب على البشرية ، وغير ذلك لكنني أقول كلمة أسر بها إليَّ الشاعر الكبير المرحف أحمد شفيق كامل وقد دعاني إلى بيته بجاردن سيتي - رحمه الله رحمة واسعة - :

لقد انصرف عني إلهام الشعر الغزلي وحل مكانه إلهام الشعر الديني ، وأنه شعر بأنه كتب كثيرًا عن الدنيا ، وآن الأوان لأن يكتب في المصير الذي ينتظره ، والذي يرحوه عند الله ذخراً يوم يلقاه .

ولست أناقش مَنْ أسمعني بعض قصائده الدينية في فكرته ، ولست أدعو إلى أن يكون جميع المبدعين متجهين إلى الشعر الديني أو الإبداع الإسلامي بمعناه المقيد في المدائح النبوية ، والتصوف والزهد ، ودعوة الناس إلى التفكير في الموت ، فإنني أرى الدعوة إلى الاستعداد للموت دعوة إلى مزيد من الحياة ؛ وذلك أن الذي يستعد للموت بالإعراض عن الحياة مريض ، لا يدري كيف يكون الاستعداد الحقيقي للموت عند المسلمين ، وهو إنما يكون كذلك بحب الحياة ، ولا يعني حب الحياة كراهية للموت أو بغضاً له ، وإنما الحب الذي يدعو إلى استثمار معنى الحياة ، حتى ينتفع بها الناس جميعاً هو حب في الموت الذي يجني بعده كل من زرع الحياة حظه وأجره وثوابه .

غاية ما هنالك أن المبدع لن يكون ذا حظ وافر من إبداعه إلا إذا دعا الناس بهذا الإبداع إلى خلق عظيم ، وشمائل كريمة ، ونبههم إلى ما شغلتهم عنه ظروف الحياة ، وقد اطلع المبدعون بلا شك على رسالة الغفران لأبي العلاء ، وفيها أسئلة موجهة إلى بعض أهل الجنة : بأي شيء غفر الله لكم ، وأدخلكم جنته فأجابوا بقولنا كذا وقولنا كذا .

أي كانوا مبدعين غفر الله لهم بمعان وردت في إبداعهم ، لا بضلال أطلقوا عليه إبداعاً . إنني أقول بهدوء : ما من مسلم بل ما من حيٍّ إلا ويعلم أنه مُلاقٍ ربه ، أو سوف تنتهي حياته ، وأن أعماله - إن كان مسلماً - محصاة عليه ، وأنه سوف يطلع على ما كتب وقدم من عمل وأن الله محاسبه عليه ، وأنه بلا شك يرجو رحمة ربه ومغفرته ، ويود أن يبيض الله وجهه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

وعلمه هذا يدفع به إلى قول الخير ، وإلى البعد عن السوء ؛ فلأن يهدي الله على يديك رجلاً خيراً لك من الدنيا وما فيها فما بالك إذا هدى الله على يديك أمة من الرجال والنساء والولدان ، تأثروا بأدبك فأضأت لهم الطريق ، وأوقفتهم عند مواطن الجمال في الكون والنفس ، وكشفت لهم اللثام عن معادن وجواهر في دنيا المعاني التي عميت عليهم فإذا هم مبصرون ، وساعة ترحل من الدنيا يبقى فيهم أثرك ؛ فكم من بيت قديم عاش قروناً من الزمان ، تتناقله الأجيال جيلاً من بعد جيل يتغنَّى الناس به في الشدائد فإذا هي مفرجة ، وفي الظلمات فإذا هي مبصرة ، وفي الخصومات فإذا هي صلح وصلاح ، ألا ترى إلى قول القائل :

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ      يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ  
وإلى قول المتنبي :

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ      وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكَرَامِ الْمَكَارِمُ  
وإلى قول شوقي :

وَمَا نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالتَّمَنِي      وَلَكِنْ تُوْخَذُ الدُّنْيَا غِلَابَا  
وإلى قول عمرو بن الإطنابة :

وَتَحْمِيلِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي      وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ  
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ      مَكَائِكَ تَحْمُدي أَوْ تَسْتَرْجِي



وقد قال معاوية : لقد هممت عن الانصراف يوم صفين فما ثبتني إلا قول عمرو بن الإطنابة :

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشْتُ مَكَانَكَ مُحَمَّدِي أَوْ تَسْتَرْجِي  
فلينظر كل مبدع ما قدّم لنفسه من إبداع نَمَى به شعورًا نحو الفضيلة ، وأيقظ به همة ، وحفر به في وجدان إنسان ، وأنطق به صمتًا لولا إبداعه لظل الدهر صامتًا فما نطقنا فينا معانيه ، وأذكر قول الأستاذ يوسف حلمي المصري حيث قال: كان في تغريدها صفاء للعقل وهناء للنفس ، ورضا للخواطر ، وكانت سجعات الأطيّار تحرك لواعج الأشجان ، وتوقظ كوامن الأحزان ، وقد وجدتني أثر سماعي لها أردد قول الشاعر :

رُبَّ وَرَقَاءَ هُتُوفٍ بِالضُّحَى ذَاتِ شَجْوٍ سَجَعَتْ فِي فَنَنِ  
وَلَقَدْ تَبْكِي فَمَا أَفْهَمُهَا وَلَقَدْ أَبْكِي فَمَا تَفْهَمُنِي  
فَبُكَائِي رُبَّمَا أَرْقَاهَا وَبُكَاهَا رُبَّمَا أَرْقَانِي  
غَيْرَ أَنِّي بِالْجَوَى أَعْرِفُهَا وَهِيَ أَيْضًا بِالْجَوَى تَعْرِفُنِي<sup>(1)</sup>

فهذا الأستاذ سمع غناء البلابل ، فاستحال من صوت في الأذنين إلى معنى في الشرايين حين وجد نفسه يردد هذه الأبيات .

ولله در شوقي حين قال في نونيته العملاقة :

يَا نَائِحَ الطَّلَحِ أَشْبَاهُ عَوَادِينَا تَبْكِي لَوَادِيكَ أَمْ تَشْجُو لَوَادِينَا

(1) دنيا المنى ص 20 ، 21.

وخاطب الطائر بقوله :

فَإِنْ يَكُ الْحَبْسُ يَا ابْنَ الطَّلَحِ فَرَقْنَا إِنَّ الْمَصَائِبَ يَجْمَعُنَا  
إن كلمة المبدع توحى بمجرد إطلاقها بالمعاني الجليلة السامية ، التي من شأنها إيقاظ النفس من سباتها ، وتبصيرها بما تغفل عنه ، وإعانتها إذا أبصرت على أداء التبعات المنوطة بها .

ومثلما يتلقى ذلك المتلقي من العالم بالدين البصير ، يتلقاه أيضًا من المبدع الخبير .

## الفصل الرابع

### حاجة الأمة إلى وسطية الدين والإبداع

#### من معوقات الإبداع

يظن كثير من الناس أن معوقات الإبداع والحضارة والثقافة وكل شيء يتمثل في الوقوف عند النص الديني .

استمعت إلى الأستاذ/ السيد ياسين مستشار مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام ، يقول : إن الحداثة والإبداع والإنتاج في العالم ما كانت إلا نتيجة إعمال العقل وإهمال النص .

وذلك في مساء الاثنين الموافق 16 / 2 / 2009 على قناة دريم الثانية الساعة الثامنة مساء .

ووافق ذلك أن كنت أبيضُ هذا الكتاب ، فسجلت هذه الكلمة هنا ؛ لأنها غيرها ترى في الدين قيداً على الإبداع.

والأستاذ السيد ياسين من العلماء المحترمين وهذا ما أدهشني وأزعجني ؛ كذلك أن تثار مسألة الدولة المدنية ، والدولة الدينية ، وبحث هذه الأمور ، والإلحاح فيها في وقت الضعف الاقتصادي والضياع الاجتماعي ، وزحف العدوان الاستعماري فيما أرى ، سعي للقضاء على الدين.



ولا أقول إن أحداً سوف ينجح في هذا وإنما أقول : إن النجاح سوف يكون على حساب القيم في فترة زمنية تتلوها فترات ، حتى يعود النور من جديد وقد طوانا الردى وذهب بنا الموت تحت التراب .

لقد مرت الأمة الإسلامية بفتنة كبيرة أريقت فيها الدماء وكان ما كان من ضياع ، وعاد نور الإسلام من جديد والله متم نوره ، وهو - سبحانه وتعالى - غالب على أمره ، وأود أن أقول إن الحداثة والإبداع والتقدم وكل الألفاظ البراقة لم يكن ولن يكون الدين والنص الديني حائلاً دون تحقيقها ، ومن يزعم غير ذلك فهو غير مدرك لحقيقة الدين .

وأضرب على ذلك مثالا واحداً تحته أمثلة متعددة :

لقد دعا الإسلام إلى الإنفاق في سبيل الله ، فهل قال أحد إن سبيل الله هو المسجد فقط أم أنه كل مصلحة ، وكل ما فيه مصلحة للناس ؟!

لقد بلغ من سرور عمر - رضي الله عنه - ما بلغ لما سمع أن أبا لؤلؤة المجوسي سوف يقدم للبشرية وللمسلمين رحي تدور بالهواء .

ولو أنه طلب في ذلك ميزانية وجنداً لما تأخر عنه عمر - رضي الله عنه -

فمن قال إن النص الديني يعطل البشرية ؟

والله - سبحانه - يقول في سورة المزمل الآية (20) ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ .

وقس على ذلك كل لفظ جامع لمعان بلا حصر ، تعبر عنها كلمة « خير » وألفاظ العموم ما أكثرها في كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -

والدين الذي أمر بالتداوي لم يكن ليغلق الباب في وجوه طلاب الطب ، فكيف يتداوى المريض ، وعند مَنْ ينشد العلاج ؟!

والدين الذي أمر بسؤال أهل الذكر إنما يعني أهل العلم في شتى صنوفه .

والحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فأولى الناس بها ذلك الباحث عنها وهو المؤمن .

والدولة المدنية القائمة على الديمقراطية ليست دولة معادية للإسلام ، فلا مشاحة في الاصطلاح ولن نقف عند الأسماء ؛ فالما إذا كان مسكراً كان في الإسلام خمرًا ، وتسمية الأشياء بغير اسمها أو أسمائها لا يصرفها عن حكمها .

إنما نقف حول تداعيات هذه النداءات وما وراءها من نبذ كل ما هو إسلام ، وطرح كل ما هو إسلامي وقد بينت هنا أن الأدب الإنساني هو أدب إسلامي من حيث دعوته إلى المكارم والفضائل والدنيا ؛ أعني علماء الدنيا المبصرين يعرفون أنه لا يوجد في الإسلام دولة دينية بمعنى أن الحاكم إله ، أو أن العالم منزع معصوم مقدس ، ولكنها دينية أي ذات دين ومبادئ من أهمها صون الدين ، وهو من مقاصد الشرح الأساسية .

إن جميع المصادر والمراجع والعقول تقول : لقد بدل الله الناس خيراً بمشرق نور هذا الدين ؛ أي أن الله - سبحانه - أنعم على الناس بهذا الدين .

ومن حمل الدين ورسالته إلى العالمين ؟ أليس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟!

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكر حلف الفضول ، ويقول : لو دُعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت ؛ لأنه حلفٌ تكوّن ضد الظلم والظالمين ؛ لذلك أقره ، وقال : لو دُعيت إليه في الإسلام لأجبت ، ومعنى ذلك أن الإسلام يقر كل ما هو عدل وكل ما هو علم نافع ، وكل ما هو إنساني رفيع .

فما هذه الهجمة الشرسة على الدين ، وتلك الدعوة إلى تفرغه من محتواه ، وإيقافه عند حد صلاة ركعتين ، وصيام أيام معدودات ، فإذا أردنا أن نتحدث عن الحياة فنحن أدرى بشئون دنيانا ، ونحن أعلم بما يصلحنا ويجعلنا متقدمين نحاسي الأمم المتقدمة التي صعدت إلى الفضاء ، وملكت زمام العلم ؛ لأنها أقصت النص الديني ، وطرحته بعيداً ، والتزمت بالعقل .

أليس من الإنصاف أن نقول :

إن هذه الدول ما تقدمت إلا بعد أن هيأت لأنفسها أي للمبدعين فيها مناخ الإبداع ، وما مناخ الإبداع ؟ أليس توفير أدوات الإبداع ؟!

وهل الإسلام يدعو إلى عمل دون أجر ، أو إلى بذل جهد دون طعام وشراب ، أو إلى علم دون قلم وقرطاس .

أليس من مناخ الإبداع إيمان الحكم والشعب واجتماع الإرادة على العمل المتواصل بلا فواصل .

وأليست هذه دعوة الإسلام ؟

ألم يقل ربنا في سورة الشرح الآيتين (7،8) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ .

فمن الذي علمنا الكسل والتواكل والدجل والشعوذة والوهن والضعف ، ومن الذي ضرب الأعور على عينه العوراء فقال : افعلوا ما شئتم فهي عوراء بضرب وبسلام !

إن كل مقومات الإبداع دعا إليها الإسلام وقد قال الله - ﷻ - في سورة فصلت الآية (53) ﴿سُئِرِهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ .

فهل هذا موجه إلى غير المسلمين يغزون الآفاق ويصلون إلى أعلى المستويات في الطب والخلايا الحية والميتة ، بينما يقف المسلمون يتفرجون ؟!

ولعلي أتمسك ببعض المعاني من خلال القراءة ، وأقوم بمحاولة للبحث عن العلة الحقيقية وراء هذا الموقف من الإسلام فمثلاً عندما يقول الدكتور يوسف عز الدين في الأستاذ فهمي المدرس الحزرجي : « كانت سفرة أوربا نافعة وسعت أفقه الثقافي ، تعرف على حضارة الغرب ، وهي سفرة قلما تتاح لمفكر عراقي في تلك الفترة من تاريخ العراق ، وقد استفاد من زيارته للجامعات الغربية ؛ فقد جلب معه صوراً متعددة للجامعات التي زارها دليل الإعجاب والتقدير وبالرغم من مكوثه في الغرب حوالي السنة والنصف أثرت مظاهر الحضارة الغربية في فكره ، وأخذ يقارن حالة الغرب المتقدمة مع حالة أمته العربية المتأخرة » <sup>(1)</sup> .

هذه العبارة وغيرها الكثير مما قيل في رفاة الطهطاوي وطه حسين ، وكل الذين سافروا إلى الغرب كيف يمكن تناولها ؟

إن تناولها يمكن أن يكون من ناحيتين :

الأولى : أن هؤلاء الذين أبدعوا ما كانوا ليدعوا لولا اطلاعهم على الحضارة الغربية ؛ فقد سافروا إلى ديارهم ، وتأثروا بها ، وعادوا إلينا مبدعين ينادون بالتغيير ، وقد تغيروا هم أنفسهم قبل أن ينادوا بالتغيير .

وبهذا سوف تقول : والحضارة الغربية إنما قامت على العقل لا على الدين ، فيا من ترجون حضارة هلموا إلى العقل ، وابتعدوا عن الدين الذي يوقف الحال والمراكب السائرة ؛ فحوى كلام الأستاذ ياسين وغيره .

(1) شعرفهمي المدرس ص 26 تحقيق ودراسة نقدية ط دار الأمين سنة 2004 الأولى .



وكان الدين والعقل طرفاً قضية يتصارعان فلمن تكون الغلبة ، إن غلب الدين فسوف نظل متأخرين ، وإن غلب العقل فالبُشرى لنا بالتقدم المرجو الكبير .

وما ذلك بصواب ؛ فللعقل في الدين منزلة ذكرتها في أكثر من موضع في هذا الكتاب .

والثانية : أننا نتناول هذه المسألة من وجهها ؛ فوجهها الصحيح أن هؤلاء الذين تأثروا بحضارة الغرب أشبه ما يكونون برجل وجد طعاماً لذيذاً شهياً لا يحرمه دينه ، فأكل منه ، ولم تصنعه من قبل أمه ، ولا رآه في بيت من بيوت قومه ، ولم تره عيناه في مطعم من مطاعم بلاده المنتشرة في كل مكان .

فلما عاد إلى ديار قومه وصف لهم ذلك الطعام ، وأراد أن يتذوقه كما تذوقه ؛ فإن الرائد لا يكذب أهله ، لكنه وجد قومه على تنازع ؛ منهم من ألف طعامه وطريقته ومنهم من قال : هات ، فتح الله عليك والذين أبوا إلا الطعام القديم المؤلف ، منهم من صد عنه ورماه بالتحريم ، ومنهم من رأى فيه شبهة ، ومنهم من توقف ، ولطالما توقف الجهابذة من الأعلام والفقهاء عند مسائل ، لم يقولوا فيها بحلال ولا بحرام .

والذي وجد الحضارة الغربية سبيل رشد ودليل حياة ما قال لنا : إن تلك الحضارة من ثمرات الأخذ بالعقل لا من ثمرات الأخذ بالدين ، وإنما قال لنا : إنه وجد هنالك إسلاماً بلا مسلمين كما وجد هنا مسلمين بلا إسلام .

وقد عشنا زماناً نردد فيه هذه العبارة التي نسبت إلى رفاعة الطهطاوي مرة ، وإلى غيره مرة أخرى .

واليوم تركناها ، وأصبحنا نردد : « هناك عقل بلا دين ، هنا دين بلا عقل » .

واستبدال عبارة بعبارة قد يكون انتقالاً من خطأ إلى صواب ، وقد يكون

انتقالاً من حسن إلى أحسن منه .

لكن استعملها هنا انتقال من صواب إلى خطأ ، وانتقال من حذر إلى خطر صريح .

ورحم الله الدكتور طه حسين حيث قال : لغتنا العربية يسر لا عسر ، ونحن نملكها كما كان القدماء يملكونها ، ولنا أن نضيف إليها من ألفاظ ، لم تكن مستعملة في العصر القديم .

فإن هذه الكلمة الداعية إلى الانتماء أولاً للغة العربية والاعتزاز بها ، تعبر صراحة عن إضافة لا عن هدم ، ولعلها من أسرار قول الأستاذ محمود أمين العالم : « إن المثقف العربي عندما أخذ يتطلع إلى الثقافة الغربية لم يكن خالي الوفاض تماماً من خبرات فكرية وسياسية وقيمية وتجارية وإنتاجية قريبة بشكل أو بآخر من خبرات تلك الثقافة الغربية » <sup>(1)</sup> .

وهذا يؤكد صحة المعنى الذي قررت ؛ أن المسافر إلى حضارة الغرب حضاري وجد آليات الحضارة التي يفتقدها في بلاده ، فقال : أعرفك ، واشتقت إليك .

ويقول الأستاذ العالم : « فعندما سافر الطهطاوي إلى باريس مثلاً كان مشحوناً بثقافة القرن الثامن عشر ، وبداية التاسع عشر في مصر التي أخذت تزدهر فيها ومبادئ عقلانية ليبرالية تجسدت على سبيل الرمز في الشيخ حسن العطار » ، وكذلك يقول : « وفي فرنسا عندما كان الطهطاوي يشاهد ثورة سنة 1830م كان يقارن ويقارب بينها وبين الثورة الهامية الجمهورية الشورية التي اندلعت في جنوب صعيد مصر قبل مولده بعشرات السنين ، لست أنفي أثر رحلته إلى فرنسا في تطوير فكرة ، ولست أنفي أثر الحملة الفرنسية على مصر ، ولا أثر الثورة الفرنسية عامة

(1) الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر ص 122 .

على الفكر العربي ، ولكن لا أراها نقطة البداية لما بعد الصفر العربي كما يقول كثير من المؤرخين والمفكرين »<sup>(1)</sup>.

وتعرض الأستاذ العالم - رحمه الله - إلى دراسة الدكتور عبد الباسط عبد المعطي : الإعلام وتزييف الوعي ، التي وصفها بأنها قيمة ، وهي كذلك نشرتها دار الثقافة الجديدة سنة 1979م وقد استند فيها الباحث على دراسة تحليلية لبرامج الإذاعة التليفزيون والكتابات الصحفية طوال فترة زمنية محدودة في أبريل سنة 1976م لينتهي منها إلى بيان الدور الخطير الذي تلعبه هذه الأجهزة ، وهذه الكتابات في تسطيح الوعي وتزيينه وتغيب الناس عن حقائق حياتهم<sup>(2)</sup>.

وأنا أرى هذه حقيقة ، ولم نعد في حاجة إلى دراسة تحليلية لفترة محدودة كالتى قام بها الدكتور عبد الباسط عبد المعطي ؛ فقد صار الأمر واضحاً في غير لبس ، وقد صار المثقف الواعي جاهداً في البحث عن شيء ذي بال على شاشات الفضائيات والأرضيات ، وعلى صفحات الصحف والمجلات وبلغه بعض المعلقين صارت أدوات طاردة للثقافية الحقيقية والفكر العميق ، وصارت سلعة تجارية تخاطب الغريزة وتلهب مشاعر الصغار - وما أكثرهم - وتتجنب الخطاب الذي يريح العقل ويهديه ، وينمي الفطرة السليمة ويدعها ويحافظ عليها برسم منهج سليم .

وما حال الخطاب الديني على تلك الآليات المسموعة والمرئية بأسعد حالاً من الخطاب الثقافي فأنت تجد الأعم الأغلب لا يبني شخصية إسلامية على مقومات الدين ، وإنما تجد خطاباً مسطحاً أشبه ما يكون بحواذيت الأطفال ؛ ههنا رقائق ، وههنا حديث عن مشكلات ربات البيوت ، وكان برنامجاً هادفاً محترماً مشحوناً بالثقافة والدين والتوجيه والنصح والإرشاد تقدمه إعلامية متمكنة في اللغة ، ذات

(1) السابق ص 122 .

(2) السابق ص 123 .

صوت مسموع ، لا صلة له بالانتساب إلى الغربان ؛ هي الأستاذة صفية المهندس - رحمه الله - وكان أبوها الأستاذ زكي المهندس عضو لجنة كبار العلماء واليوم تحول إلى سخرية واستهزاء ، ومؤانسة سخيفة .

وبين هنا وهناك أحاديث في المناسبات ، لا تساوي الوقت الضائع فيها فضلاً عن الأموال المهذرة في سبيل إخراجها ، وأحاديث جمعت بين ظاهر النص الديني وأصول الدجل والشعوذة ، تفسير الأحلام ، والاستشفاء بالقرآن الكريم ، لا عن طريق انتهاج حكمه وغيايته ، وإنما عن طريق قراءة آيات معينة مرات محددة وكتابتها ، وغسل تلك الكتابة بهاء يشرب وبه يغتسل المريض ، ولا أصل لذلك في الإسلام ، وأحاديث مشتملة على قولوا : لا إله إلا الله ، وأسمعونا الصلاة على حضرة النبي - ﷺ -

وعلى الطرف الآخر شاشات ادعى أصحابها أنها تصحبك إلى الجنة ، تتبنى بعض الفروع والمسائل التي تقضي بالكفر على كثير من الناس .

وتبحث عن عالم محترم يسوق إليك فكرة نابغة من الدين تعالج بها حياتك ، وتستعيد في نورها رشدك ، فلا تكاد تجد ، ويسعى أرباب البرامج الدينية إلى نجوم بلا ضياء ، يضحكون الناس ، ويتحدثون في أي شيء ، وليس مهمّاً أن يقدموا شيئاً ؛ فهم سلعة لجذب مشاهدين متصلين ، صار هؤلاء مطلب الجماهير ، كما صار المصطرخون من الذين أطلق عليهم « مطرب شعبي » .

يقول الأستاذ العالم : « ونساءل كذلك ما السبيل إلى مواجهة هذا النمط من الغزو الثقافي الإعلامي ؟ هل يتم هذا برفع مستوى برامج الإذاعة والتليفزيون والكتابة الصحفية ؟ إن القضية ليست قضية جودة فنية أو اختلاف في المستوى ، ولكنها قضية التوجه السياسي الفكري الأيديولوجي لهذه الأجهزة والكتابات ، أو بتعبير آخر : إن المسألة في صميمها هي هذه البنية الفكرية والاقتصادية



والاجتماعية والسياسية التي يتشكل بها ، ومنها النظام السائد ، فليست رسائل الإعلام والثقافة والتربية إلا أدوات أيديولوجية لإعادة إنتاج هذه البنية ذاتها <sup>(1)</sup>.

وفكرة الأستاذ العالم واضحة ، وهي أننا إذا أردنا أن نغير وجه الحياة الثقافية الكئيب ، ونستبدل الجميل به فعلينا القيام باستئصال جذوره التي هي محركته .

إنه لا يرى في الجودة علاجاً ، وإنما يرى العلاج في الثورة الحقيقية التي ينبغي أن تقوم ضد من هم السبب في هذا الغزو الثقافي وذلك التسطيط ، وله رأيه ، ووجهة نظره ، وأنا أدعوا إلى إبداع حقيقي يتحمل المبدعون فيه تبعة جوهره الذي يهدف إلى الإصلاح .

وعندي على ذلك أكبر دليل ، وهو أنني أتعامل مع تليفزيون الدولة منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، وقدمت برامج خصصت لي ، وما زلت أقدم ، ومن برامج القائمة إلى اليوم برنامج « الدين القيم » الذي تعرضه القناة السادسة الأرضية .

ولي فيه منهج ، لم يضعه لي أحد ، وأسهمت في عشرات البرامج ، فما قال لي أحد « قل كذا ولا تقل كذا » .

هذه شهادة حق هي دليلي على مخالفتي فكرة الأستاذ العالم ، التي أراها تمثل عمق تاريخه وتأثيره التاريخي والثقافي المشحونين بالثورات .

ولا أنكر أن يكون جهاز الإعلام مع اختلاف صوره ، صورة ناطقة باسم الدولة ، يعبر عن سياستها ، وينطق بلسانها ، ولعلي أناقش الأستاذ العالم ، ولا أعني بذلك مناقشة رجل لقي ربه وأدعو الله له بالمغفرة والرضوان ولسائر موتانا ، وإنما أناقش بعض فكره ، وفكر الرجل لا يموت بموته .

فقد عتب الأستاذ العالم على الشيخ جاد الحق علي جاد الحق - يرحمه الله - أنه كان يتجه إلى السلام بينما رأى شيوخ الإسلام - أي شيوخ الأزهر - أيام عبد الناصر أن السلام مع إسرائيل يخالف الإسلام .

وأستاذ العالم فأقول : إن هذا ليس تناقضاً بين الشيخ جاد الحق علي جاد الحق ومن سبقوه وإنما هو الظرف الذي يحدد الفتيا ، وتلك طبيعتها .

وأبسط مثال على ذلك أن النبي - ﷺ - نهى عن زيارة القبور ، ثم أمر بزيارتها ، وهذا ليس تناقضاً ولا تقابلاً ولا تعارضاً ؛ نهى عن زيارتها في أول عهد الناس بالإسلام لما يتصل بها وقتئذٍ من الشرك ، فلما استقر الدين في قلوب الناس ، ونالوا حظهم من آدابه وتعاليمه أمر - ﷺ - بزيارتها ؛ لأنها تذكر الموت .

وقد نهى - ﷺ - عن ادخار لحوم الأضاحي ، ثم قال بعد ذلك : كلوا وادخروا ما شئتم ؛ وذلك لاختلاف الحال ؛ حيث نهى - ﷺ - عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث ليالٍ في عام الشدة ، حتى يتخلصوا منها بالتصدق على الفقراء والمساكين ، فلما كان الرخاء ، أباح لهم الادخار ؛ لتغير الحال ، وكذلك الحال هنا في تلك المسألة ، فهناك في الفقه الإسلامي تأصيل لها ، فأمر الجهاد موكول إلى الحاكم ؛ إن رأى حرباً قال شيخ المسلمين : هو على صواب وإن رأى الحاكم سلاماً قال شيخ المسلمين : هو على صواب .

وليس معنى ذلك أن في الأمر اختلافاً ، لكن يشم من كلام الأستاذ العالم أن عالم الدين على هوى الحاكم ، وكثير من الناس ومنهم أهل الإبداع يظنون ذلك ، وتستغله طائفة من المنتسبين إلى الدعوة في صرف الجهاير عن علماء الإسلام الأصلاء يلقون في صدورهم أن هؤلاء العلماء ليسوا أهلاً للاستفتاء ؛ لأنهم يتبعون السلطة ، وهذه فكرة خطيرة ، نتج عنها فقدان الثقة بأكابر العلماء ، والانصراف

عنهم إلى السادة المستقلين من حاملي الدبلومات الفنية والإعدادية ، والمعاهد غير المعتمدة ، والهندسة والزراعة ، صار هؤلاء هم أهل الفتيا ؛ لأنهم لا يتبعون النظام ، فهل النظام كافر ؟ يَكْفُرُ من يتبعه ؟ وهل النظام جريمة وبالتالي قال هؤلاء المنتسبون إن البنوك ربا ، فاتجه الناس بأموالهم إلى أصحاب توظيف الأموال ، الذين خدعواهم باسم الحلال وأكلوا أموالهم .

ولدينا سؤال مهم :

هل ذهب الناس بأموالهم إلى شركات توظيف الأموال الوهمية هروبا من البنوك التي حَرَمَهَا المهندسون والزراعيون الذين اعتكفوا على جملة من الأحاديث والنصوص التي كانوا في حاجة إلى سنوات عديدة لفهمها ، إلى تلك الشركات الحلال أم طمعا في نسبة الـ 30% والـ 40% والـ 100% ؟

والحق أن معظم الناس سال منهم اللعاب وراء تلك النسبة الكبيرة حتى غرقوا في بحور الندم ، ولم يتعظ بهم غيرهم ؛ ففي كل يوم كارثة ؛ لأن في كل يوم شيخا يقول : البنوك حرام حرام حرام ، والربا آكله في النار ، وموكله في جهنم ، ومشاهده في لظى ، والساعي إليه في السعير ، وهكذا .

ومن ثم قال الأستاذ العالم في جريدة الشرق الأوسط التي نَشَرَتْ مباركتها اتفاقية كامب ديفيد : بأنها لم تنشره باعتبارها نشرت خبرا ، وإنما من قبيل الترويج لرأي ، وإن اتخذ هذا الترويج طابعا حياديا في ظاهره <sup>(1)</sup> .

وهو بذلك - وبلا شك - يريد أن يقول : إن شيوخ الأزهر - رحمهم الله - لم يقولوا شيئا من الإسلام ، باعتبارهم علماء نذروا عمرهم لخدمة العلم ، وإنما قالوا ما قالوه ترويجا لرأي الزعماء ، وإن كان هذا الترويج طابعا إسلاميا في ظاهره ،

والحق أنهم ليسوا كذلك ، وليسوا مروجين شيئا على حساب الدين بحال ، لكنها الفكرة المستريحة عند بعض الناس ومنهم المثقفون ، والتي ترى أن أجهزة الإعلام ورجال العلم بالدين أيديولوجية الحكام ، ووسيلة لترويج سياساتهم .

تماما كالذي رآه أدونيس في الشعر الإسلامي ؛ إذ قال بدهائه العجيب : إن الإسلام أدرك أن الشكل الشعري الجاهلي بنية لغوية تعبيرية ينفع بها العربي ، ويفهمها بسهولة الحياة اليومية ذاتها ؛ فبنى الشكل لكي يكون أداة وواسطة لنقل المضمون الإسلامي الجديد .

والأستاذ العالم ذكر هذا الكلام وشرحه بقوله : « كأنها الظواهر الأدبية مخططات إرادية واعية تقصد مقصداً وتفتعل افتعالا لخدمة أهداف معينة » <sup>(1)</sup> .

فانظر إلى تلك الفكرة التي رآها أدونيس ؛ إنه لا يرى اتخاذ شعراء الإسلام الشكل الفني للقصيدة الموروثة إلا عن مخطط ، كل شيء مخطط كل شيء وراء خطة ، هذا صحيح ، إن كان مدروسا يُبتغى به إصلاح الحياة .

وما هكذا الشأن هنا ، إن أدونيس ومعه الأستاذ العالم كأنه شاهد الرسول - ﷺ - وكبار الصحابة مجتمعون في المسجد أو في سقيفة بني ساعدة ، ويقولون : نحن الآن مجتمعون لبحث قضية الأدب الإسلامي أو الشعر ، هل نجدد في شكل القصيدة ؟ أم نبقى عليها ، كما وردت في الشعر الجاهلي ، ثم قال قائلهم : إننا لو جددنا فسوف يعرض الناس عن معاني هذا الدين الجديد ؛ لأنهم لم يألفوا ذلك النظام الشكلي الجديد ؛ فالأولى أن نبقى على ما ألفوه من وحدة الوزن والقافية ونصب فيها ما نريد .

وسواء أكان هذا المقصود في حياة الرسول - ﷺ - أم كان بعده ، فالأمر لا يختلف والشاهد واحد ، وهو التخطيط ، فمن قال ذلك ؟



وليس له من مصدر إلا تغذية الفكرة التي استقرت في نفسه من البحث وراء المخطط ، وأدونيس في كتابه صدمة الحداثة يقول ذلك ، وهو يدعو إلى التحرر من كل ما هو سلفي ، يقول الأستاذ محمود أمين العالم :

« إنه دعوة حارة - كما يقول في الجزء الأول من الكتاب - إلى وجوب تحرير الفكر العربي من كل سلفية ، ووجوب إزالة القداسة من الماضي ، واعتباره جزءاً من تجربة أو معرفة غير ملزمة إطلاقاً ، والنظر إلى الإنسان ، على أن جوهره الحقيقي هو في كونه خالقاً معبراً أكثر منه وارثاً تابعاً » .

وبعد قليل مع شيء من الصبر تصل إلى المقصد الأساس من هذه الدعوة الحارة ، وهو نبذ الدين وطرحه خلف الظهر يقول الأستاذ العالم : « ومنحى الثبات كما يقول يقيم الحياة والإنسان والثقافة على مطلق إيماني لا يتغير .... » <sup>(1)</sup>.

هذا هو الهدف ، الإيمان لا يتغير ، والحياة تتغير فالإيمان ميراث جامد ، وعلينا كما يقول أدونيس ، أن نتخلص منه ؛ لنفيق إلى الإبداع الحقيقي ؛ من حيث النظر إلى الإنسان الذي هو خلاق مبدع ، يدسون السم في العسل ولعلي لا أبعد كثيراً حين أذكر لأدونيس الداعي إلى التحرر من كل ما هو سلفي ، ومن كل ما هو موروث قوله :

نَتَحَاوَرُ بِالْأَرْجُلِ

بِحَبْرِ الْمَسَامِ وَكَلِمَاتِهَا

وَنَلْهُو فِي مَمَرَاتِهَا الْمُقْنَعَةِ

فَجَاءَ

يَجِيءُ الْحَمِيمُ ، تُومِي الصَّاعِقَةَ

نَسْتَقِظُ وَيَجْرِي كِلَانَا وَرَاءَ رَأْسِهِ

فِي حَنِينِ السَّكَنِ وَالْإِقَامَةِ وَأَمْوَاجِ الرِّكْضِ

وَرَاءَ الْوَطَنِ الْآخِرِ

الضَّائِعِ الدَّائِمِ

وعجباً للمعلق عليها حيث يقول : « لقد نتج هذا الغموض والإبهام عن اتجاه القصيدة الجديدة إلى العمق الذي يكسب القصيدة مقدرة رمزية إيجابية » <sup>(1)</sup>.

وبمنطق الأستاذ العالم وأدونيس وغيرهم ، أقول : ما الخطأ التي هي من وراء هذا الكلام الذي قال فيه الغزالي - رحمه الله - لم يحو فائدة ، وأي عمق فيه كما يقول الدكتور السعيد الورقي وما المقدرة الرمزية الإيجابية .

إن المجال هنا لا يتسع لسرد المزيد من النصوص التي تلقاها أساتذة في الأدب والنقد بنحو ما قاله الدكتور السعيد بالتعليق بتركيبات لغوية أراها أيضاً إبداعية عجيبة ؛ لأنها غريبة .

ولست هنا في موضع الناقد ، فرسالتني في هذا الكتاب أن أبين أنه لا مفارقة بين الدين وبين الإبداع الحقيقي الذي ينمي وجدان المتلقي ، وفي هذا السياق أريد أن أبين أن السلفية المظلومة والتي صارت مصطلحاً مرعباً لكثير من الناس ، هي الدعوة إلى الحياة والتطور ، والتقدم وكل ما فيه خير وإسعاد للبشرية ، وليست سلفية من يرى أن البنطلون حرام ، وأكل الدجاج مشوياً بدعة ، فهذا ليس سلفياً ، وإنما هو مريض لا أدري من نسبه إلى السلف الذين فاضت أعينهم بدمع الرحمة والإشفاق ، وأخذوا روح الدين وعاشوا بها ، وما زلنا في حاجة إليهم باعتبارهم دعاة حياة قدموا الخير للبشرية .

(1) لغة الشعر العربي الحديث للدكتور السعيد الورقي ص 167 ط دار المعرفة الجامعية سنة 1998 .

وأختم هذا الفصل بحديث البخاري الذي ورد فيه أن النبي - ﷺ - قام من نومه يضحك لما بشره الله به من مستقبل أمته ؛ حيث يركبون البحر كأنهم الملوك على الأسرة ، حتى أَلَحَّتْ أُمُّ حَرَامٍ - رضي الله عنها - أن يدعو الله لها أن تكون منهم ، وقد كانت .

فالنبي - ﷺ - لم يقيم من نومه قائلاً : أعوذ بالله من بدعة ركوب البحر ، لقد رأيت أمتي يركبون السفن على أسرة ، كأنهم الملوك ، وتلك بدعة .  
إنما سرّه ذلك .

ولكن ساءه ما نزل من الفتن ، وقال فيما رواه البخاري أيضاً : رب كاسية عارية ، إنه يود كاسية تركب البحر والطيارة وتغزو الدنيا كلها وهي كاسية .

ونحن نريدها عارية باسم التقدم والحضارة ؛ فالكاسية هي التي كانت تركب الناقة ، أما التي تركب البحر والجو ، فيجب أن تكون كاسية عارية ، لو كشفت عن بدنها كانت متحضرة مجددة ، ولو سترت نفسها كانت سلفية بغیضة .

وكذلك الشاعر ؛ إن نظم إبداعاً على وزن وقافية التزم أو جدد - فالأمر فيه سعة - وصب في هذا الوزن كلاماً له معان متصلة بواقعه ، لكنه على أصول الكلام العربي المعروف ، وكان من آيات إبداعه أن كلامه واضح كان وارثاً وتابعاً ممقوتاً .

أما إذا ركب الشطط ، وقال ما لا يفهم كان ابن الثقافة والإبداع ؛ لأنه تحرر من قيود الموروث البغيض ، فهل هذا إنصاف ؟

ورحم الله الأستاذ العالم حيث قال : « حقاً إن كل تغيير في المضامين الجديدة يستتبعه تغيير في أشكالها ، ولكنها أشكال تخدم المضامين الجديدة لا تطمسها ولا تصبح هدفاً في ذاتها أو غريبة عن الحياة ، وما أكثر الأشكال القديمة التي

تستطيع أن تعبر كذلك عن المضامين الجديدة ، إن القضية قضية ملاءمة بين الشكل والمضمون من أجل تحقيق أكبر قدر من التعبيرية عن المضمون » <sup>(1)</sup> .

ونحن في حاجة إلى مواءمة بين الفكر الديني الذي لم ولن يختلف عن ركب الحضارة والإبداع وبين الفكر الثقافي الذي أعده لساناً حياً ينطق بمعاني الدين ، ولكن على عزف مختلف .

### حاجة الأمة إلى الوسطية

أتعب العلامة محمود أمين العالم نفسه وأتعبنا معه في بحثه « ثنائية الأرض - السماء - في الفكر العربي الإسلامي المعاصر » وفي النهاية لم يصل إلى حل ، ولم يقدم اقتراحاً سوى قوله في خاتمة بحثه الذي استعرض فيه الثنائية في الفكر الديني والثقافي والأدبي : هل أستطيع أن أقول في النهاية إن مستقبل العالم العربي وإمكانية تحريره من التخلف والاستغلال والتبعية رهن بحسم هذه الثنائية المزدوجة في الواقع العربي والفكر العربي على سواء » <sup>(2)</sup> .

هذه آخر كلمة وصل إليها المفكر الكبير الراحل محمود أمين العالم ، وإذا أردنا أن نصل إلى هذا الحسم فما سبيلنا إليه ، وماذا قدّم الاستاذ العالم من خلال رحلة شاقة موجزة معه في هذا البحث الذي رجع فيه إلى (36) ستة وثلاثين مرجعاً ، منها دراسات في الفكر العربي للدكتور فخري ماجد ، والفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور البهي ، وخصائص التصوير الإسلامي ومقوماته لسيد قطب ، ورسالة المؤتمر الخامس لحسن البنا وتجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمود ، وهي في الحقيقة ستة وثلاثون هامشاً لا مرجعاً ، لكنني ذكرتها على الترقيم الذي ذيل به بحثه ، وبدأ فيه باسم العائلة للمؤلف كأنه في تذاكر الطيران

(1) مفاهيم وقضايا إشكالية ص 224، 225 .

(2) الوعي ص 303 .



فهو يقول البهي محمد ، والبنا حسن ، والعالم محمود أمين - ما علينا - وأول شيء خطر ببالي وأنا أقرأ بحث العالم ، ماذا لو قرأت هذا البحث على فلاح قديم من ملايين الفلاحين في بلادنا العزيزة ، تصورت ، وليس لي القارئ الكريم أن أذكر بعض النصوص التي أدعوه إلى هذا التصور معي ، ماذا لو قرأت على مسمعي فلاح قديم قول الأستاذ العالم : « إن الإسلام دين توحيدي ، ولكن دعواه تتضمن رؤية ثنائية تجمع بين الدين والدنيا ، والعبادات ، والمعاملات ، الروحانية والمادية ولكن يختلف الموقف من طبيعة العلاقة بين طرفي هذه الثنائية بحسب الملابس والأوضاع التاريخية المختلفة » <sup>(1)</sup>.

وقوله : « إلا أن البحث عن جوهر الفكر العربي الإسلامي ، وعن خصوصية هذا الفكر ، وخصوصية حضارته ما زال سؤالاً دائراً حائراً منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم ، والثنائية في صورتها المتوازنة أو المتوازنة تكاد تكون أبرز الإجابات على هذا السؤال ، بل تكاد تكون بحق ، القسمة الرئيسية في مختلف التجليات والممارسات الدينية والفلسفية والأدبية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية للفكر العربي الإسلامي الرسمي أو الأيديولوجي السائد في العصر الحديث » <sup>(2)</sup>.

إن الفلاح النشط سوف يتساقط مني متصدعاً بصداعه الأيديولوجي الذي يقول لي : رحماك ، ولن يفهم شيئاً .

وأعلم أن هناك من يضحك على تلك الفكرة ويقول لي : وهل تظن أن الأستاذ العالم يكتب ذلك لفلاحك القديم أو الحديث ، إن هذا فكر راق يخاطب به المفكرين والمبدعين الذين يعرفون مفرداته وتاريخه ، وما إلى ذلك ؟

(1) الوعي ص 295 .

(2) الوعي ص 294 .

وأقول لهذا الضاحك - ساخراً - أضحكك الله سنك ، وأضيف إليك ما أنت به أعلم ، وهو أنني لو قرأت مثل هذه النصوص على طلاب الجامعة وبعض طلاب الدراسات العليا ، فلن يختلف موقفهم كذلك كثيراً عن موقف الفلاح ، فليس أمامنا إلا أن نقول إن المخاطب بهذه الكلمة الصفوة القليلة النادرة التي تعاني أزمة الثنائية ، والتي منها الدين والدنيا .

ولست أرى في ذلك من ثنائية ، وليس هناك تعارض بين الدين والدنيا ، فقد جاء الدين لعلاج الدنيا وإصلاحها ؛ فلا ثنائية إلا من حيث النظر إلى المعطوف والمعطوف عليه ؛ أي من حيث عد الكلمات .

وأعود إلى المثال الذي ضربته ، وهو أن الأم المرضعة تتناول اللحم والدجاج والسّمك ، ويتناولوه رضيعها لبناً مغذياً من صدرها .

والصفوة من الناس كالأم ، إذا تناولوا هذه القضايا بهذا الشكل ، فما عسى أن تخرج صدورهم للجماهير التي تتطلع إلى توجيهاتهم ونصائحهم ، فالأمر خطير فيما أرى ، وبعض الذين أشار إليهم الأستاذ العالم في بحثه من الأحياء وما زالوا يتحدثون إلى الناس ، ولا يفهم أحد منهم شيئاً ، ومعنى ذلك أنهم يرددون تلك الكلمات بحروفها ومعناها ، وهم لا يقولون ذلك في إذاعة موجهة إلى الصفوة ، وإنما يخاطبون كل الناس ، فهل نقول لمعظمهم : لا عبرة بكم ، ولا خير فيكم ، واضربوا برؤوسكم كل جدار ، إنما يخاطب هؤلاء الصفوة ، ولماذا نفعل هذا ، ولا ننقل عبر الأثير محاضرات الأساتذة في قاعاتها المختلفة وتخصصاتها المتنوعة من الطب والهندسة والنحو على اختلاف مدارس وآراء علمائه وشواهدهم ، والعراك الفكري الذي غايته في النهاية إصلاح المنطق ، أي اللسان الناطق ببيان ، لكل ذي شأن .

إن الأستاذ العالم لا يرى للإسلام جوهرًا ثابتًا في فكره قديمًا وحديثًا ، وعلى حد قوله : فما أكثر التيارات والاتجاهات المتعارضة والمتصارعة التي تشكل التاريخ

الحي لهذا الفكر ، والقول بجوهر الفكر العربي الإسلامي أو للشخصية العربية أو للحضارة العربية كما يفعل الكثير من الدارسين والمستشرقين ، قول تجريدي غير تاريخي ، يطمس تلك التيارات والاتجاهات ، بل يسعى لتجميد الرؤية الموضوعية لإمكانيات وآفاق تطور هذا الفكر ، بل إذا كان هناك إسلام واحد يتجسد في نصوص القرآن والسنة فليس هناك إسلام واحد في الممارسات التاريخية والاجتماعية المختلفة والتي تتخذ من تفسيرها الخاص للقرآن والسنة سنداً لمشروعيتها الخاصة ، ولهذا - كذلك - لا يمكن القول بأن الفكر العربي الإسلامي المعاصر هو مجرد امتداد للفكر العربي الإسلامي القديم مهما تشابهت بعض ظواهره ، فكل فكر مرتبط ببنية التاريخية والاجتماعية هو تعبير عنها ووظيفة فيها<sup>(1)</sup>.

ومن حقنا أن نختلف مع الأستاذ العالم فيما رآه فليس هناك إسلام متعدد ، إنما هو الإسلام الواحد ، والخلاف في الفهم وارد ، ولا يعني أن الإسلام يتعدد بتعدد الخلاف ، وخير مقال على ذلك أن النص نفسه يسمح بهذا الخلاف ، وهذا دليل على رحمة الله وسعته بعباده ؛ فقد قال النبي - ﷺ - « لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة » ففهم بعض الصحابة أن ذلك من قبيل الحقيقة ، وفهم آخرون أنه من قبيل المجاز ؛ فبعضهم صلوا العصر بعد أول وقته عندما وصل ، بينما صلى آخرون العصر في أول وقته وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فلم يخطئ أحداً .

وأنا أفهم أن هذا ليس مراد الأستاذ العالم ، وأن مراده الفكر الفلسفي والأيدولوجي الذي أسس مدارس فكرية متعارضة متقابلة ، وما أود أن أكتبه هنا أن الإسلام جمع الشتات وألف بين متعارضين ، ووحد بين متفرقين وحذر من الفرق ، ودعوته دعوة إلى احتواء المتنافرين ، وفتح باب التوبة للعاصين ، وأمر بالطاعة ولو كان الأمير عبداً حتى لا تتفرق الأمة ، ويذهب ريحها .

إنَّ الخلاف الوارد في الفكر من ينبوع واحد يختلف عن الخلاف الوارد في الفكر من ينابيع شتى .

ونحن في حاجة إلى الوسطية التي هي العدل ، والعدل في الأحكام معناه عدم النزوع إلى طرف دون طرف ، كما يذكر الأستاذ العالم المصّر على وجود هذا النزوع ، نحن في حاجة إلى الوسطية بمعنى الاعتدال والتي أشار إليها الحديث الكريم الذي رواه البخاري « سدّدوا وقاربوا » .

وسطية بلا تطرف ، ولا تفريط ، وسطية تخاطب الأمة بما يصلح أمر دينها ودنياها دون القول بالثنائية والصراع ، والإغراق في أحد طرفيها دون الآخر .

وهذا حل لا يراه الأستاذ العالم حلاً فقد ذكر أن الذين تعرضوا لحل النزاع بين الثنائيات جاءوا بطرف ثالث ، ونصه :

« مرة أخرى نجد أن القول بالثنائية يفضي إلى القول بموقف ثالث »<sup>(1)</sup>.

وكما نطمح في أن يقول لنا الأستاذ حلاً لا يفضي إلى موقف ثالث ، لكنه لم يقل . فلم يبق إلا الخوض مرات ومرات في هذا النزاع الذي لا ينتهي إلى حل ، ثم ماذا بعد ؟

وكما هو الحال في مناقشة السادة المثقفين ، كذلك يكون في مناقشة السادة المبدعين والسادة علماء الدين ، إننا في بيت يحترق ، والواجب على جميع سكانه أن يهبوا لإطفاء الحريق ، كلنا ساكنوه ، وبعد أن ننقذ بيتنا من الدمار نجلس يغازل بعضنا بعضاً بالكلام في الثنائية وغير الثنائية .

إنَّ أماننا نار الحريق التي تتمثل في ضياع القيم والعقود وتقطع الأرحام وغيرها من الوشائج الاجتماعية ، والبطالة ومشكلات المرور ، وفقدان الذوق في



إن ألوف الصفحات من الأعمال الإبداعية كما يراها أصحابها وكذا مئات القصائد ، والكتب الدينية كذلك لا يزيدك الاطلاع فيها وعليها إلا إرهاق الفكر والبدن ، وضياح الوقت حيث لا تخرج منها بفائدة ؛ كالحديث الذي معظمه لغو .

ومن ثم كان قصص القرآن أحسن القصص ؛ لذكره المهم من المواقف والشخصيات ، وحذف ما هو معلوم ، واقتران القصة بالعبارة وغير ذلك .

ومن ثم كانت تلاوة القرآن الكريم عبادة ، وهي عبادة مقرونة بآثار المنفعة في حياة المسلم والنفع للناس جميعاً ، والقرآن من خصائصه أنه لا يُمَلُّ على كثرة تكراره ، ولا يَخْلُقُ جديده ، ولا تفنى خزائن مدده ، ولا يبلى عطاؤه ، رُوي أن رجلاً كان يصلي بابه ، وكان يقرأ آية واحدة يكررها في كل صلاة حتى زعم ابنه أنه لا يحفظ غيرها فلما سأله قال له :

- كم مرة سمعتها مني ؟

قال : مائة مرة .

قال : والله ما قرأتها إلا واستحضرت لها معنى جديداً في كل مرة ، ولا يعني ذلك ضرباً من ضروب المقارنة بين كلام الله - وَجَّكَ - وكلام البشر ، وإنما هو التنبيه إلى إبداع يغني ويثري ويفرض إبداع مؤلفه على المتلقي أن يعود إليه مرة بعد مرة .

ولا تبحث في عمل عن ملمح من ملامح الإبداع خصوصاً في الشعر إلا أعياك الوصول إليه والتوقف عنده ، وذلك في شعر المنتسبين إلى الشعر لا المبدعين الحقيقيين .

فقد تعثر في القصيدة الطويلة على بيت واحد ، تستطيع أن تصفه بالإبداع ، فمثلاً أنا لم أجد في قصيدة للشاعر فهمي المدرس وهي طويلة غير هذا البيت :

وَأَذْكُرُ مَصَارِعَ أَحْرَارٍ لَهَا نَبَأٌ تَلَقَّاهُ بِالْدَّمْعِ مَكْتُوبًا عَلَى الْبَصْرِ  
ومطلعها:

جَرَّدَ حُسَامَكَ وَارَكَبَ هَامَةَ الْحَطَرِ وَأَضْرَبَ رِقَابَ الْعِدَا إِنْ كُنْتَ مِنْ مُضَرٍ

لكنها على طولها تطبيق كما قلت على البسيط من بحور الشعر :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن  
بِخَبْنِ العِروِض والضرب .

ولا يتسع المجال هنا لمزيد من الأمثلة ، على عكس ما تأخذك القطعة الصغيرة من الأبيات ، والتي لم تبلغ مبلغ القصيدة فإذا بك تحفظها ، وتستشهد بها ، وبها تستأنس وكأنها صارت مثلاً سائداً ، ولكنه مثل فيه إبداع ، ومن ذلك قول القائل :

فَيَا عَجَبًا لِمَنْ رَبَّيْتُ طِفْلاً أَلْقَمْتُهُ بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ  
أَعْلَمْتُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي  
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

ونحو ذلك كثير ، وتاريخنا الأدبي حافل بالإبداع ، كما أنه حافل بمسببات الصداق ، ونحن في مرحلة أحوج ما نكون فيها إلى الإبداع في شتى مجالاته العلمية والأدبية والثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدين ليس حجر عثرة في طريق الإبداع ولا أصحابه .

## الفصل الخامس النشر ديناً وإبداعاً

### النشر قبل الإسلام

أود أن أذكر في هذا الفصل شيئاً غير مألوف ، ألفناه في الكتابات الأدبية المتخصصة التي عُنت بإلقاء الضوء الكاشف على بعض النصوص الأدبية قبل الإسلام وبعده ، وقد بُذل فيها من الجهد ما هو مشكور بلا شك ، وكانت بمثابة الضرورة العلمية إلينا ؛ فقد بينت لنا مناحي النشر واتجاهاته ولغته وأساليبه وأثر الإسلام بوجه عام على اللغة والأدب ، ورافقت الإنتاج الأدبي النثري ؛ مراحلها وتطورها ، وما ترجم من نحو كليله ودمنة وغيرها ، ومدارس النثر الأدبية وتطورها حتى أشرق فجر الصحافة وانتقل موكب النثر الفني من عناية بزخرف الألفاظ ، إلى عناية بوضوح الفكرة وسهولة الألفاظ التي هي من مقتضياتها ، وتنوع ضروب القصة والرواية والأقصوصة ومدى التأثير بالأدب الأجنبي الذي ترجمناه ، وسرنا على منواله مسخرين مطيته نحو مجتمعاتنا وقضاياها ، وغير ذلك .

والقارئ في هذه الكتابات المشهورة ، لا شك أنه مر بقضية النظر في أيهما أسبق ؛ الشعر أم النثر ، ولعله مثلي يرتاح إلى الرأي القائل بأن النثر أسبق ؛ لأن الشعر كلام موزون مقفى ؛ فهو مرحلة تالية لكلام موجود ، لكنه ليس على منوال الشعر ، فلا بد أن يسبق الشعر كلام كان ، وهذا الكلام هو النثر ، وهو كلام كل إنسان بلا شك أنعم الله عليه بلسان وشفيتين ؛ ليعبر عما في نفسه ويخاطب مجتمعه ، ويعرب عن احتياجاته .



وإذا كان النطق في ذاته آية من آيات الله ، بل إن من آياته - سبحانه وتعالى - أن تختلف لغات هذا النطق وتختلف لهجاته ، ألا ترى إلى قول الله - ﷻ - في سورة الروم الآية (22) : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَبَائِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ بكسر اللام ، وإذا كان اختلاف الألسنة آية من آيات الله - تعالى - يقف عليها العالمون أي العلماء ، وقد أوتر جمع السلامة هنا دون التكسير لمناسبة الآية ؛ حيث إنه جمع العقلاء بخلاف جمع التكسير ، وكنا مأمورين بالعلم ، وكانت أول آية نزلت هي قول الله «اقرأ» ، دل ذلك على أن معرفة اللغات واللهجات المختلفة من سبيل الوصول إلى الوقوف على آيات الله - ﷻ -

وإني أعتقد أن هذه الآية الكريمة بمثابة الدعوة إلى اللغات الأجنبية ، والتعمق فيها ؛ لأنه بقدر تعمقنا يكون إدراكنا لآيات الله - ﷻ - والدليل على ذلك قول الله - تعالى - في سورة فاطر الآية (28) : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي أشد الناس خشية لله - ﷻ - هم العلماء والعلماء أهل التعمق لا السطحية ، والوقوف على كوامن الأسرار الدقيقة ، لا الوقوف على الشيء ظاهره مدة دقيقة ، هناك فرق بين أن تقول «سبحان الله» على مشهد أعجبك منظره ، وأن تقول «سبحان الله» على مشهد أعجبك ما وراء هذا المظهر والمنظر الذي أخذ بعينيك ، ثم أنساك إياه مشهد آخر قد يكون يذكرك به ، وقد يمحوه لفرط جماله من ذاكرتك ، كما قال الشاعر :

مَحَا حُبُّهَا حُبَّ الْأَوَّلَى كُنَّ قَبْلَهَا

وإذا كان جميع الناس - إلا من حُرِمَ - يتكلمون فلا شك أن جميعهم ليسوا مبدعين ، فالإبداع استثناء دائم ، في كل شيء ، حتى في العبادة ألا ترى أن الله - ﷻ - يقول في سورة سبأ الآية (13) : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ وهذا القليل فيما

أعتقد هو المبدع في الشكر الذي عرف أنه باللسان نطقًا ، وبالقلب اعتقادًا وبقينا وباليد عطاء وإحسانًا .

نعم ؛ فأنت تسمع من عبارات الشكر كل لسان ولكنك لا تصل بأذنك إلى شكر القلوب وقد ترى الأيدي تمتد بيضاء ، فتظنها شكرًا وقد تكون رياء ، فالحكم هنا لمن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وقد تجلّى الإبداع وفق معايير وقف عليها العلماء في النشر الجاهلي ، في حكم ومواعظ ، وأمثال ، وخطب في مناسبات متعددة .

ولدينا سجل حافل بذلك كله أو بما استطاع العلماء جمعه مما حفظه المسلمون الأوائل الذين عاشوا هذه الحياة ، ودخلوا الإسلام وهي في عقولهم ووجدانهم ، أو إن شئت قلت في ثقافتهم ؛ فهذا نتاج البيئة التي لم ينسلخوا عنها ، بيد أن الإسلام أقر منها ما يتسم بالإنسانية ولا يتعارض مع مبادئه التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولا أود أن أقول ( النشر الجاهلي والنشر الإسلامي ) ، وإنما أود أن أقول إن الإسلام ارتقى بالمبدعين والإبداع ؛ فخطيب رسول الله - ﷺ - الذي دعاه ليرد على خطيب الوفد لم يدخل مدرسة أدبية إسلامية تعلم فيها الأسس والعناصر والمميزات الخاصة ، وإنما هو مسلم عرف ما يرضي الله - ﷻ - فقاله ، وعرف ما يغضبه فأمسك عنه .

وقد تأثر بالقرآن الكريم لغة وبيانًا بلا شك ، والقرآن قد صقله لأنه ابن اللغة الذي يتأثر بالأعلى والأنصح .

وقد قرأنا في صحيح البخاري أن النبي - ﷺ - قال « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » ومن سمع رسول الله - ﷺ - يعلم أن هذا قول مأثور عن العرب ولا شك أنه يعلم مراد العرب حسبما كانت عليه عاداتهم فهم ينصرون أخاهم ظالمًا بمزيد من ظلم ، وينصرونه مظلومًا برد مظالمه إليه .

وهم يعلمون أن الإسلام لا يدعو إلى الظلم ؛ لذا كان من مقتضيات الفكر الإسلامي الذي يتوقد في صدورهم يومًا من بعد يوم ، بل ساعة من بعد ساعة كلما نزل الوحي ، وأضاء النبي - ﷺ - القلوب والعقول بنور ربه الذي هداه وهدى به وهدى له ، كان من مقتضيات هذا الفكر أن يقولوا له : عرفنا كيف ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا يا رسول الله ؟

فيبين لهم ولنا - ﷺ - أن نصره ظالمًا إنما يكون بمنعه وردعه عن الظلم الذي هو فيه فذلك نصر له .

وقد يكون الفكر من الإبداع بمكان ، أن تُبقي على اللفظة كما هي ، ولكن مرادك يختلف عن مراد من أطلقها ، فهي باقية على لسانك ، فلتبق ولكن على قلبك أن يفكر في هذا التحول الذي طرأ عليها ونقلها من ظاهرها الباغي على باطنها العادل.

### النثر سعة

وكلما ذكرت السعة في الكلام ذكر النثر ، وذلك على عكس الشعر ؛ فالشعر ليس سعة ؛ لأنه كلام مُلتَزَمٌ فيه بوزن وقافية ، وإن كنت أرى أن هذا التعبير لا ينطلق على المبدعين فيه ؛ فقد قيل إن جريًا يغرف من بحر ، ومن كان يغرف من بحر كان في سعة لتمكنه وسهولته عليه ؛ فما يراه الفرزدق صاحبه ومعاصره ومناقضه أصعب من خلع ضرس ، يراه هو غرقًا من بحر دون معاناة ، وقد تكون الصعوبة البالغة الدامية معناها الحيلة والنظر والتدفق ، فزهير شاعر الحوليات الذي يراجع ويدقق ، ويغير ، ويبدل ، ويضيف ، ويحذف ؛ كل ذلك من أجل إخراج عمل يبقى ، فهو أشبه بالمؤسسة التي تنتج القليل من السلع المتقنة لتتفرد بذلك ، فيغلو سعرها لغلاء قيمتها ، وسلعتها معمرة باقية ، والطلب عليها كثير .

وعلى أية حال فالمراد بالضيق التقيد بنظام الشعر وعدم الخروج منه ، والمراد بالسعة في النثر

أنه مطية مذلة ذلول ؛ لأنه يسعف الناطق به في أي وقت ، ولكن النثر الفني قد يضيق أشد من الشعر ؛ لأن المبدع به في حاجة إلى صياغته صياغة تستميل الأذان التي تنقله إلى القلوب فيستقر بها ، وتتأثر به ، فيلزمه اصطفاء الكلمة ، وحبك الأسلوب ، والسجعة التي هي أمُّ القوافي ، من بعد حين جاء الشعر كمرحلة من مراحل تطور الكلام فيما أرى ؛ فالشاعر أن لم يكن ناثرًا جيدًا فلن يكون شاعرًا جيدًا .

كالصائغ ، أنى له أن يصوغ جوهرة ذات رسوم ونقوش وليس بين يديه معدن يصوغه ويتفنن في إخراجه عملاً مبدعًا .

ثم إن هناك قواعد عامة للنثر والشعر معًا ، من أهمها :

### 1- التزام الإعراب

والتزام الإعراب من سنن العربية قبل الإسلام وبعده ، وما خرج به الشعر عن قواعد الإعراب ليس خرقًا لتلك القواعد ، وإنما له وجه ، يفهم هذا من يطلع على نص سيبويه - عليه رحمة الله - حين يقول : « وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهًا ، وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك » (1).

فأنت ترى إمام النحاة يذكر أن للضرورة الشعرية - وهي كثيرة - وجهًا أي أن هناك توجيهًا لها ، أي ليست أنماطًا ، ولا تصدر كيفما وقعت ، ولهذا كلام يطول لا يتسع له المجال هنا .

(1) الكتاب 1/ 32 بتحقيق هارون.



## 2- مراعاة أصول التصريف

وإذا كان التزام الإعراب مرادًا به ضبط أواخر الكلم، ومراعاة النظم من أصول الإبداع، فكذلك مراعاة أصول التصريف والاشتقاق، وأبنية الكلمات، وما يجوز وما لا يجوز وسيبويه<sup>(1)</sup> يثبت أن العرب (جاهلية وإسلامًا) يمدون نحو مساجد، فيقولون: مساجيد.

## 3- معرفة أصول الكلام

وقد ذكر سيبويه أن الكلام منه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، ومحال كذب.

فالمستقيم الحسن مثل: أتيتك غداً وسأتيك أمس، والمستقيم الكذب مثل: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، والمستقيم القبيح أن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك قد زيداً رأيت، وكى زيداً يأتيتك وأشبه ذلك، والمحال الكذب مثل: سوف أشرب ماء البحر أمس، ولنا بعض الوقفات عند ما ذكره سيبويه - عليه رحمة الله - أهمها أيضاً:

أن المراد من قوله الكذب غير الحقيقي؛ أي المجازي وإلا فقولك شربت البحر وحملت الجبل في تصوير حالة نفسية معينة قمة البلاغة، ولا خلاف بين سيبويه والمبدعين في ذلك، فالمبدعون يطلقون على نحو ما سماه سيبويه كذباً: الصدق الفني، فهناك صدق فني لا يطلق عليه كذباً في شرع الله - ﷻ - وقد قال زيد بن ثابت - ﷺ - حين كلفه أبو بكر - ﷺ - بجمع القرآن: لو كلفني نقل جبل على عاتقي لكان أهون عليّ من جمع القرآن، بعيداً عن إحساسه بعظم المسئولية وخطورة العلم.

وقد يقول القائل: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن فعلت هذا، وهو غير خارج من سماء تظله وأرض تقله.

فمجال الصدق والكذب في البيان واسع، ومن وقف عند ظاهر قول الإمام (كذب) حكم على جميع المبدعين الذين يقولون:

الليل يسكن في عيني، والنوم خاصم مقلتي، والأرض كل الأرض عازفة عني، وجبال الأحزان ونحو ذلك كثير، حكم عليهم بأنهم كذابون أو منافقون، أو أعداء الله - ﷻ - ورسوله - ﷺ -

وهذه مأساة، ولكن من تلك الوقفات أيضاً أن ننبه إلى ما لا خلاف فيه في قول سيبويه «المحال» وهو ما فسر به بقوله: أن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول أتيتك غداً، وسأتيك أمس.

فالمحال ليس من الإبداع، وقد انتشر المحال انتشاراً واسعاً بين الشباب، وفي أعمال درامية كثيرة ربما كانت سبباً في هذا الذيوع والانتشار، ورأى أهلها أنها مما يضحك الناس، حين يسمعون: ألقاك أمس، وأراك العام الماضي.

وبهذه المناسبة أقول: إن الإضحاك عملية تحتاج إلى عبقرية، فالبليّة لا تضحك، كما هو شائع، والمحال لا يضحك، وفساد الكلام لا يضحك، إنما يضحك الصدق الذي يحتاج إلى صياغة فنية عالية المستوى، والدليل على ذلك أن النبي - ﷺ - «كان يمزح ولا يقول إلا حقاً» فمن الذي درس هذا النص، وراح وقد سبر غوره، يقدم للناس مزحة تضحكهم وهي حق، حق لا باطل، وصدق لا كذب، ومراعاة لأصول الكلام لا إفساداً لتراكيبه، أما أن تكون الملهاة (الكوميديا) شتائم وسباباً ومجوناً، وحركات، وإفساداً للغة، فقضية تحتاج إلى مراجعة صادقة، تفضي إلى ضرورة بذل الجهد وإتاحة الفرصة لكل مبدع أصيل،

ووقف نزيف الفوضى الذي هو خطر من نزيف الدماء ؛ لأنه يؤدي إليها في بعض الأحوال ؛ فإن السباب واللعن قد يؤديان إلى عراك ومذابح يبدأ ذلك من قبيل المزاح وينتهي إلى جرائم ، فضلاً عن مخالفته الصريحة لتعاليم الإسلام الداعية إلى عدم السب واللعن ، والتنازع بالألقاب ؛ فهذا حضيض ، وإنك لتعجب من إطلاق الإبداع عليه إلا من قبيل تسمية الشيء بضده !

وأما قول سيبويه - عليه رحمة الله - في آخر نصه الجميل « وأما المستقيم القبيح » فإن تضع اللفظ في غير موضعه نحو « قد زيداً رأيت » . وفي هذا السياق أقول : إن مراد سيبويه بالاستقامة أمران :

الأول : مراعاة الضبط ف « قَدْ » حرف مبني على السكون « وزيداً » منصوب على الاشتغال ؛ أي مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور ، ورأيته فعل مشغول بهاء زيد والتاء الفاعل إن قلت قد زيداً رأيته ، أو زيداً مفعول به مقدم جوازاً للرأيت .  
والأمر الثاني : أنه ليس من المحال أن ترى زيداً وزبيدة وعلياً وعليه ونحو ذلك .

أما مراده كذلك بالقبح فهو النظر إلى أصول الكلام فإن من أصوله ألا تدخل « قَدْ » على الأسماء ، إنما تدخل على الماضي والمضارع من الأفعال ، ولإزالة القبح تقول : قد رأيت زيداً ، أو تقول : رأيت زيداً بدون « قد » أو تقول : زيداً رأيت ، أو زيداً رأيته وقد تقول : ما رأيت إلا زيداً ، فلديك من سعة النثر صور متعددة ، قد تبدو الفروق بينها جلية في نحو ما ذكره الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز من نحو « زيد منطلق » و « زيد المنطلق » و « زيد هو المنطلق » ، و « المنطلق زيد » وما ذكره الإمام من فروق ، مرجعه إلى البلاغة التي هي بساط الإبداع لكن « زيد منطلق » و « وزيد المنطلق » وغيرهما كله جميل ؛ أي غير قبيح ؛ لأنه موافق أصول الكلام ، لكنك قلت : زيد منطلق إخباراً لمن لا يشك ، وقلت

زيد المنطلق إخباراً لمن ظن أن المنطلق رجل غير زيد ، وغير ذلك من ضروب مراعاة أحوال المخاطب .

وهذه الوقفة مهمة كذلك في سياق الكلام عن الإبداع الذي يظنه بعضهم خروجاً عن المؤلف في كل شيء ، فهم يرون أن كل شيء عند العرب صابون ، وهذا ضرب من الجنون لا من الفنون .

فالمبدع لا يكون مبدعاً في النثر بخروجه عن أصول الكلام ، وإنما يكون مبدعاً بإتباعه سنن العربية في التراكيب ، فيعلم مثلاً أن « قد » محال أن تدخل على الاسم ، وغير مقبول منه أن يقول هذه العبارة الشائعة : WHY NOT

وهي إلى الاستخفاف وعدم العلم أقرب منها إلى الإبداع والتحقيق .

فامض أيها المبدع على سنن العربية ، وليكن إبداعك في إفراز المعاني غير المطروحة في الطريق التي رآها الجاحظ ، قل للجاحظ إن المعاني المطروحة في الطريق لم تجد فيها كذا وكذا وأنا وجدت ، أو خذ من تلك المعاني ما تلقح به معنى استقر عندك ؛ حتى تخرجه لنا متشابهاً شكله مختلفاً أكله ؛ حتى نكتشفه نحن ونعلن عبقريتك ، أو تكشفه لنا أجيال المبدعين بعدك التي صارت امتداداً لك فبدأت من حيث انتهيت ، وكشفت لنا اللثام عن معانيك الممزوجة بالمعاني المطروحة في الطريق فإذا بها معان جديدة مشرقة ، وقد لبست ثوبها الجديد ، وأخذت مكانها ، لا على الطريق ، وإنما في سماء الإبداع تحلق في أفق الناظرين المتطلعين إلى النجوم الزاهرة التي غلبت الاحتباس الحراري ، واستطاعت أن ترفع طبقة الأوزون فإذا الحياة آمنة ، والبحار هادئة والأرض سالمة من كل عدوان أيها المبدع الفنان .



وأود هنا كذلك أن أبين أمورًا ، أهمها :

أن الإبداع اللغوي الذي عكف عليه علماء اللغة لا ينتمي إلى جاهلية وإسلام ؛ فاللغة التي نفهم بها كتاب الله - ﷻ - وسنة رسوله - ﷺ - هي لغة العرب ، وهكذا اسمها وسيظل ، فلم يقل أحد : نزل القرآن بلغة المسلمين ، وإنما نقول : نزل القرآن بلغة العرب .

وربنا - ﷻ - يقول في سورة فصلت الآيات (1-3) : ﴿ حَمْدٌ ۙ تَنَزَّلُ مِنَ  
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبَ فَصَّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وفي غير  
هذه الآيات تتأكد تلك الفكرة ؛ فوحي الله - ﷻ - الذي لا يأتيه الباطل من بين  
يديه ولا من خلفه نزل بلسان عربي مبين ، وفي الآية (1) من سورة الكهف يقول  
ربنا - تعالى - : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۙ .

فالقرآن الكريم لا عوج فيه ، وإنما هو قيم بعربيته ، وقيم بدعوته وصراطه المستقيم الذي حمله إلى الناس وبين معالمة ، فاللغة العربية لسان معروف سبيله ، ومواطن قوته ومدارج ضعفه وهبوطه ، وما اعتكف عليه علماءنا تراث عربي عظيم أدى استقراره إلى وضع القواعد والضوابط التي من شأنها حفظ اللسان من اللحن والخطأ ، وفي ضوء ذلك نجد سيبويه وغيره من العلماء يقولون : قالت العرب والعرب تقول ، وبنو فلان يقولون ، وأما بنو فلان فلا يقولون كذا ، وهكذا ، ومعروف زمان الاحتجاج باللغة ، وهو بالنسبة إلى سكان الحضرة نهاية القرن الثاني الهجري ، وإلى سكان البوادي نهاية الرابع ؛ لأن سكان الحضرة يتصلون بغيرهم أكثر من اتصال سكان البوادي ، وما جاء من نصوص بعد زمان الاحتجاج يستأنس به لا يستشهد به حجة على إثبات قاعدة ، والاستئناس في ذاته غير مشين ولا منقص من قدر أولئك الذين استأنس العلماء بكلامهم .

وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد - رحمه الله - قد ألف كتابه الكامل في اللغة والأدب ، وقال في مقدمته « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروريًا من الأدب ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ، ومثلٍ سائر وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة والنية أن نفسر ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحًا شافيًا حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا ، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيًا ، وبالله التوفيق والحوال والقوة ، وإليه مفزعنا في درك كل طلبة ، والتوفيق لما فيه صلاح أمورنا ومن عمل بطاعته وعقد برضاه ، وقول صادق يرفعه عمل صالح ؛ إنه على كل شيء قدير » (1).

وأنا أقف عند هذا الجزء من مقدمة المبرد ؛ لأبين ما يأتي :

1- أن الكتاب في لغة العرب ، جمع فيه المبرد نصوصًا تجلّ فيها الإبداع في الجاهلية والإسلام .

2- وأن المبرد عني بشرح ما أورده ، وذلك لما يناسب حال الناس في زمانه ، وقد قال إنه بذلك يستغني عن تفسير غيره ، وقد فسر الرصافي وتعقبه . وهذا يدل على أننا ما زلنا في تجديد يناسب زماننا .

3- وأن المبرد باختياره وشرحه مبدع ، وكذلك الرصافي .

4- وأن هذا العمل من القربات ؛ فالمبرد كما رأينا في المقدمة يسأل الله أن يجعله عملاً صالحاً مرفوعاً ، ومن هنا أقول إن الإبداع من القربات متى كان له هدف يرمي إليه وهو تنوير الناس ، وإصلاح ألسنتهم ، وشحذ هممهم بغية أن يتذوقوا كتاب الله - ﷻ -

(1) الكامل مع رغبة الأمل للمريض 7/1.

وخدمة اللغة العربية في الحقيقة خدمة للدين ؛ لأنها لسانه ، وهذا معنى يغيب عنا كثيرًا حتى جعلنا علماء الدين في كفة والمبدعين في كفة أخرى ، وزعم كثير من الناس أن كلام علماء الدين من الجنة وكلام غيرهم من النار أو من الدنيا ، وهذا تخلف عن الحقيقة وهدم الجدار متين تجتمع فيه كل اللبانات لإقامته ؛ حتى يستوي الصرح الكبير .

وأنا هنا في حاجة إلى أن أقول كلمة للسادة المبدعين تتعلق بالنية ، والتي عليها مدار الأعمال ، وأول حديث رواه البخاري في صحيحه عن عمر - رضي الله عنه - قول رسول الله - ﷺ - : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

فلتتجه النية عندكم لله - ﻋﻠﯿﻪ ﺳﻼﻡ - فيما تبدعونه خدمة للسان العربي الذي نقل إلينا معاني كتاب ربنا وسنة نبينا ، ولتعلموا أن ذلك من القربات ، والدليل على ذلك ما ذكره المبرد ؛ فقد يتوهم غير ذي علم أن ما صنعه المبرد من جمع الخطب والأمثال والأشعار ، وما أفناه من وقت طويل في شرحها عمل أدبي محض ، لا صلة له بالدين ، فالدين عنده قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار ، وكتب الأحاديث والفقه وقصص الأنبياء ، وما عدا ذلك لغو وعبث ومضيعة للجهد والوقت ، والحق أن كتب الأدب ونصوص المبدعين الداعية إلى المثل العليا ، والراقية بألفاظها ومعانيها لا غنى عنها للمسلمين خصوصًا العلماء الذين يتوصلون بها إلى فهم المعين الصافي والنبع المتدفق دائمًا من الكتاب والسنة .

#### • ضابط إبداع من رسول الله - ﷺ -

وفي حديث مشهور ذكره المبرد في صدر كتابه الكامل يقول فيه رسول الله - ﷺ - : « ألا أخبركم بأحبكم إليّ ، وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقًا الموطؤون أكنافًا ، الذين يألفون ويؤلفون ، ألا أخبركم بأبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون » .

#### قال المبرد:

وقوله - ﷺ - الثرثارون يعني الذين يكثرون الكلام تكلفًا وتجاوزًا وخروجًا عن الحق وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء ، يقال عين ثرثرة ، وكان يقال لعصر بعينه : الثرثار ، وإنما سمي به لكثرة مائه .

وهذا فيما أرى ضابط إبداع من رسول الله - ﷺ - للأمة لا سيما مبدعيها ( على الإضافة إلى سي وما زائدة )

ومن يتأمل في نثر العرب قبل الإسلام وبعده الذي هو إبداع ، يجد قلة الألفاظ ، ووفرة المعاني التي تكتنفها تلك الألفاظ القليلة ، ومن ذلك قول الأحنف بن قيس : ثلاث فيّ ما أقولهن إلا ليعتبر معتبر ، ما دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء ما لم أدع إليه - يعني السلطان - ولا حللت حبوتي إلى ما يقوم إليه الناس .

وأنفس ما ورثناه عن العرب الأفعال ، وهي تدل على أن الضابط إنساني رفيع والدين يدعو إلى كل ما هو إنساني رفيع ، وقد قالت العرب :

• إذا عزّ أخوك فهن .

• إذا قام جناة الشر فاقعد .

• استر عورة أخيك لما يعلمه فيك .

• أشأم من سراب .

• أضوأ من نهار .

• افعل كذا وخلاك ذم .

• الشكلي تحب الشكلي .



- أن ترد الماء بماء أكيس.
- إن الذليل من ذل في سلطانه.
- أهون من تبنية على لبننة.
- تطلب أثرًا بعد عين.
- خير الخلال حفظ اللسان.
- خير المال عين ساهرة لعين نائمة.
- رُبَّ أخ لك لم تلده أمك.
- رُبَّ أكلة تمنع أكلات.
- رُبَّ طمع أدى إلى عطب.
- رُبَّ عَجَلَةٍ تَهْبُ رِيثًا.
- رُبَّ عزيز أذله خرقه وذليل أعزه خلقه.
- رُبَّ فرحة تعود تَرْحَة.
- ربما أصاب الأعمى رشده.
- سواء هو والعدم.
- صرح المحض عن الزبد.
- ظَلُّ السلطان سريع الزوال.
- طعن اللسان كوخز السنان.
- فضل القول على الفعل دناءة.
- قرب الوساد وطول السواد.

وغير ذلك من الأفعال التي أصلها قصة ، وأخذت تضرب في كل ما يشابهها ، وبدل أن تحكي القصة ثرثرة عند ما يشابهها يذكر المثل الذي هو خلاصتها .  
وقد وردت أحاديث شريفة قال العلماء فيها إنها جرت مجرى المثل ، ومنها قوله - ﷺ - :

- المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده.
- الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.
- كلكم راع ومسئول عن رعيته .
- الرزق أشد طلبًا للعبد من أجله .
- الشؤم في المرأة والفرس والدار .
- نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ .
- الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .
- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا .
- رحم الله عبدًا قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم .
- ومن كلام أبي بكر - ﷺ - : كذلك :
- ليست مع العزاء مصيبة .
- إن الله يرى من باطنك ما يراه من ظاهرك .
- أصلح نفسك يصلح لك الناس .
- إن الله قرن وعده بوعيده ليكون العبد راغبًا راهبًا .

ومن كلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كذلك :

- من كتم سره كان الخيار في يده .
- اجعلوا الرأس رأسين .
- لو أن الشكر والصبر بعيدان لما باليت بأيهما ركبت .
- قلما أدبر شيء فأقبل .
- إلى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القوي .
- ومن كلام عثمان بن عفان - رضي الله عنه - كذلك :

• إن لكل شيء آفة ولكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ويُسِرُّون ما تكرهون ، طعام مثل النعام يتبعون أول ناعق .

- ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .
- يكفيك من الحاسد أن يغتم وقت سرورك .
- أنتم إلى إمام فعَّال أحوج منكم إلى إمام قَوَّال .
- ومن كلام الإمام علي - كرم الله وجهه - كذلك :
- من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه .
- من ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد .
- من عظم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها .
- ليس بلد أحقَّ بك من بلد .

• خير البلاد ما حملك .

- من صارع الحق صرعه .
- إذا تم العقل نقص الكلام .
- ومن كلام ابن عباس - رضي الله عنه - كذلك :
- صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد متكئًا .
- الحرمان خير من الامتنان .
- وملاك أمركم الدين .

وهكذا ، لدينا موروث كبير حمل هذا الضابط وجرى في كل زمان ، ولكنه في زماننا أثر القعود ؛ حيث حلت الثثرة وتمكنت ، ومعظمها في أحاديث فتية في الدين ما درسوا لغة وما وقفوا على ضابط ، وترى الواحد منهم يتحدث الساعات الطويلة ولا تخرج منه بجملة مفيدة فضلًا عن درس مستفاد .

ومن ذلك خطب الجمعة والعيد ، وقد بات الناس يشكون ذلك ويشتون منه ، وقد شاءت الأقدار وأنا في يوم سفر أن أفزع إلى أحد المساجد الكبيرة على الطريق ، وكان اليوم يوم جمعة ، ساعة كاملة ، ما سمعت فيها من الخطيب جملة نافعة ولم أقدر أن أضع له عنوانًا ؛ فقد تحدث في كل شيء إلا في دين الله ، تناول السياسة ، والنفاق ، والبيوت والأمثال الشعبية ، والقصص الأسطورية ، وما لا سند له ولا أصل من أحاديث منكرة ، وخلال هذه الساعة لم يتل على مسامعنا إلا آية واحدة ويشهد الله ومن حضر معي أنه قرأها قراءة خاطئة ، فلم أملك نفسي بعد أن قضيت الصلاة إلا أن أدعوه والناس جميعًا الذين حضروا الصلاة دقيقة واحدة تلوت فيها الآية تلاوة صحيحة ، وقلت : هذه الآية هي الوحيدة التي تلاها الإمام الخطيب في الصلاة أي الخطبة والصواب هكذا ، ثم مضيت ؛ حيث لم يكن



هناك وقت لمناقشته وتعليمه ، وقد اتسع الخرق على الراقع ، فليس هذا وحده من يعجن الكلام عجنا ويعك عكا ، وإنما ذلك مما عمت به البلوى وهي الثثرة ، التي أصابت كثيرًا من الدعاة والخطباء ولم يسلم منها الأدباء .

ولله در طه حسين حين قال : « والمصريون إذا بدءوا الحديث لم يعرفوا كيف يفرغون منه » <sup>(1)</sup>.

وتحدث طه حسين عن سوء استعمالنا للتليفون وقال إنه للضرورة الملحة ، ولأقصر وقت ممكن ، قال : إن المصريين يتحدثون بغير حساب ، لا يعينهم أن يشقوا عليك بحديثهم الطويل المتصل ، حسبهم أن يقولوا وأن يحسوا أنك تسمع لما يقولون .

ويعلم الله أني قرأت طه حسين منذ زمان طويل ولم أكن أرتاح لما ذكره في كتابه ألوان من ذم المصريين خصوصًا ذم الوطن ؛ فقد قال ما نصه : « ولكن الشيء المحقق أني أجد الهدوء المادي والمعنوي في كل مكان إلا في مصر ، فقد أراد الله ألا تتيح الحياة لي في وطننا العزيز الكريم راحة ولا دعه ولا هدوءًا » <sup>(2)</sup>.

والآن أكاد أغير هذا الرأي ، ولا يعني ذلك أنني أرضى بدم الوطن العزيز الكريم ، ولا بدم أهله وإنما أقول : إنني أشاهد الأطفال في الشوارع وعلى آذانهم المحمول الغالي ، لا يقولون شيئًا ذا بال .

وأن الثثرة صارت سمة زماننا ، وهي ثثرة عمت كل شيء فما عادت الطبيعة شجرًا تغني على أفئانه البلبل ، وإنما صارت سيارات مزعجة ، وأصوات إنذاراتها أشد إزعاجًا ، وصارت مكبرات الصوت تحترق المنازل من الباعة والمساجد

(1) ألوان ، ص 290 .

(2) المرجع السابق نفسه ، ص 298 .

ولا أعني الأذان ، وإنما القراءة الجهرية التي يشوش فيها بعضهم على بعض ، وبعد أداء الصلوات أصوات دروس لا تصل إليك ، وإنما تصل إليك أصوات مختلطة ضجيجًا يؤرق نومك ويلهب أعصابك ، حتى في القرى التي كانت ذات يوم متفياً أهل المدن ، يفرون إليها لينعموا بطبيعة خلابة ، وجو صاف بديع ، وعيش رغد كريم ، فيها الخيرات ، والوجوه الحسان ، والرياض النضرة ، صارت كالمدين وأسوأ ، واختفت منها الخضرة واكتسحت الأبنية الخرسانية ميادين الزرع حتى صارت البقع الخضراء غريبة في أراضيها والسيارات هي السيارات ، ومكبرات الصوت أكبر لعنة فإلى أين الفرار ؟!

فإن كان طه حسين - يرحمه الله - يقول ذلك وهو في زمان كان مرور السيارات فيه قليلاً ، وكانت الأصوات فيه خاشعة ، وكان الذوق فيه من أجل سماته ، فلو أن الأجل امتد به إلى هذا الزمان ورأى بأذنيه وقلبه ما نراه بأعيننا وتشتكي إلى الله منه آذاننا ، فكيف كان يقول وما عسى أن يقول ؟!

والضابط الذي وضعه النبي - ﷺ - إنما أسميه ضابط إبداع ؛ لأن الدين يدعو إلى خير الكلام ، وخير الكلام له ضوابط في شرع الله - ﷻ - أهمها ما يأتي :

#### 1- أن يكون فحواه مما يرضيه - ﷻ -

والدليل على ذلك أن النبي - ﷺ - حين مات ولده إبراهيم قال : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

وهي كلمات جامعة مانعة ، والشاهد فيها قوله - عليه الصلاة والسلام - : « ولا نقول إلا ما يرضي ربنا » .

## 2- أن يكون مطابقاً للأفعال

ولكي يكون الكلام مؤثراً في المخاطبين لا بد أن يكون مطابقاً للأفعال ، والدليل على ذلك قول الله - تعالى - في سورة الصف الآيتين (2-3) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿.

وقد قال الشاعر:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

## 3- أن يكون - كما قال سيبويه - مستقيماً

والدليل على ذلك قول الله - تعالى - في سورة آل عمران الآية (65) : ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ؕ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فكلام بعض الناس على هذا النحو الذي يقحم فيه من ليس منه أشبه بقولك : سأتيك أمس ، وزرتك غداً .

## 4- أن يكون سديداً

والكلام لكي يكون سديداً يجب أن يصل إلى المخاطب كما تصل الرمية إلى الهدف ؛ تصيبه ولا تخطئه ، والدليل على ذلك قول الله ربنا في سورة الأحزاب الآية (70) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ والعلم بلغة العرب ، وما يجوز فيها وما لا يجوز ، والإتيان بالأساليب المرسلة والمؤكددة مراعاة للحال ، وغير ذلك من سبيل الوصول إلى القول السديد ، ومراعاة قواعد العربية واتباع سننها مع مراعاة المنهج في التعبير الذي أساسه كتاب الله - ﷻ - وسنة رسوله - ﷺ - يجب أن يجتمعا معاً .

## 5- وأن يكون عدلاً

والعدل في الكلام كالعدل في الأحكام ، بل إنه هو ، وقد قال النحاة إن الخبر حكم على المبتدأ .

وقد قال الله - ﷻ - في سورة الأنعام الآية (152) : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ .

وقد خطب العرب قبل الإسلام ، وخطب رسول الله - ﷺ - في الناس ، وهناك جامع بين الخطبة قبل الإسلام والخطبة بعده ، وهو الإيجاز ، وعدم الثثرة .

خطب قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ فقال:

« أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لعبراً ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا هناك فناموا ؟!

يا معشر إياد ، أين الآباء والأجداد ، وأين الفراعنة الشداد ، ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول أجالاً طحنهم الدهر بكلكله ، ومزقهم بتطاوله .

وحفلت كتب التراث والأدب بوصية أمانة بنت الحارث ابنتها أم إياد بنت عوف الشيباني عند زواجها من عمرو بن حجر ملك كندة ؛ حيث قالت لها :

« أي بُنية ، إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبيها وشدة حاجتها إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال ، أي بنية ، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلقت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفه ، وقرين لم تألفه فاحفظي له خصالاً عشرًا يكن لك ذخراً .



أما الأولى والثانية ، فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة .

وأما الثالثة والرابعة ، فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة ، فالتفقد لوقت منامه وطعامه ؛ فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة ، فالاحتباس بهاله والإرعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر في المال حسن التقدير ، والعيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة ، فلا تعصي له أمراً ، ولا تفشي له سراً ، فإنك إن خالفت أمره أو وغرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره .

ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتماً ، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً .

وما زالت هذه الوصية على لسان كبار العلماء والوعاظ ؛ لأنها لا تخالف شرع الله - ﷻ - بيد أن التراث حفظ وصية لامرأة ، ولم يحفظ وصية لرجل عند زواجه .

وجاء الإسلام فبين أن النساء لباس للرجال ، وأن الرجال لباس للنساء ، أي ستر وكمال ، قال الله - تعالى - في سورة البقرة (187) : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ .

ووصى الرجال بالنساء ، فقال - ﷻ - في سورة النساء الآية (19) : ﴿ وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

فالإسلام يقر الحسن من الكلام ، ويطرح سوءه ، وقد روى البخاري عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البصري - ﷺ - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأَوَّلَى : إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعِ مَا شِئْتَ . فَانْظُرْ إِلَى إِقْرَارِهِ بِمَا قَالَ النَّاسُ مِنْ حَقِّ .

وخطب النبي - ﷺ - فقال في أول خطبة له بالمدينة بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله : « أَمَا بَعْدُ ، فَأَيُّهَا النَّاسُ ، قَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، تَعْلَمَنَّ وَاللَّهِ لِيَصْعَقَنَّ أَحَدُكُمْ ثُمَّ لِيَدْعَنَّ غَنَمَهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ ، ثُمَّ لِيَقُولَنَّ لَهُ رَبِّهِ ، وَلَيْسَ لَهُ تَرْجَمَانٌ وَلَا حَاجِبٌ يَحْجِبُهُ دُونَهُ : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولِي فَبَلَّغْتُكُمْ ، وَأَتَيْتُكُمْ مَا لَا وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكُمْ فَمَا قَدِمْتُمْ لِنَفْسِكُمْ ، فَلْيَنْظُرَنَّ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَا يَرَى شَيْئًا ثُمَّ لِيَنْظُرَنَّ قَدَامَهُ فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِيَ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ، فَإِنْ بَهَا تَجَزَى الْحَسَنَةُ عَشْرَةَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » <sup>(1)</sup> .

كلام كما يقول العامة يوزن بهاء الذهب ، ولا انحراف فيه ولا ثرثرة ، وهو القول السديد ، والواضح الفكرة ، السهل العبارة ، المؤثر في السامعين ، عين الإبداع والدين وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

وكتب أكثم الصيفي وصيته إلى طيئ ، قال فيها : « عَلَيْكُمْ بِالْخَيْلِ فَأَكْرَمُوهَا ، فَإِنَّهَا حَصُونُ الْعَرَبِ ، وَلَا تَضَعُوا رِقَابَ الْإِبِلِ فِي غَيْرِ حَقِّهَا ، فَبِالْبَانِهَا يَتَحَفُّ الْكَبِيرُ وَيَغْذَى الصَّغِيرُ ، وَلَنْ يَهْلِكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَالْعُدْمُ عُدْمُ الْعَقْلِ ، وَلَا عُدْمُ الْمَالِ ، وَلِرَجُلٍ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ ، وَمَنْ عَقِبَ عَلَى الدَّهْرِ طَالَتْ مَعْتَبَتُهُ ، وَمَنْ رَضِيَ بِالْقَسَمِ طَالَتْ مَعِيشَتُهُ ، وَأَفَةُ الرَّأْيِ الْهَوَى » .

(1) ابن هشام مع الروض الأنف 2 / 240 .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري : « سلام عليك ، أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أولي إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس ( ساو ) بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً ، ولا يمنحك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك فيه ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ؛ فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التهادي في الباطل .

الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

وقد أسعد القرآن الكريم الناس بالقصص ، وهي لون من ألوان التعبير ، ووطن إبداع متكامل ، فيه الأماكن والديار ، عوامر وبلاقع ، وأحوال الناس ابتسامات ومدامع ، وشخوص تتحرك وتنطق وتسكت ، وتتجاوب وتتنازع ، وتتفق وتتصارع ، فيه الجبال والسهول ، والبحار والأنهار متعة للقارئ لم تسطر في الذكر خالية من العبرة ؛ ولذا كانت أحسن القصص .

وحين سمعها بعض المشركين فزع إلى كتب الأساطير والخرافات ليشغل بها الناس عن القرآن الكريم .

ومعنى ذلك أن الجاهليين عرفوا أساطير الأولين ولكن مصادرها كانت عزيزة ، وما أفلح من حصل عليها بغية أن يصرف بها الناس عن الكتاب المنزل ، والمنزه عن الخرافة والأباطيل ، المحتدى به في نظمه الذي اكتنف الموعظة والخبر ، والسيرة والأثر عبر قصصه الذي وصفه بأحسن القصص ، فكان القصص القرآني تسلية للقلوب ، وغذاء للأرواح ، ومددًا للعقول والكلام عنه منه ما هو مكتوب درسناه ، ومنه ما هو متناثر هنا وهناك ، ومنه ما لم يزل في ضمير كل مبدع مفكر

يأمل أن يمتد به الأجل ليكتب فيه الجديد ؛ فالقرآن الكريم لا يبلى جديده ، ولا ينتهي مداده ، ولا تفنى عجائبه وغرائب إبداعه .

وإذا كان الكتاب العزيز قد تحدى الله - تعالى - به الإنس والجن فقال - عز من قائل - في سورة الإسراء الآية (88) ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

فإن القصة داخلية في موضوع التحدي ، فإن عبرنا عنها كما يعبر النقاد بأنها جنس أدبي فإن لهذا الجنس من الخصائص الفنية التي يطلق عليها المتدبرون قيودًا ، شئنا أو أبينا لا بد هنالك من قيود فأين المفر؟!

لا بد من حدث ، وموقف ، وشخوص أساسية وثنائية ، ووصف وسرد ، وحوار ، وصراع ، وعقدة ، وحل ، وتبقى بعد ذلك الحبكة الفنية التي هي روح الصورة الكلية الفنية في الشعر ، وتحلى فيها آيات الإبداع متى ملكها الكاتب كان مبدعًا ، بأن يخلق خياله في آفاق المعاني ، ويصطفي من الأساليب ما يسحر أعين الناس فإذا هم يعكفون على قصته حتى نهايتها ، يقفون عندما وقف عنده ، ويتأملون ما تأمله دون أن يقول لهم بصريح العبارة قفوا هنا ...

تلك صناعته ، وهو بها خبير ، إنه ينطق بشخصه ؛ كلاً بلغته ، وفكره ، ويحاور ذاته أو قارئه من خلال محاوره شخوصه بعضهم بعضًا ، ويأتي بالطرائف والفرائد والنكات ، إنك تراه حدادًا في شخصية الحداد ، وتراه ربه منزل يحكم التدبير أو لا يلوي عليه حسبما رسم شخصيتها ، وتراه مبدعًا في بطله إن كان قد رسمه من المبدعين ورجل دولة إن سطره سياسيًا أو عسكريًا ورجل مرور ، يتصلب في الشارع وقد تحولت عيناه إلى إشارات مرور ، وساعده علامات ، يحرك الناس وهو المتحرك الساكن .



ثم تراه يغوص في الباطن ، فيصور أدق تفاصيل النفس وما فيها من تناقضات ، هو الثورة والسلامة ، والثقة والخيانة ، والغدر والأمانة ، فإن ظالت روايته فليس طولها ثثرة ، وإنما سيل عبرة ، ومواطن لذة تقرأ له مئات الصفحات وكأنك تقرأ سطوراً معدودة من فرط الحلاوة ، لا تشعر بملل ، ولا تحس بسأم ، قد تعود لقراءتها من جديد ، ولكنك إذا عدت مرة أو مرتين فسوف تجدتها حائلاً دون الثالثة والرابعة إلا في قصص القرآن الكريم ؛ لأنه قرآن ، لا يمل بالعود ألوف المرات إليه ، وهذا الذي ذكره السيوطي في معترك الأقران ، وجعله وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم : ألا يُملّ بتكراره .

ونستطيع أن نقدم خلاصة لبعض تفوق القصص القرآني فيما يأتي :

1- أنه وحي ؛ فهو عين الصدق .

2- وأنه جامع للمتعة المنبثقة عن الإبداع الفني والعبرة .

3- وأنه يذكر ما لا بد من ذكره ، ويحذف ما هو معلوم .

4- وأنه مسوق في ظلال الحكم ، وهذا يحتاج إلى شيء من البسط ، فأقول .

إنّ العمل الأدبي المحض يعد النقد الإبهام فيه دليل إبداع ؛ فما زال المعنى الأصلي للكاتب في بطنه شاعراً كان أوقاصاً كما قال المتنبي :

أَنَامَ مِلءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

فهو يسوق النص - والمعنى في بطنه - ثم ينام ، ويسهر الناس في صراع حول المعنى المراد ، أهو كذا ... أهو كذا حتى في الكلمة المفردة ، توحى بكذا ، لا توحى بكذا أهى رمز .. أهى حقيقة ؟ أهى منصوبة على الاختصاص ؟ أهى منصوبة على المفعولية ؟ ويدلي كل بدلوه ، وما زال المعنى في بطن الكاتب ، وربما كان المعنى في بطن مجهول ، فقد قال أحد الأدباء في ندوة خصصت لمناقشة عمل من أعماله بعد ما

الفصل الخامس : الشر ديناً وإبداعاً  
سمع كثير من المحللين والنقاد والمعلقين إنني لا أفهم كثيراً من مصطلحاتهم ، وما قصدت شيئاً مما قالوه ... أهذا أنا ؟

ويذكرني ذلك بأحد ممثلي الكوميديا - رحمه الله - قالت له إحدى المذيعات : لقد قلت كذا في إحدى الصحف ، فضحك ، وكانت كذا هذه كلمة غريبة ، وقال : أنا أقول هذه الكلمة يا ويلتي ، ناداها بالعامية الظريفة ، ثم قال ما اسم هذه الكلمة فأعادتها المذيعة ، فضحك من جديد أشد وأعلى ، وقال : والله لا أقدر أن أنطق بها ، فكيف أكون قد قلتها .

والشاهد أن القصص القرآني مسوق بالحكم الذي يتمثل في نحو قول الله - ﷻ - من سورة يوسف الآية (21) ﴿مَكَّنَّا يُوْسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فهو ممكن حيث نزل بيت عزيز مصر من الله - ﷻ - لم تدم به الأحداث والأقدار الغريبة .

وفيها الآية (34) : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فالدعاء مستجاب ، وليس هنالك من حيرة واضطراب ، وأدعية متناثرة متروكة جوابها للقارئ بتصورها أو سوف يأتي جوابها بعد فصلين ، وفي سورة النمل الآية (34) ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ قال الله - ﷻ - في الآية نفسها : ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ، وفي سورة هود الآيتين (45، 46) : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ قال ينوح إنه ليس من أهلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

فقال نوح : إن ابني من أهلي ، وقال الله له : إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ويأتي الإبهام على وجهه من خلال ألفاظه التي تخدم القصة لا من أجل أن يحار القارئ ، كما في قوله - **وَكَيْفَ** - من سورة طه الآية (78) : **﴿فَعَشِيَهُمْ مِّنَ آلِئِمِّ مَا غَاشِيَهُمْ﴾** والشاهد في (ما) التي تفيد الإبهام وغايته التهويل .

ومن نوادر ما رأيته في كتاب الكامل للمبرد أن امرأة عمران بن حطان قالت له :

أما حلفت أنك لا تكذب في شعر

فقال لها : أو كان ذاك ؟

قالت : نعم ، قُلْتُ :

فَكَذَاكَ مُجْزَأُ بْنُ ثَو رِ كَانَ أَشْجَعَ مِنْ أَسَامَةَ

أَيكون رجلٌ أشجع من أسد ؟

فقال لها : ما رأيت أسداً فتح مدينة قط ، ومجزأة بن ثور قد فتح مدينة ، قال المبرد : مجزأة بن ثور جعل له عمر - رحمه الله - رئاسة بكر ، فلما أسنَّ فعل عثمان بن عفان - **رضي الله عنه** - ذاك مع ابنه شقيق بن مجزأة ، وقتل - رحمه الله - على شُسْتَر هو والبراء بن مالك وكانا من أبطال المسلمين <sup>(1)</sup>.

5- وأنه مع عناصر الإبداع اللغوي ، موضوعي ، والموضوعية تكاد تفتقد في قصص المبدعين ، فهي موضوعية المشرب والمدرسة الذاتية ، لا موضوعية الحقيقة المجردة ، فمريم بنت عمران أحصنت نفسها ، وامرأة نوح خانت عقيدة ، وكذلك امرأة لوط ، أما الأديب فيرى كل النساء خائنات إن كان له موقف معين من المرأة ، كما فعل فولتير ؛ فزاديج أحب فتاة وتزوجها ، وكان لها

عاشق همَّ أن يخطفها فدافع زوجها عنها حتى استنقذها ، ولكن سهماً أصابه قريباً من إحدى عينيه ، فلما يئس الأطباء من شفائه صدت عنه زوجته وقالت إنها لا تحب العور .

ثم تسلى عنها زاديج ، فتزوج فتاة أخرى فتنت به أشد الفتنة ، وأحبته حباً جماً ، وذات يوم أخبرته بأن صديقة لها مات زوجها ، ولا زمت قبره ، وأقسمت أن تلازمه ما دام الجدول المجاور لقبره يمضي في مجراه ، ولكنها تعجبت من أمر تلك الصديقة التي حولت النهر الصغير عن مجراه ، لتتخلص من هذا القيد الثقيل .

وارتاب زاديج الذي لسعته فتاة قبلها ، وقالت إنها لا تحب العور من قدرة المرأة على الوفاء .

واحتال مع صاحب له وفي ليعلم حال امرأته ، فادعى المرض ومن ثم الموت ، فحدثها صاحبه حديثاً عادياً ، تطور بعد إلى حديث حب ، ثم أظهر الصديق أن نوبة من المرض أصابته وتأثرت الأرملة التي ما زال زوجها ينتظر أمرها ، وقالت له : لا بد لك من أطباء فأخبرها بأن علاجه مستحيل فليس إلى علاجه من سبيل إلا أن يوضع في مكان الطحال منه أنف مقطوع ، فقالت : أيُّ بأس على زوجي الفقيد إن لقي الآلهة بأنفه كاملاً أو منقوصاً ، وإذا بها تهبط إلى القبر ، وفي يدها حديدة تريد أن تقطع بها أنف زوجها الفقيد لتشفي به طحال عاشقها الجديد ، وإذا بزاديج يهب وقد تبين أن زوجته التي همت أن تقطع أنفه أشد غدرًا من تلك التي لم تستطع صبرًا على ما نذرت من الوفاء .

يقول الدكتور طه حسين : « وأكبر الظن أن كل واحدة منهن ترمز من قريب أو من بعيد لامرأة عرفها فولتير ، أو عرف من أمرها القليل أو الكثير » <sup>(1)</sup>.



وقد مرت الكتابة الأدبية الرسمية بمرحلتين ذكرهما القلقشندي في صبح الأعشى ، مرحلة المتقدمين المركزين على المتن ، الذي هو النص ، تأسيساً برسول الله - ﷺ - فبعد البسملة كتب : هذا بيان من الله ورسوله سورة المائدة : الآية (1) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ .

عهد من محمد النبي رسول الله لعمر بن حزم حين بعثه على اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه ... »

وعلى هذا النحو كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - عهد مالك بن الأشتر حين ولاه مصر ، ومنه « هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر ، جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها ، أمره بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعته ، وأن ينصر الله - تعالى - بيده وقلبه ولسانه ؛ فإنه - جل اسمه - قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه » .

وأود أن أقول هنا إن أبا إسحق الصابئ ، ولم يكن مسلماً كتب من الخليفة الطائع لله إلى فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه في جمادي الأولى سنة 336هـ على هذا المنوال ، فقال : « هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى فخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين حين عرف عناه وبلاءه ، واستصح دينه وبقينه ورعى قديمه وحديثه ... فقلده الصلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث ، والخراج والأعشار ... »

أمره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة والجنة الحصينة ، والطور الأرفع والمعاذ الأ منع ، والجانب الأمر الأعز ، والملجأ الأحرز ، وأن يستشعرها سرًا

وجهرًا ، ويستعملها قولًا وفعلًا ، ويتخذها ردًا دافعًا لنوائب القدر ، وكهفًا حاميًا من حوادث الغير ، فإنها أوجب الوسائل وأقرب الذرائع ، وأعودها على العبد بمصالحه ، وأدعاها إلى سبل مناجحه وذكر إبراهيم وكان من الصابئة الذين يعبدون النجوم آيات التقوى من كتاب الله - تعالى - ومن يراجع كتاباته يجزم بأنه فقيه عالم ، ومعنى ذلك أن الرجل تفقه في دين لم يؤمن به وأخلص لأهله فعاش بينهم مقربًا إليهم ، يمازحونه ويعطفون عليه .

وكتابات إبراهيم الصابئ إبداع ، وليس فيها من خروج على مبادئ الإسلام الذي كان في رحابه موظفًا ألا يتعلم من ذلك مبدع يحرص على تعاليم الإسلام الذي هو في رحاب مسلم ، وعلى نوره يهتدي قلبه ، وبمداد معانيه يجري قلمه !

وأما الطريقة الثانية وهي طريقة المحققين المتأخرين ، فقد زادوا فيها خطبة ، وجاءوا بذكر ما يتصف به المعهود إليه من أوصاف حميدة ، ومن ذلك أن يقال :

هذا ما عهد به عبد الله ووليه أمير المؤمنين المتوكل على الله ( مثلاً ) أبو فلان ابن فلان إلى السيد الأجل الملك العالم العادل المظفر المنصور المجاهد فلان الدنيا والدين .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويصلي على النبي - ﷺ -

ومن ذلك ما كتبه الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي عهد الملك العادل (كتبغا) عن الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن الإمام الذي استحضره الملك الظاهر بيبرس من بغداد وبايعه ، وأوله :

« هذا عهد شريف في كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ويفوضه آل رسول الله - ﷺ - الأئمة الأقربون من عبد الله ووليه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس

أحمد أمير المؤمنين ، وسليل الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، رضوان الله عليهم أجمعين إلى السلطان الملك العادل زين الدنيا والدين « كُتِبَعا المنصوري » أعز الله سلطانه أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي جعل له منك سلطاناً نصيراً ، وأقام له بملكك على ما ولاه من أمور خلقه عضداً وظهيراً ، وآتاك بما نهضت به من طاعته نعماً وملكاً كبيراً ، وخوّلك بإقامة ما وراء سريره من مصالح الإسلام بملأ أرض منبراً وسريراً ، وجاء بك لإعانتته على ما استخلفه الله فيه من أمور عباده على قدر وكان ربك قديراً ، وجمع بك الأمة بعد أن كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، وضدك لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين - ﷺ - وحضك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم نازهون ، وأظهرك على الذين ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون .

وبعد مقدمة طويلة عهد إليه بما عهد من إقامة الشريعة ومن الحكم الخاص العام .

وذكر القلقشندي ضرباً متعددة من الكتابة تختلف لاختلاف من كتب إليه من الولاة وأرباب الوظائف فكلُّ على قدره ، ومن ذلك ما لا صيغ له محصورة في الافتتاح ، بل يقال فيه إن أمير المؤمنين لما آتاه الله من كذا قد فعل كذا وكذا ولما كنت بصفة كذا قرر أمير المؤمنين في كذا<sup>(1)</sup>.

وقد أصبحت الكتابة الآن مع اختلاف يسير مركزه على الهدف مبنية على القوانين والقواعد .

السيد /

تحية طيبة وبعد...

فبناء على كذا ، وبعد الرجوع إلى المادة كذا تقرر كذا وتفضلوا بقبول موفور التحية .

وصرنا نرى شباباً تخرجوا في الجامعات عاجزين عن كتابة طلب وظيفة ، وفيهم أديب مبدع ، لا يعلم ما يكتب فلو كتب على طريقته لضحك منه الناس ، وفيهم من لا يستطيع أن يقيم جملة ، وما زال هؤلاء في حاجة إلى ثمرة من ثمرات الإبداع الحقيقي في النثر الواسع لا في الشعر الضيق .

وأذكر في هذا السياق أن رسائل الإخوانيات التي سارت في ركب الحياة ، ولم تنقطع على خلاف الكتابة الرسمية ، فهي آية صادقة تدل على ثقافة كاتبها وتعبر عن شعوره نحو صاحبه الذي يكتب إليه ، وقد كتب الدكتور عبد الحميد متولي رسالة إلى زميل له محام كبير يعتذر له فيها عن كلمة قالها في مرافعة ضده ، نبهه أحد زملاء إلى أن فيها إساءة إلى شخصه ، فقال :

سعادة الأستاذ المحترم / سلامة بك ميخائيل أقدم تحيتي وفائق احترامي

نبهني أحد زملائي بعد خروجي من جلسة المرافعة في القضية التي ترافعت فيها ضدكم بالأسبوع الماضي إلى أنه قد بدرت مني إذ بدأت دفاعي عبارة قد تُعدُّ ماسة بشخصكم ، فإذا كانت صدرت مني مثل هذه العبارة فإني أول من يأسف لها ؛ لأنني آخر من ينطق بمثلها عمداً ، إني أول من يأسف ؛ لأنني أول من ينزلكم من الاحترام في نفسه منزلة عالية .

إني آسف جداً أن يصدر مني ما يمس برجل وطني أو برجل نزيه ، أو برجل أبيّ ، فلو كنت واحداً فقط من أولئك الرجال لكان أسفي لما فرط مني شديداً فكيف وأنت الثلاثة معاً !



فإذا كانت قد بدرت مني عبارة تعد « جريمة في قانون الآداب » فإن كرم أخلاقكم يعد من موانع العقاب ، فأرجو قبول اعتذاري ولو أنه جاء بعد فوات الميعاد ، وتفضلوا بقبول إجلالي واحترامي العظيم لشخصكم الكريم<sup>(1)</sup>.

والأدب كما يقول السادة النقاد مرآة العصر ، والكلمات البليغة التي سجلتها هنا عن كاتبها الدكتور عبد الحميد متولي نشرت سنة 1967 ، وقد كتبها هو بالفعل سنة 1923 م .

أي أنه ابن بيئة غزاها العقاد ، وطه حسين ، والمازني والطهطاوي والمنفلوطي ، وأحمد حسن الزيات ، أولئك الذين اختلفت مدارسهم واتفقت كلمتهم على أن الإبداع رسالة حياة .

لقد كتب هذه الرسالة المتواضعة بالنسبة إلى زمانه الراقية بالنسبة إلى هذا الزمان ، وهو يومها شاب تخرج في كلية الحقوق ، لا في كلية اللغة العربية ولا في مدرسة دار العلوم أو الآداب ، واليوم أسمع من بعض الشباب اعتذاراً نصح .

أنا مهندس ، وأنا خريج كذا ، لست خريج اللغة العربية . حتى الذين يتخرجون في كليات اللغة العربية يعلمون ويعلم شيوخهم أن حالهم سيئة ، وأن مستواهم يستدعي إعادة النظر في التعليم ، ويستدعي المبدعين إلى أن يغذوا الحياة التي يأتي منها هؤلاء إلى معاهد العلم ، وأقول إن الدرس اللغوي في معهده ما لم يكن محاطاً بجو عام تتوقد فيه اللغة إبداعاً حقيقياً لن يؤتي ثماره المرجوة منه ؛ لأنه أشبه برجل يصلي في رمضان فإذا انقضى رمضان ترك الصلاة ، إننا كما نرجو أن تكون السنة كلها رمضان لما فيه من الخير ، نرجو أن تكون الدنيا كلها إبداعاً لما في ذلك من خير يعود على الدرس اللغوي المتخصص .

وقد بذل السلف جهداً عظيماً من أجل إقامة اللسان فلدنا مؤلفات كثيرة متنوعة ، معاجم وغيرها ، ولدنا كتاب لحن العامة للكسائي ( ت 191 هـ ) ولحن

(1) ذكريات وكلمات ص 35 ط منشأة المعارف بالإسكندرية سنة 1967 .

العامة لأبي عبيدة ( ت 209 هـ ) ، وهذا الاسم للمازني ( ت 248 هـ ) ، وللسجستاني ( ت 255 ) والدينوري ( ت 290 هـ ) ولأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي ( ت 379 هـ ) ، وللجواليقي ( ت 465 هـ ) .

ودرة الغواص في أوهام الخواص للحريري صاحب المقامات ( ت 516 هـ ) .

ولأبي الفرج بن الجوزي ( ت 958 هـ ) .

ولابن هشام اللخمي المتوفى قبل سنة 600 هـ .

ولدينا التذيل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل للبشيشي ( ت 820 هـ ) .

وغلطات العوام لابن كمال باشا ( ت 940 هـ )

وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجي ( ت 1069 هـ ) وله - رحمه الله - شفاء الغليل فيما في كلام العرب والدخيل وقصد السبيل فيما في العربية من الدخيل لمحمد الأمين المحبي الدمشقي ( ت 1111 هـ ) .

ولدينا كشف الطرة عن الغرة لشهاب الدين الألوسي البغدادي ( ت 1854 هـ ) .

ولدينا أصول الكلمات العامية لحسن توفيق طبع سنة 1317 هـ . والاشتقاق والتعريب للشيخ عبد القادر المغربي طبع سنة 1909 هـ . فالمكتبة العربية المعنية باللغة ومعرفة الأصيل منها والدخيل غنية ، ولكن أين القارئ ، وأين من يدعوه إلى القراءة ، وأين من يعيد إليه هذا التراث سهلاً ميسراً - وأين الوقت الذي يملكه لكي يقضي فيه أمتع ما يجده من لذات القراءة ، وثمرات المعرفة وهيئات أن يُنسى فضل مجمع اللغة العربية في مصر وفي غيرها ، فهذه المجمع قدمت وما زالت تقدم للعربية أعظم الخدمات من خلال ما تدرسه وتناقشه وتنشره من كتب وبحوث تعالج فيها الأساليب المستعملة وما يطرأ منها على الأمة ، وتبين صحتها من فاسدها وتتبع ذلك بدراسة موثقة عظيمة لما تراه .

وأذكر في هذا السياق جهداً أراه آية إبداع من عضو مجمع اللغة العربية الملكي وهو الأستاذ عبد القادر المغربي الذي وقف عند أساليب مستعملة ، رآها بعض الباحثين أعجمية ، ورآها الأستاذ المغربي عربية ؛ لأن لها أصلاً ، أو تنتمي إلى ماله أصل وهذا عمل عظيم رائع ، ومن تلك الأساليب :

### 1- ما عاد فلان صديقاً لي

أجازه المغربي ويبين أن ( عاد ) من أخوات « كان » ولا بأس من استعماله .

### 2- وفلان بكى بدموع حارة

أجازة المغربي وقال عربي لأن العرب وصفوا الدموع بالسخونة ، إذ هم يتخيلون أن دمع الحزن سخين ، ودمع الفرح بارد ، فإذا دعوا لأحد بالمسرة قالوا : أقر الله عينه ، وفلان فريد العين ، وإذا دعوا عليه بالمساءة قالوا : أسخن الله عينه ، وعين سخينة ، قال والفرق بين العرب والإفرنج أن الأولين ينسبون السخونة إلى العين نفسها ، والإفرنج ينسبون الحرارة إلى دموعها<sup>(1)</sup> .

ولا مجال للاستطراد هنا ، وإنما أقول إننا في حاجة إلى ميسرين لا معسررين في الإبداع والدين ، وإذا كان النثر العربي رحباً واسعاً فليس من الفكر الإسلامي أن نحجر واسعاً ، وليس هنالك من بأس على مبدع أن ينوي بإبداعه وجه الله ولا على عالم دين أن يرى خدمة اللغة ديناً .

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

## خاتمة

حول الصراع بين فكر بعض رجال العلم بالدين ، وبعض المبدعين ، حاولت أن أقدم حلاً مستفاداً من رؤية قد تغيب عن هؤلاء وهؤلاء .

ولكي تقدم حلاً نافعاً يجب أن تقف على سبب المشكلة الأساس ؛ لأن الدعوة الإنسانية قلما يجدي نفعها إذا كان الأمر متصلاً بحق ماديٍّ مثلاً ، وما أكثر الحقوق الضائعة بين الناس الذين ادعينا أننا أصلحنا بينهم فأبوا إلا شقاقاً ، واجتهدنا في مساعينا بينهم الخير فأبوا إلا نفوراً وخصاماً .

ونحن إنما ادعينا ذلك لأننا بالفعل ناشدناهم الصلح ، وقلنا لهم إن الصلح خير ، ولا يدوم إلا بالمعروف وكنا بذلك كأصحاب المدرسة الطبية التي تُعنى بعلاج العرض ، فيصف أصحابها بعض المسكنات التي يخف بتناولها الألم لكن المرض ما زال موجوداً ، وسيعود من جديد ، وربما عاد أكثر ألماً ومرارة على المريض الذي قال قصيدة مدح في ذلك الطبيب الذي لقيه بألف سلامة من الفم ، وبكتابة مرهم أو أقراص بالقلم ، فنام ليلة هادئاً من الألم ، ثم عاد إليه الألم من جديد .

أما علماء الطب بحق فهم أولئك الذين يبحثون عن مكنن العلة ويعالجونها من الجذور ، فإذا زالت زال معها العرض ورحل معه الألم .

والسبب الذي بدا في هذه الأيام بين رجال العلم بالدين وبعض المبدعين كذلك يكمن في احتقان موروث أو مكتسب بين الفريقين ، فهناك من يحكم على الإبداع وهو ليس من أهله ولم يقف عند أدواته ، فغايتة التصيد لكل مبدع حتى يصيح : هذا يحارب الله ورسوله ، ويسعى في الأرض فساداً ، ويعتدي على المقدسات ، وهو يثير حرباً بلا رماح ، ويهيج جنوداً بلا ميدان .

(1) مجلة مجمع اللغة العربية ط الأميرية سنة 1934م .



والمشكلة عند بعض المبدعين تكمن في صور أشد عمقاً؛ حيث إن لديهم موقفاً من القيد، ولا يحبونه، ولا يرغبون في ذكر اسمه، فهم أحرار، وآية حريتهم أن ينطلقوا وأن يكتبوا، وألا يصادر أحد فكرهم، وألا يكسر إنسان قلمهم، وألا فما معنى الحرية وما معنى الإنسانية، وأي دين هذا الذي يزعم علماءه أنه يكمم الأفواه، والكلام في القيد بمعنى كونه حجراً على سفيه ما هو بسفيه كلام يحتاج إلى مراجعة وتأصيل، والقيد المبغض إلى النفوس أحب إلى النفس من الانطلاق إذا كان قيد سلامة وصون، لا قيد تسلط وجبروت وقد كان الشاعر القديم حراً، ولكنه طلب من مناديه أن يدعوه يا عبد فلانة.

فقال:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بَيَّا عَبْدَهَا

كأنه يقول لمن يناديه: أرجوك لا تقل: يا فلان الحر، وإنما قل: يا عبد بثينة أو أميمة أو عزة لأنه رأى قيد العبودية في حُبها أسمى من الحرية المجردة عن هواها، وكيف يعيش بلا هواها.

وانتقل الإسلام به وبمثله من ذل العبودية المفهوم ذلاً، والمفهوم توهماً غراً إلى شرف العبودية لله - ﷻ -

وشرف الله - تعالى - نبيه - ﷺ - حيث قال في مطلع سورة الإسراء الآية (1): ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِنَا﴾.

وفي غيرها من الآيات الكثيرة، والعبودية لله تنتهي العزة، ولن يكون هذا المعنى حقاً إلا إذا التزم العبد بأوامر سيده ومولاه، فإن سميها قيوداً وحدوداً فأكرم بها من قيود وحدود تصون ولا تضيع، وقد قال ناجي:

أَهْ مِنْ قَيْدِكَ أَدْمَى مَعْصِي لَمْ أَبْقِيهِ وَمَا أَبْقَى عَلَى  
مَا اخْتَفَاظِي بِعَهْدٍ لَمْ تَصْنُهَا وَإِلَامَ الْأَسْرِ وَالْأَدْنَى لَدَيَّ  
فناجي لا يعترض على قيد محبوبه إياه وإيقافه عليه إلا لأن محبوبه لا يفي له، ولو وفي له لكان قيده باقة ورد في يديه نظمت في جبل من حرير، أو في جبل من الحب لا تراه العيون. كما تكمن المشكلة عند بعض المبدعين في نزعات سياسية غلغوها إبداعهم، وأودعوها رموزهم، فهم أصحاب ثورة يرون الإصلاح لا يتأتى إلا عن طريقها، وبعضهم يرى أن الدين - أعنى علماءه - يساند النظام، والفتوى عند العلماء ليست إلا صدى لما يراه الحاكم كما يرى ذلك الأستاذ محمود أمين العالم وغيره.

ونحن الآن نرى مَنْ ينادي بإقصاء الدين عن الحياة وعدم إقحامه - بلغة الدكتور جابر عصفور - في كل شيء وصرّح الأستاذ السيد ياسين بأن سبب حضارة الغرب إعمال العقل وتجنب النص الديني الذي لا يرى فيه إلا جحوداً.

هذا بعض إفراز الاحتقان، وقد يكون مرجعه بلا شك في الخطاب الديني الذي يتبناه بعض من تعرض له فصور الدين جموداً ورواية لم يفهم أبعادها وقد تحدث ابن عبد البر - رحمه الله - وهو يذكر في كثير من مواضع كتابه التمهيد ما قاله بعض العلماء في أحاديث رسول الله ﷺ.

وقال: تتركه لأنه لا خير فيه، كان - رحمه الله - يعود على الأبعاد الحقيقية من وراء النص النبوي عن الحرفية التي لا ترقى إلى مستوى الدرس المستفاد من كلام خير العباد ﷺ.

والإسلام يدعو إلى الإبداع في كل مجال، وقد جاء مبدعاً في آيات الكون التي صورها دليل قدرة الله - ﷻ - وبحله الطيب وتحريمه الخبيث.

ولم يكن الإسلام حجر عثرة ، تحول بين الإنسان وعقله المبدع الذي ما رزقه الله إياه ليجمد عند نص ، وإنما ليستقي منه فروعاً كان لها أصلاً ، ويتفرع عنه غصوناً كان لها فرعاً ، ويتشعب عنه أوراقاً كان لها سنداً .

إن من مأساتنا الحقيقية ألا ننطلق في ظلال العموم الذي ساقه إلينا الكتاب العزيز إلى كل ما هو خير نافع للبشرية ، ومن خلال المطلق الذي قيده بعض الناس وضيقه ، وهو واسع ، وأذكر في هذا السياق أن رجلاً من أهل العلم المرموقين مرّ على جماعة من أهل الكتاب ، فقال لهم السلام عليكم ورحمة الله .

فقال له صاحب كان يمشي إلى جواره :

- كيف تقول لهم « ورحمة الله » ؟

فأجابه بقوله : أليسوا في رحمة الله ، والله لولا رحمة الله بهم لهلكوا .

فهذا عالم بصير ، وصاحبه ضيق ، يذكرنا بالأعرابي الذي قال :

اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا

فقال له النبي - ﷺ -

( حَجَرَتْ وَاسِعًا )

أي أن رحمة الله - ﷻ - واسعة ، فلم حجرتها وجعلتها ضيقة إلى هذا الحد بأن دعوت الله - ﷻ - أن يرحم اثنين دون الملايين الذين تسعهم رحمة الله - ﷻ - القائل في سورة الأعراف الآية (156) : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

وقد أعددت جملة من حلقات برنامجي « الدين للحياة » موضوعها « ثمرات من دروس الفقه » تناولت فيها الدروس الإسلامية المنبثقة من الأحكام الفقهية ومنها أن الإسلام ليس بزي شهوة لإقامة الحدود ، وذكرت ما جاء في موسوعة المبسوط في

الفقه الحنفي للسرخسي بأن أحد القضاة وهو فقيه من بلخ جاءوا إليه برجل سكران ليقيم عليه حد الشرب فأراد القاضي أن يختبر سكره من وعيه ، فقال له :

اقرأ : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .

فقال للقاضي :

- اقرأ أنت فاتحة الكتاب

فقال القاضي ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وقرأ الفاتحة ؛ فقال :

لقد تركت البسملة وهي من الفاتحة على رأي كثير من العلماء ، ولم تستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

فقال القاضي للشرطي :

لقد جئت بفقيه لا بسكران ، وصرفه ولم يُقِمْ عليه حدًا .

وذكرت في هذا الكتاب شعراً قيل بين يدي عمر - وعمر شديد - ذكر فيه الخمر والندامة ومغازلة امرأة ، ولم يقم حدًا على قائله لأنه قال له : والله يا أمير المؤمنين ما شربت الخمر ، ولكنه الشعر .

وقد قال النبي - ﷺ - لنا : « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

ومنا مَنْ عرف الحدود وحفظها وود لو أقامها على كل بريء فضلاً عن متهم ، ولكن ليس منا مَنْ أجاد معرفة الشبهات حتى يدرأ بها الحدود ، ومنها ما نص عليه الفقهاء من أن اختلاف العلماء في مسألة يعد من الشبهات ، فلو ارتكب إنسان مخالفة توجب الحد عليه على مذهب ، ولا توجه في مذهب آخر ، عد ذلك من درء الحدود بالشبهات ، فلا يقام عليه الحد .

وقد ثبت أن النبي - ﷺ - أمر حذيفة بالوفاء بالعهد للمشركين الذين عاهدوه على ألا ينصر رسول الله - ﷺ - عليهم ، فقال له - ﷺ - أوف لهم بعهدهم ونحن نستعين بالله عليهم . أخرجه مسلم في صحيحه .



وقد رأيت في هذا الكتاب أن الشعر صاحب الدعوة منذ بزوغ فجرها ، وأدى أطيب دور في نشرها ، وأنه كان بمثابة السحر الحلال الذي يجري في دماء أصحابها وفي المتلقين له ، وقد اعتمد عليه في تفسير الكتاب العزيز .

ورأيت أن الأدب الإنساني هو في الحقيقة أدب إسلامي ، فكيف أتصور أن الحضارة الغربية رجس من عمل الشيطان ، وسر نجاحها يرجع إلى إقصاء الدين ودليل على أن الأدب الإنساني أدب إسلامي قول النبي - ﷺ - أسلم شعر أمية بن أبي الصلت وكفر قلبه .

فشهادة النبي - ﷺ - لشعر أمية بالإسلام مع مفارقتها قلب أمية دليل على أن كل معنى من المعاني الصحيحة إسلامي ، وإن لم ينطق صاحبه بالشهادتين ، وكذا كل حضارة تثمر عن رفاهية الحياة وإسعاد الناس ، فإن هذا الدين دعوة إلى الحياة ، في ظل وسطية هي واسطة بين تطرف وتفريط ، فلا غلو في الدين ، ولا عدوان فيه وقد بينت في تقديمي لهذا الكتاب أن النبي - ﷺ - حين سأله عائشة : هل مر عليك يوم أشد من أحد ؟

أجاب يوم دعا قومه إلى الإسلام فأذوه بالكلام وفي ذلك دليل على أن جرح اللسان أشد على الإنسان من جرح الدماء .

ومن ثم أقول : ليتق الله كل داعية وكل مبدع فيما يقولان فإن للكلمة أثرها في نفوس الناس ، وفي تشكيل معتقدهم وثقافتهم وشعورهم ، ولكي تكون التقوى على ما يجب أن تكون عليه وتؤتي ثمارها ، على أهل العلم بالدين أن يكونوا مبدعين ، وعلى المبدعين أن ينطلقوا من الدين الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعد الكلام من الأعمال ، ومن اعتقد أن كلامه من عمله قل كلامه وقال صوابا . والله الهادي إلى طريق الرشاد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أ.د. مبروك عطية